رواية

المتشابهون

الأستاذ

أحمد طايل

اسم الكتاب / المتشابهون

اسم المؤلف / أحمد السيد طايل

تصميم الغلاف / ....

المراجعة والإخراج الفني / ....

رقم الإيداع: ....

تاريخ الحصول على رقم الإيداع: ....

الترقيم الدولي: ....

الطبعة الأولى

2023

المتشابهون

أحمد السيد طايل

الناشر

>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>

..يخلق من الشبه أربعين.

جملة تتردد دوما بكثير من الأمور الحياتية، الغالب الأعم يقولها بشكل اقرب للعبثية، غير قانع أنها حقيقة، بالفعل لكل منا من يشبهه، ملامح روحا، فكرا، فليبحث كل منا عن المتشابهين معه، ليأتنس بهم.

أحمد طايل

..1..

عقد السهاد معه عقدا منذ شهور، عقدا من طرف واحد دون أن ينال موافقته، أملى عليه سطوته، وتملك منه، ولكن إحقاقا للحق، كان رحيما إلى حد كبير، بدأ تنفيذ بنود عقده بالتدريج، ثوان، دقائق، سويعات، ثم عندما أيقن من هيمنته وسيطرته الكاملة، شاركه ليله دوما، أقض مضجعه، أذهب النوم من عينيه، جعل بندول رأسه يتواصل بالطرق العنيف، أصابه الصداع بشتى أنواعه، التساؤلات كانت تموج وتثور داخله، ما سبب كل هذا؟، فهو طوال عقود عمره، كان يتعامل مع الحياة بمرونة تامة، الحياة لا تحب من يجادلها أو يصارعها، سايس الحياة، تعيش بأمان وراحة بال، حتى عندما تستدعى الضرورة أن يكون طرفا بنقاش موضوع هام حياتى أو بعمله، يسمع، يتبادل النظر مع كل أطراف النقاش، ويكتفى بإيماءة الرأس موافقا مع الطرف صاحب الغلبه، تعلو شفتيه بسمه خفيفة كلما تذكر هذا الشعار الأبدى الذى لم يخرج عن خطه.مطلقا ولو مرة على سبيل الخطأ، ابتسم للدنيا تضحك لك، كلما أصابه السهاد، كلما نهض مسرعا إلى الحمام، يغلق الباب من الداخل، يقف أمام المرآة، يتأمل وجهه، يجزع حينما يجد مساحة الشعر الأبيض تتزايد، لم يكتف بكساء فوديه، بل زحف لإحتلال مساحات أكبر،

كاد يصبح كساء الرأس كاملا أبيض، يرى مزيدا من التجاعيد على مساحات الوجه والعنق، العروق أصبحت نافرة تماما مع كرمشات بالجلد المصاحب لها، الهالات السوداء أيضا اخذت نصيبها منه، صارت سمه واضحه أسفل عينيه، كان يشعر كل يوم يمر بزيادة مساحات الغصة داخله، والتساؤل، لم؟ لم يتغير شيء يستدعى كل هذا، لم يصل لإجابة، السبب الأوحد الذى أقنعه هو اقتراب سن التقاعد، رغم أن هناك ما يزيد عن الأربعة أعوام على هذا، كلما مرت سنه كلما ازداد قلقه، اكتفى بالتمتمات والهمهمات، ورفع الوجه إلى السماء، رافعا إصبعه، بعينيه كلمات:

– لك الأمر من قبل ومن بعد، لعله خير

زملاؤة بالعمل لاحظوا شروده، وزيادة عزلته، هم يعرفون طبيعته منذ أن جاء للعمل وهو ببدايات العشرينيات من العمر، شاب طويل القامة، منتصب القامة، حنطى البشرة، الخجل يكسوه تماما، يشارك بكل مناسباتهم في هدوء دون أن يبدى أى حراك، المشاركة بالحضور الشكلى، عرفوا عنه أنه كتوم، لا يحب أن يتسلل لحياة أحد، أو أن أحدا يتسلل إلى حياته، كل ما عرفوه أنه يسكن بشقه بشارع (قدرى) القريب من جامع ابن طولون، و(قلعة الكبش) والذى يبعد عن ضريح (السيدة زينب) حوالى سبع دقائق سيرا على

الاقدام، يلبى من يطلب مساعدة من أى نوع دون ضجر، طوال العمر لم يتغير مطلقا، تغير الشكل والملامح بفعل الزمن، أما طقوسه فلم تتغير، لم يعرفوا له أصدقاء، ولم يحاولوا أن يعرفوا، اكتفوا بحياده، وببشاشته وعدم التقاعس عن أى أمر يخص أحدهم حتى لو كان به تكلفة مادية، لم يرد أحدا خائبا، حتى الآن يتذكرون ليلة زفافه، قام بدعوة الجميع سواء من قسمه أو الأقسام الأخرى، أرسل إليهم أتوبيسا فاخرا، ذهبوا المتزوج أتى بزوجته وأولاده، والمتزوجة أيضا صاحبت زوجها وأبناءها، الأتوبيس تكدس بهم، ذهبوا تلبية لشهامته، وبدافع فضولى هو الأقوى، أرادوا أن يعرفوا من هو وعائلته وأهله وأهل قريته الرابضة بين أحضان الدلتا، قرية تتبع إحدى مراكز مدينة طلخا بالدقهلية، أول مرة سمعوا اسمها، تبادلوا الدهشات، (ميت عنتر)، تندروا، (ميت عنتر) ألا يكفى (عنتر) واحد، استقبلوا بالطبل والمزمار ورقص الخيل، العناق من الجميع رغم عدم معرفتهم سابقا، اصطحبوهم إلى سرداق مجاور لسرداق أكبر، الموائد المتراصة ذات الشكل الواحد، الكراسى المذهبه الأنيقة، السجاد الوثير الذى تغوص فيه الأقدام يكسوا كامل محيط السرداق، يتلفتون انبهارا، تساؤلات نهشت دواخلهم، كيف لمن يملك كل هذا الثراء الواضح أن يرتضى بعمل وظيفى

ممل؟، يعود عليه ببضع عشرات من الجنيهات، وأن يتعلق ذهابا وإيابا بأبواب المواصلات، اكتفوا بالهمهمات والتمتمات (لله فى خلقه شئون)، دعوهم إلى الطعام المكدس بشكل باذخ على كل الموائد، تلال من اللحوم متعددة الصنوف، وأطعمة نالت من دهشتهم، لقد شاهدوها بأفلام الأبيض والأسود بموائد الباشوات، لم يتخيلوا يوما أن يروها واقعا ويتذوقوها، انتابتهم الدهشة التى إرتسمت بوضوح تام على وجوههم، عبروا عنها بتبادل النظرات، أقبلوا على الطعام بشكل شبه هستيرى مصحوب ببعض الخجل حتى لا يرى الآخروين نهمهم، بعد فترة ليست طويلة أطاحوا بخجلهم وراء ظهورهم، فالكل مشغول بالتهام الطعام، انتفخت البطون، حتى تخوف البعض منهم أن تأتيهم الرغبة في إفراغ أمعائهم، فكيف التصرف؟!، أنقذهم من المأزق نداء أحد الرجال بصوت جهورى.

-من يريد الاغتسال، يتفضل معى

حمدوا الله جميعا فرارهم من المأزق، يتقدمهم الرجل، يسيرون خلفه صفا واحدا كأنه طابور فصل مدرسى، قادهم إلى بيت مكون من خمسة طوابق، فاخر البناء، نوافذه تأخذ شكلا جماليا يجمع بين

القديم والجديد، على شكل مشربيات بها تعديلات تواكب الزمن، أشار لهم الرجل بالدخول.

-خذوا راحتكم، هذا بيت الحاج (الحسينى فرحات) والد العريس، يا أهلا يا أهلا، شرفتونا، البيت بيتكم.

بهو فسيح للغاية، أكتر من صالون موزع على كل الأركان، الألوان متناسقة، وبعض الآرائك المكسوة بالقطيفة، نقوش الجدران تنم على أن صاحبها يفهم جيدا بعلم الجماليات، بضع درجات عالية تقود إلى عدد من الحمامات، الحمامات على اليمين للرجال، والحمامات على اليسار للسيدات، حمامات فخمه، بها الماء الساخن والبارد، والمناشف الفخمة ذات الملمس القطيفى الجميل، أخذوا وقتا طويلا رجالا ونساءا ليمعنوا النظر في مظاهر الأبهة التى يشاهدونها للمرة الأولى رؤية العيون، خرجوا وقد زاد طنين سؤال الدهشة داخلهم

- لماذا يرتضى أن يكون موظفا تحت إمرة رؤساء، بعضهم نرجسيون وبهم قصور نفسى يمارس سلطوية السلطة بشكل مرضى، مقابل حفنة جنيهات؟، لا يجدون أية إجابات، فيعودون للتمتمة.

– لله فى خلقه شئون وأمور

مع ازدياد بريق عيونهم وعيونهن.

سار بهم الرجل إلى السرادق الكبير، أشار إليهم بالجلوس بالمكان الذى خصص لهم، قريبا إلى حد ما من مكان جلوس العروسبن، كل الأنماط البشرية متواجدة، أصحاب بدلات شديدة الفخامة، أصحاب جلابيب كشميرية وصوفية فاخرة، تعلوها عباءات مطرزة، وعطور متعددة تملأ المكان، الهمس يأتيهم من المحيطين بهم من الرجال والنساء.

– طول عمره الحاج (الحسينى) رجل حق لا يحيد عنه أبدا، بيعامل الكل على أنهم من أهل بيته، نزيه لا يحرم أولاده من أى شئ، كثير العطاء لا يتأخر عن أحد، يعود المريض، يشارك بكل المناسبات، يتصدر المشهد عندما يحضر مسئول للقرية، يعرض طلباتها، يكون على رأس أى مجلس عرفى لحل أية مشاكل تخص أهل قريته بكياسته وفطنته وفراسة رأيه، سمعوا عن طقوسه المتوارثه من الأب(الشيخ فرحات أبو الحمد) أول من حمل شهادة العالمية الأزهرية بالقرية وربما بالجهات المجاورة، كان علامة فقهيا، حتى إن القول الشائع حينها، كيف نطلب الفتوى من آخريين، ولدينا كبير أهل الفتوى، ورث عنه، أنه عند كل نداء صلاة، يخرج مهرولا ووراءة أولاده

جميعا وأحفاده الذين بلغوا سن الفهم، حتى لو كانوا بالحقول أو بشئون أخرى من شئون الحياة، كان قبل خروجة فجرا للصلاة يوقظ الزوجة آمرا لها بلين،

-أيقظى البنات وأدوا الصلاة، بركة للبيت ولكم.

كانوا يصغون السمع مندهشين من وجود رجل مرتب، منظم محبوب لهذه الدرجة، صحوا من دهشتهم على ارتفاع دقات الدفوف وأصوات المزمار، ووقع أقدام الخيل على الأرض، هرعوا جميعا مندهشين إلى مقدمة السرادق، رهط من السيارات على تعدد أنواعها، تثير الغبار رغم أن الوقت ليل، كثير من السيارات مزدانة بالورود بأشكال متعددة، قلوب متناسقة، كلمات حب، أسماء العروسين، وقفت سيارة من طراز حديث جدا جدا، بمنتصف حلقة من السيارات، تطلق أبواقها المتعددة الأصوات، الدفوف تدق، المزامير تعلو نغماتها المتناسقة، وخيل يرقص بشكل إستعراضى متناغم، النسوة من أهل القرية على مسافة ليست قريبة، بأزيائهن المتشابهة، وعصابة الرأس المتشابهة أيضا ، يصفقن ويضربن الأكف ويزغردن، وسبحان الله بإيقاع متناغم ليس به أى نشاز، العريس ينزل من السيارة، يسرع إلى فتح باب نزول العروس، يتأبط ذراعها، يحيط بهما أصدقاء وأقارب العروسين من

الجنسين، أخذوا وقتا طويلا من الرقص والزغاريد، ورقصات التنورة، والراقصات اللآتى يحملن الشمعدانات، صاحبهم الجمع المحيط بهم إلى حيث (الكوشة)، الرقص ساد المكان، والصيحات والزغاريد تعلو وتعلو، شباب يمر على الجلوس بالمشروبات والحلوى، فجأة ساد الصمت، انتبهوا لدخول بعض الذين قوبلوا بحفاوة بالغة، صعدوا بهم إلى منصة العروسين، أعدت فرقة عازفين، أخذوا بعض الوقت لتجريب آلاتهم، عند التأكد من سلامة كل الأمور، ساد الصمت قليلا، خرج من وراء الستار المطرب (محمد طه) الذى قوبل بتصفيق حاد وتهليل، صدح بمواويلة لوقت طويل، الهمس يجئ من خلفهم، أنه في ليلة زفاف الجد (فرحات أبو الحمد) جاءوا له بمطربة صغيرة السن ترتدى العقال متشبهه بالغلمان، ورغم صغر عمرها أبهرت الجميع، مع الأيام ذاع صيتها، وعرفوا أن إسمها الذى لم يعرفوه وقتها (أم كلثوم)، سمعوا أيضا أنه في ليلة البارحة (الحناء) ونقشها على أيدى وأقدام العروس، أتوا للنساء بالمطربة الشعبية (خضرة محمد خضر)، طال بهم السهر إلى ما بعد منتصف الليل، صعدوا لتحية العروسين وأخذوا الإذن بالمغادرة، فأمامهم ساعات سفر طويلة، تبادلوا معه العناق والتبريكات، أشار العريس إلى أحد الرجال،

فأتاه مهرولا، همس له بشئ، أسرع على الفور لتلبيته، سبقهم يتبعه بعض الرجال فى مقتبل العمر، وبعض من الشباب، ناولوا كل رجل وسيدة أكياسا كبيرة، هدايا العرس، بادلوهم الشكر، أخذوا الطريق للعودة إلى منازلهم، النعاس غلب الصغار، أما الكبار فلم ينتهوا طيلة الطريق من الحديث عن العرس، وما شاهدوه من علامات اليسار الحياتى، وخرج من صدورهم هذه المرة التساؤل وبصوت عال:

- كيف لإنسان يتمتع بكل هذا الثراء والرفاهية التى تكفى أجيالا عديدة من بعده، أن يكون مجرد موظف حكومى؟!!

لم يتوصلوا للإجابات الشافية، ما كان على كل منهم إلا ضرب الكف على الكف، ورفع أهدابه متمتما.

- فعلا لله فى خلقه شئون وأمور، لعلنا يوما نصل لردود تشفى فضولنا.

ظلت ليلة العرس حديث الوزارة وأروقتها زمنا طويلا، يضاف إليها الكثير من بهارات الحكايات، بهارات تغير الكثير من حقيقة الأمور، بل تجعل الحقيقة تحت هيمنة وسيطرة الخيال، ونحن كشرقيين من عشاق الخيال هرباً من الواقع بشقيه الحلو والمر.

..2..

صحا من نومه على غير عادته التى لازمته رحلة العمر الطويلة، طقس لم يغادره ولو مرة، كان يستيقظ قبل آذان الفجر بنصف ساعة على الأقل، لم يؤخر أو يقدم ثانية عن هذا الموعد، ساعته البيولوجية تم ضبطها على هذا النمط، حتى إن زوجته الطيبة، ابنة الأصول التى رافقته منذ أكثر من ثلاثين عاما، كانت تداعبه أحيانا.

- والله يا رضوان، أصبحت متأكدة أن العصافير تبدأ بعزف موسيقاها اليومية وزقزقتها عندما تصحو، كأن بينكم اتصالا غير مرئ، ما فِي يوم تسهو وتنسى طبيعتك، ساعة سويسرية عتيقة.

هذه الزوجة بنت الأصول، حقيقة تزوجها تقليديا تنفيذا لرغبة الأب الباحث دائما عن مصاهرات تزيد من وجاهته الاجتماعية، وهذا أمر سارت عليه كل أجيال عائلة (أبو الحمد الرشيدى)، حكوا له وسمع كثيرا أن هذا ميثاق عائلته، لم يغادر ركابهم على طول العقود، لم يستطع أحد من أفراد العائلة أن يخالف أى بند من بنود هذا الميثاق، ولكن منذ اليوم الأول أثبتت أنها خلقت لأن تكون زوجة تفهم كيف يجب أن تكون الحياة الزوجية، أشعرته أنها (الست أمينة) نموذج المرأة المطيعة لأوامر ونواهى رجلها، ولكن ما يجب أن يذكر وبكل الإحترام أنها زوجة متطورة، متغيرة حتى لا

تصل هى أو زوجها إلى الملل، تودعة بإبتسامة، تربت عليه بحنان بالغ، يعود منهكا، يجد كل ما بالشقه تغير نظامة، تغير مكانه، مما يشعره بإنتعاشة روحانية، منذ أيام الزواج الأولى، وبحوار متأن وهادئ، اتفقا على عدم الانفتاح مع الآخريين، العلاقة الجوارية لا تتعدى تحيات الصباح والمساء، والمشاركة بكثير من الحذر والحواجز بالمناسبات، وخاصة بأمور العزاء، الاكتفاء بعلاقاتهم مع الأهل والأقارب، مع وجود حدود احترام، انفتاح العلاقات يجعلك تدور فى فلك أحداث لا تهمك أو تعنيك، ولا يصيبك منها إلا كل ما يعكر صفو الحياة ويجعلها عرضة لعواصف وأنواء، فتصبح أشبه بسفينة تتلاعب بها كل أنواع الأمواج وأنوائها ، تبسم بداخله حينما تذكر مقولة قالها أثناء النقاش، لا يتذكر متى قرأها أو سمعها، لا تجعل أحدا يلون حياتك فربما لا يملك سوى قلم وحيد وبلون وحيد هو اللون الأسود، تفهمت هى وتفهم هو ما يهدفان إليه، وسارت بهم الحياة، بشهور قليلة كانت قد نالت الإيثار الكبير من عائلته، كانت وبلا طلب أو أمر لها حين الزيارات المتعاقبة تصر على ترتيب حجرة الأب والأم، تعد الطعام بيديها مصحوبا بفاتح جديد للشهية أسموه ابتسامة (ناهد) أو كما كانت الأم تناديها دوما

وبفرحة طاغية (نهوده)، حتى إن الأم بإحدى الجلسات التى تجمعها بزوجات أبنائها تحدثت

– سوف أقول لكم شيئا ولكم أن تعتبروه وصية، مؤكد لكل أجل كتاب، وهذا أمر لا جدال فيه، عندما تحين ساعتى، أوصيكم بأن تكون (ناهد) مع القائمين على تغسيل جسدى وتكفينى، أعرف أنها ستفعل رغم مشقة هذا عليها، هذه وصية والوصية أمانة بعنق أصاحبها إلى يوم الدين.

الكل لحظتها رفع الأيدى، وخرجت أصواتهن معا، كأنهن كورال فرقة غنائية.

– نرجوك يا أمى ألا تعيدى هذا، ربنا يمتعك صحة وعافية، ويطيل بعمرك، أنت ريحان الحياة

وإنتابتهن موجة من البكاء وانهلن لثما وتقبيلا لها، وقد نفذت الوصية بكامل حذافيرها.

وكان هو أيضا صاحب الحظوة لدى عائلتها، لم تشكو أو تتذمر أو تطلب شيئا ربما يثقل عليه، رغم يقينها بيساره الهادى، لم تفعل ما تفعله الزوجات، أن تستقبل الزوج بقائمة لا تنتهى من الطلبات والشكاوى والنحيب والعويل، رغم أنه لم يكن رومانسيا، أو ممن

يجيد الغزل وإطلاق كلمات الحب، كان يكتفى بأن يصوب عينيه نحوها مليئة بعرفان ومحبة، الحب ليس كلمات تقال، بل أفعال عفوية تصل بصدق لمستقبليها، يذكر بأيام زواجه الأولى أنه كان يتعامل معها على أنها أمر واقع فرض عليه وعليها، كان هناك حاجز غير مرئى بينهما، ولكن بذكاء فائق منها استطاعت إزالة كل الجليد، وجعلته يتحقق من مقولة سمعها من أبيه قبل زفافه بأيام، مقولة سمعها من أبيه مرات من قبل، حال زواج إخوته وأخواته، كان الأب حريصا بهذه اللحظة أن يجمع كل الأبناء، ويوجه حديثه مباشرة للإبن أو الإبنة، ممسكا بكلتا اليدين، مصوبا نظراته بحدة، قائلا بصوت جهوري.

- لا تتعجلوا الحكم على أى أمر من أموركم، التروى وإعمال العقل أساس الحكم بشكل أقرب للصواب بدرجة كبيرة، وهذا مطلوب أكثر بالزواج، الزواج يتنقل الإنسان من حياة إلى حياة مغايرة، بدلا من كونه كان تحت مسئولية أسرته حتى لو كان كبيرا بالعمر، وحينما يصبح زوجا أو تصبح زوجة يجد نفسه مسئولا، يحتاج بعض الوقت ليتفهم أبعاد هذا الانتقال من حال إلى حال، ولكن حال الزواج يحتاج إلى ترو وتريث أكثر وأكثر.

سار هو وإخوته ذكورا وإناثا على هذا المنهج الذى عايشوه مع الأب والأم، وما يتذكرونه من الجد والجده، لم يشاهدوا يوما صوتا عاليا، أو نهرا بشدة، أو حتى مجرد نظرة غاضبة.

نظرت زوجته إليه بدهشه بالغة دون أن تنبس ببنت شفه، فهى تعرف طبيعته، أن يترك للحظات حتى يصل إلى يقظته التامة، نظرت إليه مرات حين طال صمته، مد يده وربت عليها بحنان مرات ومرات، مبتسما ابتسامته الصغيرة والقصيرة، حدثها قائلا-:

- أعرف ما يدور برأسك من تساؤلات، لماذا لست كما اعتدت طيلة أيامى، سأجيبك، بجد للمرة الأولى لا أعرف سببا لهذا الكسل الذى يعترينى، ويمنعنى من النهوض، أشعر بقدمى، كأنهما مكبلتان بأصفاد حديدية ثقيلة، أشعر بحاجتى للنوم، كلما أردت أن أفتح عيناى كطبيعتهما يعودان سريعا لإطباق الجفون سريعا، ولكنى بصدق لن أستسلم لهذا الخمول والكسل، هناك مصالح لناس وشركات معلقة برقبتى، وداعا أيها الكسل، وأطلق ضحكة سريعة مقتضبة، وللمرة الأولى بحياته ومؤكد ربما تكون الأخيرة، قفز من فراشة، وأسرع إلى حمامه، تتابعة كلمات زوجته المصحوبة بضحكاتها التي تشع بالبهجة.

– هذا يوم لابد من ذكره دوما، الحاج (رضوان أبو الحمد) مزق شرنقته وتمرد على طقوسه، سوف أكتب هذا حتى أسترجعها دوما، وسوف أنبئ الأولاد والأحفاد بقفزة الجد هذه القفزة الشبابية التى لم أشاهدها على مدار سنواتنا معا.

وعادت إلى إطلاق رنات ضحكاتها، أتى من الحمام حليق الذقن، مشذب الشعر المتبقى على الجانبين، باسما مردفا حديثه.

– دعى لنا بعض الأمور الخاصة بنا، ليس كل شئ يقال.

لم ينتظر الإجابة أسرع إلى ارتداء ملابسه على عجالة، اقترب منها، شدها إليه، إحتواها داخل صدره، مال عليها، تناول شفتيها بنهم، طالت القبلة، حتى إن الدموع طفرت من عينيها، بل انهمرت بغزارة، ارتجفا سويا، أرادت الخروج من هذه الحالة، تبسمت بسمه خرجت عنوة.

– ماذا بك، هل تشعر بشئ لا نعرفه، الله يجعله خيرا بأمر الله.

– حبيبتى، ما يجئ عفويا دون أن يأخذ وقتا للتمهل فهو الصدق الشديد، وأنا عبرت بما شعرته دون أي تصنع، ولعل الرسالة وصلت، للأسف نحن كثيرا ما نتجاهل أمورا نحن بأشد الحاجة إليها، أتركك قبل أن أجد نفسى عدت شابا مجنونا، مفتونا، وآخذك

من يدك، نهرول ونذهب لمكان خال من كل الناس، سلام عندما أعود، ربما تجدين (رضوان) بلا أغلفة خارجية، وكونى مستعدة للعشاء بالخارج الليلة وعلى النيل.

رفعت أهدابها، واتسعت حدقتا العينين، صاحت به قبل أن يسرع بالخروج وإغلاق الباب خلفه.

- (رضوان) بجد ماذا هناك؟، ما أراه وما أسمعه غريب على، مع فرحتى إلا إننى قلقة، طمنى أرجوك.

- والله والله لا شيء، تقدري أن تقولي لحظة تمرد على اعتياد عشناه طويلا، كان شريكا دائما لنا، ألا يحق لنا أحيانا أن نتمرد، وأن نصفق الباب في وجه الاعتياد، آسف لأننا عشنا الملل والسأم كثيرا، صحيح تمرد تأخر كثيرا، ولكن ربما نستطيع الحياة بشكل مغاير.

مد كفه، ربت على وجنتيها، أعطاها ظهره منصرفا، مشيرا لها بالتحية الباسمة.

إعتاد مرؤوسوه ورؤساؤه منه الجدية، وعدم إثارة أية مشكلات، والذهن المرتب القادر على إضافات قوية لنشاطات الإدارة التى بدأ بها موظفا بأول درج الوظيفة، حتى وصل إلى منصبة الحالي، مدير عام إدارة التخطيط بوزارة الاقتصاد، كان يفاجئ رؤساءه بتقارير

وتحليل للوضع الاقتصادي محليا، وإقليميا، ودوليا، يناقش ويستعرض المشكلات وأسبابها وحلولها، ورؤاه للقادم، كان يصيب الجميع بالدهشة، لذا قفز سريعا إلى الصفوف الأولى، دون أن يمارس الطرق التى يجيدها الكثيرون، التملق أو تنازلات متنوعة الزوايا، رغم هذا كان مبهما للجميع، لا يعرفون عنه أية زوايا خلاف، اسمه وعائلته ومحل ميلاده، وسكنه، أمور لا تشفى غليل أصحاب الفضول والبحث عن حيوات الآخرين، حاولوا بكل الأساليب، ولكنهم دوما يعودون خاليى الوفاض تماما يتصببون عرقا باردا وساخنا، كل صباح يأتي إلى مقر الوزارة يستقبله العامل المختص بمكتبة والذى ينتظره بموعد لا يتغير بمدخل الوزارة، عندما يرى سيارته مقبلة من بدايات الشارع، يقفز درجات السلم مهرولا بشكل هستيري يعطى إيحاء لمن يشاهده أنه قد ينكفئ على وجهه، ولكن هذا أبدا لم يحدث، بهذا الصباح تأخر عن موعده المعتاد، ساوره القلق عليه، ولم يكن أمامه إلا الدعاء بسلامة العواقب، ولما لا ينتابه القلق، الرجل رغم غموض زواياه الحياتية، كريم فوق أي تصور، كريم دون أن يشعرك بأي نوع من الامتهان، في موسم دخول المدارس يهمس له باحترام بالغ.

– انتظرني بجانب السيارة، سنذهب لقضاء أمر معا.

يذهب به إلى محلات راقية، يجعله ينتقى ما يناسب أولاده من ملابس مدرسية وما يناسب مناسبات أخرى، يذهب به إلى الفجالة يشترى كل احتياجات العملية التعليمية على مدار العام، لا ينسى شيئا مطلقا، يصرف ببذخ غير ملزم به،

وكذلك بكل المناسبات، وكثيرا ما يجزل له العطاء، وعندما يعود من القرية، يعطيه مفتاح السيارة قبل انصرافه من العمل، طالبا منه أن يأخذ ما هو موجود بشنطة السيارة هدية للأولاد، حقيقة هناك من الكثير مما يجعله يتصبب عرقا وقلقا.

انتبه على بوق السيارة الذى يميزه جيدا، انفرج وجهه، لم يشعر بنفسه إلا مندفعا يقفز درجات السلم قفزات شاب بالعشرين وهو من تجاوز من العمر الأربعين بعدد من السنوات، أسرع بفتح باب السيارة، تناول الحقيبة المنتفخة بالأوراق، معروف عنه أنه يصطحب معه بعض الأوراق لينهى ويستوفى ما تتطلبه من إجراءات، تعلم منذ صغره، ألا يؤجل عمل اليوم للغد، فما بالك بعمل يحتاج سرعة إجراءات، الوقت لا ينتظر وتكلفة انتظاره باهظة وباهظة للغاية، نزل على غير عادته بالسنوات الأخيرة، كان يرتكز بنزوله على ساعد العامل، هذه المرة أزاح ساعده برفق، نزل رشيقا، منتصب القامة، مد يده، داعب وجنتى (منتصر) العامل

بحنو مرات ومرات، على قدر سعادته بهذه المداعبات على قدر ما أصابته غصة فجائية آلمت صدره، ترقرق الدمع بعينيه، وجد نفسه لا إراديا ينحنى يشد يد (رضوان بك) كما اعتاد أن يناديه منذ أن عمل معه، أراد تقبليها، انتفض جزعا ساحبا يده بشده، وللمرة الأولى يصرخ به ناهرا إياه بعنف حتى خيل (لمنتصر) أنه ربما يصفعه عدة صفعات.

– ماذا تفعل، أنا لا أحب منك أو من غيرك هذا، نحن جميعا أبناء لأب البشرية (آدم) الذى لم يفرق بين أبنائه، لا فرق بين أحد وآخر، أرجو ألا تفعل هذا مطلقا معى او مع أي أحد ، يا أخى لماذا تقلل من نفسك، الناس ليست ثروة وجاه ومناصب، كل هذا زائل، ما يتبقى إلا السمعة وطاعة الله.

أسرع الخطى يسبقه ليفتح باب المكتب، وضع الحقيبة في مكانها المعهود، أخذ جانبا حتى جلس، وقف أمامه بانتظار أية توجهات، أشار إليه أن يأتي اليه بقهوته، وأشار إليه بالانصراف طالبا منه إغلاق الباب خلفه، ولا يدع أحد يدخل لبعض الوقت، لإنهاء بعض المهاتفات، بعدها ينغمس تماما بفحص ملفات مرتبة بما يراه، الأهم فالمهم، بكل ملف يضع ورقه بيضاء يدون رؤيته، والتأشيرات والملاحظات التي يراها هي القرار النهائي، بعدها

يتناول التقارير الواردة من موظفيه لمهام كلفوا بها، كثيرا ما يرسل لصاحب التقرير يستدعيه للحضور، يناقشه بالتفاصيل التى جاءت بتقريره، تفصيلة تفصيلة، يحاوره بهدوء، يبلغه أنه كان صائبا في هذه الجزئية، وجانبه الصواب بجزئية أخرى، يعطيه بعض نصائحه، دوما يبتسم ابتسامته القصيرة والهادئة، ثم يعطى بعض التوجيهات لأمور أخرى يتم تكليفهم بها، يقطع دراسة ملفاته رنين الهواتف المتراصة على مكتبه، يسمع بلا أية مقاطعة، يكتفى بترديد، واضح، مفهوم، أرى أن نهتم بعض الشيء بهذا الجزء، يضع السماعة، يتناول أخرى، بصوت خافت دائما، يلقى أوامره وتوجيهاته، بهدوء تام، لا يذكر أحد بالوزارة أنه سمع صوته يعلو، حتى بأوقات الأزمات الطارئة، لا يتوتر، يبحث عن معالجات بمنتهى الهدوء والتصالح النفسى، مؤمنا تماما أن التوتر والعصبية والانفعال الزائد، هو السبيل الأساسى والحتمى وبنسبه كبيرة للقذف بالأهداف المرجوة والمنشودة لأي من أمورنا الحياتية والعملية على تعدد زواياها إلى التهلكة والفشل، عندما يدعى للقاء الوزير ونوابه ومساعديهم ومديري الأقسام، يفاجئهم دوما بتقديم ما يشبه التقارير عن نتائج الأعمال عن فترات زمنية ماضية، يفند السلبيات وأسبابها ويضع أمام أعينهم سبل العلاج، يبرز الإيجابيات يشرح شروحا وافية عن

أسباب نجاحاتها، ويضيف إليها ما يراه من إضافات تزيد من الوهج الإيجابي، يقدم دراسة شاملة مع خطواتها ورسوماتها البيانية لخطط تناقش، يشرح ويقدمها بشكل مبسط وسلس ، يجعل من الخروج بها إلى أرض الواقع وحيز التنفيذ سهلا، بريق الدهشة نحو هذا الرجل الذى يسبق الجميع بخطوات وثابة يزداد في كل لحظة، الكثير من القيادات دائمى الاستشراد بآرائه ورؤاه، الانبهار مع كبر التساؤل داخلهم، عن مكنونه الخفى، وحرصه الدائم أن يبعد بخصوصياته كل البعد على أن تكون ضمن وليمة النميمة اليومية، تعاقب عليه الكثير من الوزراء وأصحاب القرار، بدون أن يتقرب أو يمارس لعبه الرقص أمام الجميع، كان ينال الحظوة دون سعى منه، وكأن من يترك الوزارة إقالة أو استقالة أو تعديل وزاري، يترك ملفا لمن يخلفه عنه، ما من رحلة عمل لوزير أو مسئول كبير بالخارج أو بالداخل إلا وكان على رأس القائمة، ما إن يأتيه علم بأن هناك مهمة إلا وتجده يعد تقريرا وافيا محدد الملامح، يبين سياسات الجهة المتجهين إليها، سياستها الخارجية، الاقتصادية، وأوجه التعاون التى من الممكن أن تكون بين البلدين، بكل رحلاته كان يجد نفسه محط الأنظار، الكل ينصت بكل ما بالمسام من خلايا الإنصات، وبذات الوقت يحاولون قراءة ما بداخله، ولكن هيهات، الوجه

هادئ، منبسط الملامح، لا تظهر عليه أية أمارة تساعدهم على الولوج لعالمه أو قراءة سيكولوجيته، هو يتذكر جيدا هذه الليلة التى جلسوا جميعا متحلقين حول الأب، عادة كان ينتهجها الأب، ولكن بلا مواعيد محددة، أن يجلس متوسطا كل أهل بيته، يتذكر جيدا كلماته.

– سوف أقول لكم كلاما أرجو أن يكون ساكنا داخلكم ما حييتم، وأن يكون أيضا دائما أمام أبصاركم، وورثوه لأولادكم، لكل إنسان خصوصياته، هناك خصوصيات عامة، وأقصد هنا خصوصيات العائلة والأسرة بكاملها، وهذه تحتاج دوما للجلوس ومناقشة مستجدات حياة الأسرة، بما يضمن أن تسير بشكل مستقيم، واثقة الخطوة والهدف، هذه خصوصية تقرب بينكم، لأنكم نسيج واحد، لابد لكم من التماسك والالتفاف سويا لدرأ أية منغصات أو ما يؤدى إلى تفريق شملكم، إن حدث وسمحتم بتفتيت خصوصياتكم العامة، سيكون الثمن غاليا، أن يعيش كل منكم بجزيرة منعزلة، وهذا لا أرجوه لكم سواء كنت حيا أو ذهبت إلى رب كريم، وهناك الخصوصية الفردية التى تخص الإنسان وحده، وهذه وأؤكد آلاف المرات، يجب عليكم الحرص عليها، بمعنى لابد لكل منكم أن يكون له بعض الجوانب والزوايا التي تخصه وحده،

لا أن تكون أشبه بالثياب المعلقة باستمرار على أحبال الغسيل تتعرض لكل أنواع التعرية، أن تكون عرضه لملايين العيون، كل منهم يلوكها ويمضغها بالطريقة التى تناسب عقيلته وتفكيره، إن تحولت خصوصية الإنسان للتعرية والاختراق، لن يستريح مطلقا، لأنه عار مجرد من كل أرديته أمام الجميع، حينها تأكدوا أن كل الطرق تؤدى إلى توجيه كل الطعنات اليكم وتظلون بحالة نزيف دائم، لا يعرف الطريق إلى الإندمال والشفاء على مدى طويل وبعيد، ليس معنى قولي هذا أننى أطالبكم بالعزلة وإغلاق الأبواب أمام المجتمع المحيط بكم، ولكن لابد من وضع حواجز إلى حد ما، الخصوصية ببعض جوانب حياتنا، مثل صناديق الطائرات والسفن، هم يسمونها سوداء، ولكنى أراها بيضاء، عيشوا الحياة بوسطية، لا مغالاة ولا مزايدات أو تطرف أو تضخيم للأمور، هذه رسالتى توارثتها من السابقين ومن خبرتي بالحياة، أعرف تماما أن كلماتي ستظل نصب أعينكم لأنها كانت عندي أيضا إرثا عن الأجداد، يحفظكم رب العباد.

تمتم داخله مادا يده ليمسح بها بعض دمعات لاحت بمقلتيه.

– رحمك الله يا أبى، والله أسير على منهاجك، وورثته لأبنائى، صحيح الولدان كل منهم مغترب باختياره، لم أقف مطلقا أمام

رغباتهم، لأنى علمتهم الحوار الديمقراطى، وتحمل المسئولية، مع الحفاظ على موروث العائلة من العادات والقيم والاعراف، والتمسك بتاريخ الأسرة والإضافة إليه من نجاحات وتميز، حقا أوجه التشابه تنتقل مع كل الأجيال، ليس ضروريا أن يكون التشابه ملامح وبنية جسدية، التشابه بالفكر، بالنمط الحياتي، بالكياسة والفطنة وتحديد الخطوات والمواقف بلا تردد وبهدف واضح.

رغم انهماكه الكبير بالعمل وانكبابه على ملفات العمل بالفحص الهادئ، وسيل المكالمات التى لا تنقطع إلا أنه لا يشعر بأي نوع من الإجهاد الجسدي أو النفسى.

قطع حبل أفكاره والتدقيق بالملفات المكدسة أمامه، رنين متواصل من الهاتف، تجاهل الرد لمرة، وعندما تواصل الرنين، رفع السماعة، وقبل أن يتلفظ بالسؤال عن ماهية الطالب، أتاه صوت متحشرج مكتوم، مشوب بدموع، كلمات متقاطعة تحتاج لمن يجيد تكوين جملها.

- أنا (حسين) إبن عمك (أبو الوفا أبو الحمد)، أحتاجك لأمر عاجل، لا يصح إيضاحه بالتليفون، غدا الجمعة أحضر إليك قبل صلاة الجمعة، نصلى بالحسين ثم نجلس بمكان هادئ، لأن الأمر لا يمكن الحديث عنه ببيتك، لن أزيد انا فعلا بحالة تخبط، انتظرني

غدا، سأحدثك لحظة وصولي القاهرة، سلام وأسرع بإغلاق الهاتف تاركا له نهبا للتساؤلات والقلق، تمتم لذاته.

- يا رب يكون خيرا، ولكن الصوت وحشرجته واحتمالية البكاء لا تنبئ بخير، يا رب سهل ويسر

دق الجرس يستدعى (منتصر)، دخل مسرعا دون طرق الباب، وقف منتظرا التعليمات التى يعرفها تماما، هى ساعة إنهاء عمل اليوم، ينتظر نهوضه من كرسيه، يسرع لتناول الحقيبة التى دوما منتفخة، يسرع بفتح الباب ويفسح الطريق له ليمر، يسبقه لفتح باب السيارة التى يحمل مفاتيحها من الصباح، يودعه بالدعاء المعتاد.

- يا رب طريق السلامة، ربنا يمتعك بالصحة والعافية، لا يترك مكانة إلا بعد إعلان السيارة بداية العودة.

تذكر وعده لزوجته بتناول العشاء بالخارج، طرأت برأسه فكرة، يعرف مدى عشقه وعشق زوجته للطرب الأصيل، قرر على الفور مفاجأتها بحجز تذكرتين بحفل فرقة (أم كلثوم)، توقف بالسيارة بعيدا عن حركة السير، أخرج هاتفه، بادر بمهاتفة صديق له يعمل

بدار الأوبرا، لم يطل رنين هاتفه، جاءه صوت صديقه (خالد محروس) كعادته ضاحكا بشوشا.

– يا الله فعلا القلوب عند بعضها، حالا والله كنت أفكر بالاتصال بك، أكثر من أسبوعين لم أسمع صوتك، تحت أمرك يا غالى.

– أريد حجز تذكرتين بحفل فرقة (أم كلثوم) هذه الليلة، أنا فعلا مقصر معك، ولكن أنت تعلم مسئوليات العمل، سوف نلتقى قريبا، أنتظر أن تخبرني بالحجز، اترك التذكرتين باسمى لدى شباك التذاكر، دوما أثقل عليك، سامحنا.

– لا تقل هذا الكلام ثانية، نحن إخوة، سلام يا غالى.

سار وبرأسه مطارق تدق ، طرقات ودقات متصاعدة، منذ أن هاتفه ابن العم، السؤال ينهشه تماما، ماذا هناك ليستدعى الحضور؟، وحشرجة الصوت، ماذا هناك؟، يئس تماما من الوصول لتفسير، عند سوبر ماركت على مقربه من منزله توقف، هاتف زوجته طالبا أن تحدد احتياجاتها من السوبر ماركت، أملت عليه قائمة، سارع للتجول بزوايا المكان، يدفع عجله الشراء أمامه، يتوقف هنا وهناك، انتهى أخيرا، أخذ مكانه أمام الكاشير، أعاد مهاتفة زوجته ليتحقق من عدم نسيانه أيا من الطلبات، صاحبه أحد العمال، دافعا

أمامه عربة التسوق، هو وجه مألوف للعاملين بالمحل، كان شديد السخاء معهم، عاد منشطرا إلى قلق يسكنه بشأن ابن العم، وسعادة تغمره تشعره بحيوية افتقدها من سنوات لا يعرف مداها، لم يشعر إلا بيده تبحث عن كاسيت به موسيقى (ألف ليلة وليلة) موسيقى تجعل منك شاعرا تتماشى مع النغمات وتنظم كلمات أخرى، رفع عقيرة جهاز كاسيت السيارة، كاد أن يتمايل ويصفق مع الموسيقى، كلم نفسه.

– آه وآه لو رأتك (ناهد) وأنت على هذه الحال لوصفتك بالخبل، حمل ما أتى به، صعد درجات السلم يدندن، وضع الحاجيات عند أقرب مكان، نادى بصوت منغم متقطع، ن ا ه د، أتت مهرولة، لم تسمع هذا النداء من سنوات، كان يرددها دوما، يبدو أن بعض الكلمات هى أيضا تصاب بانتهاء الصلاحية، اتسعت حدقاتها دهشة، لا أثر لما تعودت عليه، الوجه الذى لا تستطيع قراءته، بقدره قادر تحول إلى كتاب مفتوح، كل جزء منه ينبئ عن أن هناك أمورا جعلته ينزع قناعه اللصيق به، لم يشبع رغبتها بالفهم، بل سارع بطلب الغداء فهو على حد قوله جائع، وجه لها الحديث.

– نتناول غداءنا، ثم نخلد للنوم قليلا، وراءنا عشاء بالخارج، هيا لا تضيعى الوقت، بالتأمل بي، والله أنا زوجك (رضوان) لم أتغير أو أتبدل.

قفز نحوها فاتحا ذراعيه على كامل سعتهما، راغبا باحتضانها تنازعته الرغبة في أن يرفعها بين يديه، ويدور بها هاتفا وزاعقا بكل ما بحنجرته من قوة، أحبها، أحبها، هى أدركت ما ينتويه وما يريده، هرولت نحو المطبخ، ضاحكة توجه له الحديث.

– ماذا بك يا رجل، هل أصبت بداء مراهقة الشيخوخة؟ أنسيت أنك جد؟.

– وهل السن أيا كان يمنع أن نعيش الحب، وأن نمارسه ونتمتع بمذاقه؟، عامة ننتظر الغداء، وللحديث بقية.

مردفا ختام حديثه، بقهقهات عالية صاخبة، زادت من مساحات الدهشة لديها.

تناولا الغداء بين حوارات عن أيام خوال مضت، عن بعض مواقف مرت بهم، مع بعد اللمسات الحانية، يتضرج وجهها باللون القرمزى كأنها فتاة في سن العشرين، حكى لها عن مهاتفة ابن العم، وأنه لم يجد تفسيرا، ساعدها بنقل أوعية الطعام إلى المطبخ، وضع

يده على كتفها، يبعثر شعرها الأسود الفاحم، المسترسل حتى الردفين، يقبله، سار بها إلى حجرة النوم، جلسا على حافة الفراش، يتلمس جسدها بأصابع عازف ماهر، استكانت بحضنه، هى منذ أن دخل الشقة، بعيونه نداءات تعرفها، طرحها على الفراش، أخذ يقشرها من ثيابها، يقبل الثياب، كلما قبل جزءا، تموء مثل قطة سيامى جميلة، الدماء الحارة سادت جسديهما، أقبلا على بعضهما ملتحمين ومنصهرين تماما، أحس هو وأحست هى كأنهما بليلة زفاف أولى لهم، طال بهم أمد الحب، وعندما انتهيا، أدخلها بين ذراعيه، تتوسد صدره، بين اللحظة والأخرى يتبادلان النظرات عفويا وبآن واحد، تعلو الشفاه بسمات خفيفة، تساؤل يتصاعد داخلهما.

-ماذا حدث، ما سبب التغير الذى ألم بهما بوقت واحد، هل هو إحساس بحاجتهم إلى الاحتواء، الاهتمام أكثر، فلم يعد لهم من أحد، الولدان كل منهم انطلق إلى عالمه، أخذتهم حياتهم الجديدة، أصبحا لديهما، مجرد أسماء مدونة بشهادات الميلاد، يتصدقان عليهما ببعض المهاتفات، صوتا وصورة، وبعض الزيارات التى تتباعد بين الوقت والآخر، زيارات لأيام وتنتهى أسرع مما بدأت، وكأنهما يتوسلان ويتضرعان للأقدار أن تسرع بانسلاخهما عن حياتهما

السابقة، تنهيدة طويلة للغاية خرجت من الصدور، تمنى كل منهم أن يصرخ بكل ما بالصوت من علو، ألا لعنه الله على صناع الرياح والتغيرات التى قتلت الكثير من القيم الرواسخ التى تربينا عليها، فسخت كل شيء، صلة الرحم، الود، دفء التلاقى، صرنا آلات صماء، مجرد إرسال استقبال، يااااه كم أنت عجيب أيها الزمن، وكم أنت عجيب أيها الإنسان، تهرول دون تمحيص وتمعن وتدقيق ودراسة لما يأتيك من الرياح والأعاصير يبهرونك بصريا وغرائزيا فيسيل لعابك، ولا تنتبه لعديد من الفخاخ والشراك المعدة لك بمهارة تامة، يا الله كم أنت ساذج أيها الإنسان!!، تنهيدة عميقة ذات رنين صدرت من كليهما بوقت واحد، بعدها لاذ كل منهما بالآخر وذهبا في سبات عميق، انتفض على رنين المنبه المرتفع، نظر عفويا إلى ساعته، يالله لقد استغرقا بالنوم لساعتين أو أكثر، ربت على ساعدها برفق، فتحت عينيها مبتسمه، طالبها بالإسراع لأخذ حمامها، وهو أيضا سيفعل، لأن الوقت داهمهما.

- أي وقت مازال الوقت باكرا، عادة لا نتناول العشاء إلا بعد العاشرة، فلماذا التعجل؟

- أعددت لك مفاجأة، فهيا لتريها.

- أي مفاجأة؟

- كيف تكون مفاجأة إذا؟، الأهم أنها سوف تبهرك، هيا أسرعى.

لم يمر وقت طويل إلا وكانوا على أهبة الاستعداد للخروج، تباطأ ذراعها، بعد نصف ساعة كان يدخل بها إلى مبنى الأوبرا، هى طوال الطريق تناشده السؤال عن وجهتهم؟، ينظر إليها مبتسما.

- صبرا، لحظات وتجدى الإجابة، لا تتعجلى.

عندما وجدت نفسها بمضمار الأوبرا لمعت عيناها ووجدت نفسها تعانقه، تجذبه إليها تطبع قبله على جبينه، تربت كثيرا على يديه، أخذا الطريق إلى ماكنهما حسب التذاكر المرقمة، ساعتان من الطرب الكلثومى الشامل لأغان عده مرت بكل مراحل رحلة غناء سيدة الغناء العربي (أم كلثوم)، بعدها ذهبا إلى أحد المطاعم المطلة على النيل، بالهواء الطلق تتفتح الشهية، يتأملان صفحة النيل وانسياب مياهه، سريان المياه أشبه بشريط الحياة، بها التواصل، بها توقف قليلا كأن المياه أيضا تفكر بخطواتها القادمة، الوقت قارب على منتصف الليل، جميل أن الغد يوم جمعة، عادا لمنزلهما كل أرديتهما مليئة بألوان شتى من السعادة، بدلا ملابسهم، هو يشعر برغبة عارمة لمطارحتها الحب من جديد، علت شفتاه بسمه خفيفة، تذكر قول صديق له، لا حديث له إلا عن الحب وأطروحاته التى لابد أن تتغير بين الحين والآخر، مرة همس لجلسائه.

- احذروا أمرا هاما، ألا تظهروا اللهفة بشكل مبالغ به، النساء لديهن قرون استشعار قوية، قد تذهب بهن أن هذه اللهفة الشديدة هى محاولة من الرجل لتطهير نفسه من إثم ارتكبه، سواء فعلا أو قولا، كونوا طبيعيين لا تندفعوا إلى أمور تدعو للجدل.

بريق عينيه يحدثها عن رغبته، هى أيضا تضرج الوجنتين ينبئ بذات الرغبة، اندفعا إلى بعضهما بتلاحم اشتاقا له طويلا، بعدها استغرقا فيه تماما.

..3 ..

إستيقظا قبيل الفجر، سارعا بالإغتسال والوضوء، جلسا على مقاعدهم اليومية، هم اعتادوا هذا من اليوم الأول، شرعا في تلاوة القرآن الكريم بصوت يجمع بين الخفوت والعلو، يتماهى كل منهما مع الترتيل بخشوع تام، بل كثيرا ما تتبلل الوجنتان بدموع العشق الإلهى، آذن الفجر، الآذان يتردد من مساجد وزوايا قريبة وبعيدة، يشعران أن الدنيا كلها تؤذن وتعلن الخشوع، سبحان الله لحظة الآذان هدوء تام يغلف كل الأجواء، كل كائنات الحياة تستجيب، لا أمر يعلو فوق أمر ونداءات الله، يؤم الصلاة، تنساب كلمات القرآن بسلاسة وخشوع وتهدج الصوت، كل مسامهم خاشعة، متضرعة أن يظل القرآن ربيع قلوبهم، بل ربيع كل محتواهم، ينهيان الصلاة، يأخذان بالدعاء لوقت غير محدد، هذه لحظة التماهى والتفانى فى حب الله، بعدها تنهض لتعد له كوب اللبن الدافئ المحلى بملعقتين من العسل الأبيض المضاف إليه بضع جرامات من غذاء الملكات، هذا دوما يكون قبل إفطاره بساعة زمنية، ينهض ذاهبا إلى الشرفة التى أصر حين إكتراء هذه الشقة أن تكون شرفتها واسعة، تسهل الحركة بها، وأن تتيح الرؤية بزوايا متعددة، يجلس على كرسيه الهزاز، يهزه أماما وخلفا، طقس اعتاده لم يتقاعس عنه

مطلقا ولا يتغير، أحيانا يغمض عينيه، محاولا استرجاع بعض الأحداث القريبة والبعيدة، يرتكز أحيانا على سور الشرفه، تلقائيا يفك أزرار منامته العلوية، يستقبل نسيم الوقت الباكر لوقت طويل، كأنه يطمئن على وجود مخزون ورصيد ربما يجده بأيام الجفاف، أيام الجفاف لديه هى أيام لا يستطيع مزاولة طقوسة، دوما هى جلستهما بعد صلاة الفجر، يتبادلان الحديث بالعيون والبسمات، كثيرا ما تجد نفسها تبكى، يربت عليها بهدوء.

- أرجوك لا داعى لتكرار هذا، دعواتك لهم، أنا مثلك أفتقدهم، ولكن هذه الحياة، هم بحاجة لأمان، الزمن أصبح بحاجة للركض السريع للوصول لأحلام وأهداف، دعواتك.

يقترب منها، يضم رأسها يقبله مرات مع ربتات حانية، تدفعه برفق قائلة.

-هل من العدل أن نتعب ونسهر الليالى، نكبر ونحلم بهم معنا لا يغادروننا، وعندما نصل لمحطة الحلم واكتمال تحقيقه، تأتي الزوجات وتبتعد بهم، صحيح هى الحياة، فقط الحياة يجب أن تكون رحيمة بنا، كان يجب أن يظلا أمامنا نراهم دوما، نستعيد حياتنا وحياتهم من أولادهم أحفادنا، حلمت معك بلعبهم أمامنا يضيئون حياتنا، ولكن بالنهاية ذهب كلا الولدين، واحد بالشرق، والثانى

بالغرب، لا نراهم إلا على فترات طويلة، لأيام، نراهم من خلال الخصائص الالكترونية الحديثة، كل شئ أصبح معلبا، داخل أنبوب، غابت الروح، هكذا الحياة، الأهل يزرعون ويبذلون حياتهم، والآخرون يتمتعون بالثمار، ربنا يسعدهم.

ترتمى على صدره وتبدأ بالبكاء والنشيج، يأخذها بصدره، يقبل رأسها مرات ومرات حتى تهدأ تماما، الغريب أن الخوف ينهشها أكثر كلما طلبها للمطارحات الحميمية، تساؤل لم يغادرها يوما، أليس من الممكن أن يكون حاملا لموروث العائلة، هذه العائلة المزواجة، سألته يوما عن هذا، أجابها بهدوئه المعتاد وببريق عينيه الذى لم يخب يوما، بل يزداد كلما مر العمر! وبسمة ساحرة تعلو شفتيه تقول الكثير مما هو مكتوم.

- ولماذا أكون شبيها؟، لكل قاعدة إستثناء، وأنت بلا مبالغة استثناء، وجدت بك كل النساء، أنت أنثى كل الأوقات والفصول، أعطيتينى كل ماحلمت به، فكيف أكون لغيرك، صدقينى عندما تسول لى نفسى بالنظر لسيدة سواء بالطريق أو بالعمل أو بمناسبة عائلية، أجد حبك يعيدنى للصواب دوما، ثم هل من الضرورى أن أكون شبيها لعائلتى؟، رحم الله رجلا عرف قدر نفسه.

وتعلو ضحكته منهيا وساوسها، يخرجها من هذه اللحظات المؤلمة والمربكة بالحكى عن مواقف سابقة تدفعهما للضحك حتى تدمع عيناها، طقس يومى لم يتغير منذ اليوم الأول للزواج حتى بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما، لم يتغير إلا بالنذر اليسير، عند زيارات للأسرتين، أو وعكة صحية ألمت بأحدهما، لم يتفقا عليه، كان عفويا دون أى ترتيب أو نقاش. داوم على الإفطار بالمنزل، أيضا حريص على ضرورة الغذاء بالبيت، إلا عندما يستدعى العمل ساعات مطولة، يتناول شيئا يسد رمقه، ويسرع لمشاركتها جلسة الغذاء اليومية، تشعره هذه اللحظات بكثير من الحبور الذى يضخ بلا توقف أوكسجينا شديد النقاء، له إحساسه بأن الأيام لا ولن تغير به شيئا، وهذا أمر جميل.

..4...

في هذا اليوم جلس نفس جلسته، أتت له بكوب الحليب الدافئ المحلى بالعسل وغذاء الملكات، يتجرعه دفعه واحدة، هو بهذا يسير على ذات منهج الأب والجد، الفارق الوحيد أنهم كانوا يجلسون ببهو البيت، الجد كان يختلف قليلا، كان يضيف بضع بيضات نيئات الى المشروب، يتجرعة دفعة واحدة دون توقف، الأبناء يحيطون به، عندما ينتهى يوجه نظره إليهم إشارة إلى أن يفعلوا مثله، كان صغيرا يجلس بين الصغار الأكبر منه أو الأصغر منه، يشاهدون المشهد اليومى، الأب والأعمام كل منهم يستجيب لنظرة الجد، يرفعون الآنية إلى أفواههم، يرى من يتجزع، ومن يمتعض، ومن يتلذذ، ومن يغمض عينيه هربا من هذا، الكل يمتثل دون نقاش، بعدها تكون الصوانى قد أعدت، الجد والأبناء يلتفون حول أكبر صينية، ثم صوانى الحريم، زوجات الجد، هو رجل مزواج، لم يتوصل أحد إلى عدد زيجاته، كان أهل القرية يتهامسون أنه يتزوج كل فصل، للربيع زوجة بمواصفات خاصة، ولكل من الشتاء والخريف والصيف ما يناسبه من زيجات، كان يسرح البعض بكل معروف، يبتنى لها بيتا مستقلا لها وأولادها، وينفق عليها كأنها زوجته، وربما يعيدها يوما ما، والصغار حسب العمر حول عدد من

الصوانى، الصبيان على حدة، والإناث على حدة، لا يجرؤ أحد على البدء بالطعام إلا بعد أن يرونه يشمر أكمام جلبابه الواسع، ويتمتم بالبسملة، ثم اقتطع لقيمات من الخبز وغمسها بالطعام، بعدها تجد هرولات وتدافع الصغار نحو الطعام، تدافع بلا أى جلبة أو ضوضاء، الكل على رأسه الطير، الصمت التام يسود المكان، لا تسمع إلا قرقعة الملاعق، يتمهل الجد بالطعام كثيراً، فسره يوما لصديق له، أنه يفعل هذا حتى يأخذ الجميع حقهم من الطعام، ظلت هذه الطقوس سائدة بكل الوجبات، حتى غادر الدنيا بعمر يقارب التسعين دون أن يشكو مرضا أو وهنا، بل إنه قبل وفاته بعام تزوج فتاة بالعشرين، كان زواجه هذا دائما ما يحكى على المصاطب والعتبات، وسهرات أهل القرية، العجيب أنه تركها حاملا بالشهر السابع، مات وهو جالس أسفل شجرة توت عملاقة بالقرب من مدار الساقية، غادر بلا أية مقدمات، شيع إلى مثواه وسط حشد لا يظن أحد أنه يتكرر، الناس بالقرى يحتضنون البعض، يحتضنون الألم والوجع وأى مصاب جلل، مثلما يحتضنون الفرح والسعادة والمناسبات المبهجة على اختلاف مسمياتها، يالهول الفارق بين ناس المدن وناس القرى، بالمدن الكل بعزلة تامة، لا يعنيه أى أمر حتى لو كان جارا له بنفس البناية، الكل له جزيرته الخاصة والمنعزلة عن

الآخرين، تبلدت الأحاسيس والمشاعر، الكل أسير الذاتية والأنانية والمصالح الخاصة بشكل مفرط، العلاقة بين أهل المدن هى إشارات باليد وايماءات بالرأس وكفى ، لذا تجد البرودة والغربة سائدة بغالبية بيوت المدن، خلاف القرى وإن أصابتها بعض رياح التغيير ولكنها لا تبتعد بهم عن موروث عاداتهم وطباعهم، ودوما الود والتراحم موجود بشكل عفوي وتلقائى.

...5....

.بهذا اليوم غادرت رداء ظل محتلا لها عمرا طويلا، ما إن وضعت الطعام البسيط للإفطار حتى أسرعت بشكل أدهشها، تشعر كأنها بسنوات شبابها الأولى، كأنها خفيفة الوزن بلا ترهلات أو زيادة وزن، أو أنها ما حملت وأرضعت، وما زادت عدة كليو جرامات على وزنها من جراء كل هذا، وكأن هذه الزيادة قد تعرضت لبعض النيران التى ساعدتها على التساقط من على كاهلها، تركض نحو حجرتها كأنها ابنة العشرين، شعرت كأنها ليست هى، لم تمارس الركض منذ السنوات الأولى للزواج، كانا يركضان خلف بعضهما مع ضحكات تجلجل، ومداعبات، وقفت أمام مرآتها، تتأمل وجهها، وجه ضاعت منه التجاعيد التى كانت بدأت ترتسم على جيدها، مررت يدها على الوجه كاملا، يا الله ماهذا؟، بشرة ناعمة تماما كأنها بشرة صبية بميعة الصبا، ابتسمت لذاتها حقا الحب الصادق مع مطارحة الجسد إكسير يجدد الخلايا، هو الليلة الفائتة أشعرها أنها بليلة زفافها الأولى، الأشياء العفوية التى تأتى على طبيعتها تكون كاملة الإمتاع وإعادة بناء الخلايا والأفئدة، بعثرت شعرها على وجهها، مازال شعرها تاجا وشلالا طويلا أسود ، هو يحب دوما بعثرة شعرها، يقول لها أنه يراها أشبه (بموناليزا هذا

الزمن)، أو (نفرتيتى فاتنة الفراعنة)، الليلة كانت غير كل الليالى، للمرة الأولى يتفوه بالحب صراحة وبصوت عال، كان يكتفى بالهمس الشحيح، البارحة أسمعها أحلى الكلمات تحول إلى شاعر من الكبار، تنساب الكلمات العذبة السلسة التى تدخل القلب بلا أى استئذان، هو أيضا نزع رداءة، كان يقول إن الحب فعل يحس ويصل للطرف الآخر، هى تعودت منه هذا، أشعرها بهذا، دون أية كلمات طوال سنواتها معه، ولكن الذى حدث الليلة جعلها تعرف أن للحب زوايا متعددة، كلمات الحب التى تنساب من الأفواه دون ترتيب أجمل موسيقى تصويرية يمكن أن يبدعها أعظم موسيقار، مؤكد أن (بيتهوفن، وموتسارت)، وكل موسيقيي العالم العظام عاشوا الحب قبل أن تداعب أناملهم آلاتهم الموسيقية ويحدث التناغم الذى يعطينا هذا الجمال الموسيقي، تساءلت بصوت بين الخفوت والعلو، لماذا الإنسان دائم البحث عن الوجع والألم ويترك السعادة تتسرب من بين أصابعه، وبعدها يعض البنان ندما حيث لا ينفع الندم؟ غريب أن يركن للسكون، ألا يعلم ويعرف أن السكون هو الارتماء بأحضان كل الكسل والعفن؟! ألقت بنفسها فوق الفراش، أغمضت عينيها، وجدت نفسها تستعيد تفصيلات من أعوام بعيدة، هى ابنة كانت ختام رحلة إنجاب والدتها، بعد ثلاثة

من الذكور، حملت بها بعد عشرة أعوام من إنجاب أخيها الأخير، حكوا لها أن فرحة أبيها بها عادلت كل فرحته بالذكور، كان دوما يقول لأمها.

- من أسعده الله ببنت ضمن الحنان والاهتمام بقية العمر، أما الأبناء فيأتي الوقت وتكون لهم حياتهم الخاصة، ينشغلون بها عنا، هذه هى الحياة مهما كانت تربيتهم ونشأتهم.

كان دوما يجلسها على ساقه حتى وهو جالس بين مجلس الرجال، يهدهدها، يداعب خصلات شعرها، يربت على وجنتيها، يميل عليها يقبلها، كانت بيضاء البشرة المحاطة بدموية شديدة تورد وجنتيها، شقراء الشعر المسترسل الطويل، ورثت هذا كما قالوا لها من جدتها الفرنسية التى عرفها الجد حينما كان يدرس بفرنسا، تركت الدنيا كلها لأجله، كانت غزيرة الثقافة، تجيد الحديث بكل شئ، وبعده لغات، تعزف الموسيقى، تعشق السيمفونيات، تغنى بداية كانت تغنى سوبرانو، ثم بعد إقامتها عشقت الغناء المصري الأصيل، عشقت (عبده الحامولى، سلامة حجازى، داوود حسنى، سيد درويش)، وغيرهم من أساطين الطرب، كل هذا سمعته آلاف المرات، لم تنل حظا من رؤيتهم، شاهدتهم من الصور المنتشرة بالمنزل، كانت مدللة من الجميع، الأب كان يراها عوضا عن أمه

ملامحا ، كان دائم الحكى عن أمه أكثر من أبيه، لم تفهم لماذا؟ إلا بعد أن شبت وعرفت أن الأم هى الشاطئ الآمن للأسرة، قالوا لها إنها نسخة أصيلة من جدتها، نفس الملامح، نفس حركات اليدين، نفس الطباع الهادئة المتزنة، قالوا مرارا إن روح الأحبة تغادر جسدا عزيزا وتسكن جسدا عزيزا آخر، كانت كل رغباتها مجابة بلا نقاش، تنافس الكل بدلالها، شئ واحد غير مسموح به، هو الاختلاط بأحد من خارج العائلة، ليس تعاليا، ولكنه نوع من الحذر الشديد، بكل مراحل تعليمها، تذهب مع (عبد الغنى) سائق الكارتة، يذهب ويعود بها، من يريد من رفيقات من خارج العائلة فيأتينها بعد إذن الأم، تلعب ورفيقاتها تحت عيون الأم، تراقبهن عن كثب، من تجدها متشابهة إلى حد كبير مع طباع ابنتها اهلا بها، غير ذلك مرة وعدت، وتطلب من ابنتها عدم الإستمرار مع هذه وتلك، كانت تنصاع بهدوء، كانت متفوقة بكل سنوات تعليمها، أتوا لها بمن يعلمها اللغات، اللغات كما تردد كثيرا على سمعها، جسر هام لفهم الشعوب، أتوا بمن يعلمها الموسيقى والعزف على عده آلات، كانت تعشق الرسم، أتوا لها بمن تعلمها الرسم بشبه احترافية، لم ينسوا أن يعلموها فنون الطبخ وإدارة بيت ستكون سيدته عن قريب، كانت تقود النشاطات المدرسية، عشقت حصص التدبير

المنزلى، لم تكن يوما تغادر بشاشتها ورقتها وصوتها الخفوت الموسيقى بطبيعته، قالوا عنها وصفا، فعلا هانم تربية القصور والباشوات، حتى زواجها كان فجأة، تعلو شفتيها بسمات مصاحبة ببريق عينيها وتضرج وجنتيها، الأب (منصور الدياسطى) كان محاميا مرموقا، له مكتب أنيق بأشهر شوارع المنصورة، الكل يعترف بنجابته وحصافته، لا يقبل أية قضية إلا بعد دراستها جيدا، إن وجد أن من سيدافع صاحب حق يقبل، غير ذلك لا وألف لا، ذاع صيته بكل محاكم مصر، إن كانت القضية خارج نطاق محافظته، ينهض باكرا، يركب سيارته يقودها بهدوء تام ويسير سيرا حثيثا، حتى إن بعض المقربين منه داعبوه.

- يا أخى يخيل إلينا أنك لو تستطيع أن تحمل السيارة على كتفيك وتسير بها لفعلت، ما هذا الهدوء الذى تسير به؟، مشوار الساعة يستغرق منك ثلاث ساعات، حتى بالسيارة غير متسرع!!، يعود من كل قضاياه منتفخ الأوداج، بشوشا يحمل كمّا كبيرا من الحلوى والشيكولاتات بيضاء وحمراء، يعطى نصيبا منها للعاملين بقصر العائلة، القصر الذى يضم كل الأسرة، لكل منهم دور به، رغم أن الريف بهذا الزمن كان دوما تحت سلطات عديدة، سلطة الأب، العمدة، شيخ البلد، شيخ الكتاب، المعلم، شيخ المسجد، حتى

يخيل إليك ان رداء القرية كله سلطة، إلا أن الجد وعائلتة خارج مضمار وإطار هذه السيطرة، كان ديمقراطيا فوق أى تصور، منح أولاده كل الحرية ولكنها حرية مقننة تحت البصر، تحت الرقابة وليس سيطرة ، هى تقييم وتزكية، الإخوة الثلاثة الآخرين، كل منهم نالوا حظهم من التعليم إلى نهايته، العم (نشأت) خريج تجارة مع بعض الدارسات العليا، العم (بهيج) خريج الزراعة التى عشقها منذ الصغر، وظل يقرأ بكل كتبها بالعربية وباللغات الأخرى حتى مماته، العم (رؤوف) خريج سياسة واقتصاد، متابع جيد لكل عالم السياسة، لا يمل أبدا من تحليل كل مشاهداته قراءاته، رغم تعليمهم وتوافر فرص عمل مميزة من علاقات الجد، رفضوا طواعية أن يكونوا أسرى وظائف تجعلهم يدورون بساقية تدور طوال الزمن على وتيرة واحدة، كلها ملل وروتين وتعسف وإملاء تعليمات، وقرارات الكثير منها صاحبه لا يعترف به، ولكنه يمارس سياسته الديكتاتورية دون أى فهم أو وعى، طلبوا أن يهتموا بشئون أراضيهم، وكان لهم ما أرادوا، جاء الأب يوما قافزا درجات السلم الموصل إلى مدخل القصر، يصفر حينا، يدندن حينا، الأمر الذى أثار دهشة الجميع، هو لا يغادر حلته التى حملها طيلة عمره، الوقار والاتزان والحديث الرصين محدد الاتجاهات دون أن يحمل

بطياته أية معان أخرى، العم (بهيج) المعروف عنه المشاكسات المصحوبة بالمرح، أسرع إلى أخيه، أمسك بيده، أوقف طريقه، خاطبه.

-ماذا بك، تدندن وتصفر، لم نرك مطلقا كما نراك الآن، هل كسبت قضية شديدة التشابك؟، فعلتها كثيرا ولم نرك على هذه الحال، أبلغنا ماذا بك؟، كانت بعمر السابعة عشرة أو أقل قليلا، تقف ممسكة بسور السلم الصاعد إلى أدوار القصر، تحيطها الأم بيديها، وأيضا على بعض الدرج يقف كل الشباب المتزوجين وغير المتزوجين، إخوتها وأبناء عمومتها كل يجاور زوجته وأطفاله، بتدرج هرمى، لم يعر أحدا اهتماما، رد بمنتهى الهدوء مع إشارة من يده.

- نتناول الطعام ونسترخى قليلاً، ثم لي حديث معكم، لكل شيء ميقاته.

وأعطاهم ظهره صاعدًا إلى الدور المخصص له، جاءه صوت (بهيج).

*أنت دومًا هكذا، تترك الأمور معلقة، يا أخى -سبحان الله- ورثت عن أبينا كل صفاته، وأيضًا الكثير من ملامحه، كان نفس الطباع، لا يشفى حال أحد إلا عندما يأمره مزاجه، غريب أمرك.

- أخى الحبيب، التشابه موجود على مر الأجيال والعصور، تجد تشابهًا ليس بالملامح فقط، تجده بالحديث، بحركات الجسد، بطريقة السير، النظرات والإيماءات والإشارات، بمخارج الكلام، بالتصرفات والقرارات، بلزمة كلامية معتادة، التشابه متوارث؛ لأنه تاريخ، والتاريخ رفيق دائم للإنسان، ممكن أن نتشابه مع بيوتنا ومع أحيائنا، الإنسان عنوان لمكانه ولزمنه، والأماكن عناوين البشر، لو أمعنا النظر بالوجوه، تدلك على انتماءاتهم وأماكن إقامتهم، وبالمثل إن دققنا النظر بالبيوت والطرق والأماكن، سوف تنبئك عن المعلوم وغير المعلوم عن ساكنيها، إن كانوا وافدين أم من السكان الأصليين، لكل شيء تاريخ نستطيع قراءته وتفسيره؛ لنصل إلى حقائق غَفَلْنَا عنها؛ لأنهم شركاء بحياتنا، هذا حديث يطول، نجعله حديثنا وقتًا آخر، سامحك الله أضعت لحظات من وقتٍ أنا أحوج إليه، بعد العشاء لنا جلسة مطولة، الأمر يخصكم مثلى، فنحن إخوة والإخوة شركاء بكل شيء، سلام إخوتي الأعزاء.

سارع بالصعود هرولة بأعقابه قبيلته الخاصة كما يحلو له أن يسميها، طالت غفوته، والجميع يتحرق شوقًا لمعرفة ما يحمله من أسباب لهذه الحالة التى لم يعتادوا أن يروه عليها كثيراً، صحا على هزات خفيفة وصوت شديد الخفوت.

– اصحى يا حاج طال وقت نومك، لقد قاربنا على العشاء.

نهض من فوره، اغتسل وأخذ طريقه إلى حجرة الطعام بالبهو الكبير بأول أدوار البيت، المائدة الكبيرة متعددة المقاعد، كان الجد طلب تصنيعها خصيصاً؛ لتكفى من يدعوهم من الوجهاء ومن رجالات الدولة ورجال الأحزاب التى تتولى إدارة شئون الدولة، المائدة يجلس عليها الجميع، هى عادة متوارثة عبر الأجيال، يجلس الأخ الأكبر متوسطًا ويحيط به من الجانبين إخوته حسب التسلسل العمرى، ثم الزوجات بنفس الحال، ثم الأبناء، هو يسير على نفس طقوس الأب ومن قبله الجد، جلسوا جميعاً يجمع بينهم الفضول، الفضول ساد الكل، حتى الحفدة الصغار الذين لم يبلغوا بعد مبلغ الحلم، انتقلت دهشة الكبار وارتسمت فوق وجوههم، الجميع ينتظر أن يرفع كميه ويمد يده، يتناول أول لقيمات الطعام وهو يرفع صوته بالحمد لله حتى يقتدون به، بدأوا الطعام والكل تتوسل أعينهم إليه أن ينتهى سريعًا، وأن يمنحهم حق معرفة أسباب ما يرونه من سعادة غامرة، تعمد هو البطء الشديد بتناول الطعام، نفس فعل الجد والأب، كان يتجول بعينيه بهم ويبتسم، لمعرفته ويقينه أنهم أشبه بالجالسين على جمر شديد الاشتعال، هذه عادةً أيضًا متوارثة، أن لا يهدأ لهم بال إلا بالوقوف على تفاصيل الأمور،

ما إن انتهى واستعد للنهوض حتى كانوا يسبقونه إلى الصالونات، وقفوا بانتظاره وقوفًا، لا جلوسًا إلا بعد جلوسه أولًا، جلسوا وجاءت الزوجات بالفاكهة والمشروبات، هم يدركون أنه لن يتحدث إلا بعد إكمال كامل الطقوس؛ لأنهم على مدار الزمن يسيرون عليه مبتعدين عن أي خلل به، الخلل بعُرْفِهم هو عصيان للوصايا، الكل يتململ بجلسته ويفرك كفيه، وهو يظهر عدم الاهتمام، بعد وقت رأوه طويلاً، تحدث مطلقاً ضحكة قصيرة.

- ماذا بكم؟ كأنكم منتظرين نتيجة امتحان أو لحظة ميلاد، لا تنزعجوا الأمر كله خير، فقط أردت مشاهدة لهفتكم، اهدأوا تماماً، كل ما في الأمر أن جاء إلى مكتبى اليوم الحاج (الحسينى فرحات أبو الحمد)، مؤكد تعرفونه وتعرفون عائلته ومكانته، المهم أنه أتى يطلب يد ابنتنا الجميلة (ناهد هانم الدياسطى) لابنه(رضوان) المحاسب بوزارة الاقتصاد، طبعاً لم أعطيه ردًا قاطعًا، وأخبرته أن هذا الطلب لابد من عرضه على صاحبة الشأن والأسرة بكاملها، الحاج (الحسينى) بيننا معرفة من سنوات بعيدة، هو أصلاً كان عميلاً مميزًا بمكتب الأستاذ (سليمان محمد) الذى تدربت بمكتبه بالبدايات، وعندما توفى الأستاذ، وقمت بفتح مكتب خاص لي،

كان من أول عملائى، رجل يتمتع بالحكمة والرزانة، يتحمل مسؤولياته، هذا باختصار الأمر، ولكم الرأي؛ فنحن أسرة واحدة.

العم (رؤوف) المعروف عنه من بدايات العمر يعشق معرفة تاريخ الأسر والعائلات مبرراً هذا بأن البحث بهذا يتيح لك كيفية التعامل مع الشخوص والمواقف، انبرى للحديث على الفور.

شيء غريب بالعلاقات الإنسانية، عندما نرى على مدار الزمن، أن التوافق متواجد ومتشابه مع الكثير من أمورنا الحياتية، سبحان من كان له الدوام، تجد المصاهرات كثيرًا ما تتم بين أسر وعائلات يجمع بينهما نوعًا من التشابه، التشابه بالصفات، بطقوسهم وأسلوب تعاملهم مع كل زوايا الحياة، بطريقة التفكير وتحليل المشاهد والمواقف؛ ولكن لابد أن نعرف أن هناك حالات من التوهم بالتشابه، هذه الحالات لا تكتمل مسيرتها، سرعان ما تظهر الأيام أن هناك فجوات متسعة بين الطرفين فتنفصم عراها سريعًا، وللحقيقة إن عائلة (أبو الحمد) أصهارنا القادمين -إن أراد الله-، عائلة لها تاريخ وبصمات على مدار أكثر من مائة عام، هناك شأن يخصهم حريصين عليه جدًا، متوارث عبر الأجيال، أن يتقاربا مع الكل، أن يقرؤا تفكير الكل من خلال التعامل، وعندما تتضح الرؤية ويتبينوا أن هذا الشأن يوافقهم فكرًا وصفاتًا وطباعًا،

يتقاربون أكثر ويتفاعلون معه بصدق متناه، الجد حسبما عرفت تقارب مع الأحزاب السياسية بزمنه، الوفد، السعديين، الأحرار الدستوريين وغيرها، تقارب وحضر لقاءات مع كبارهم؛ ولكنه بالنهاية اختار عضوية الوفد، وَجَدَ بهم حماسة وانتماءً لقضايا الوطن، لا ننكر أن الكل ينتمى لوطنه؛ ولكن تختلف درجات الانتماء، انصهر ببوتقتهم، تبرع كثيرًا، رافقهم بجولاتهم الدائمة بالمحافظات، أيام الانتخابات كان مسموع الكلمة، بهذه الأيام كان لكل مكان كبيرة، يوجه الجموع التابعة لإقامته، نحو مرشحين بأعينهم، عَرِفَ سعد، محمد فريد، عبد العزيز فهمى، على شعراوي، أحمد لطفى السيد، مكرم عبيد، فخر الدين المفتش وغيرهم من كبار الرجالات الوفدية، تبادل معهم الزيارات، كان كل فترة يقيم الولائم لهم ويحتفى بهم بشكل كبير، كان يذهب لزيارة(سعد زغلول) كلما عرف بوجوده بقرية(مسجد وصيف) التابعة لمديرية الغربية طلبًا لبعض الاسترخاء والتريث لأخذ قرارات مصيرية،

سكت قليلاً لتجرع بعض الماء، الجميع بحالة صمت رهيب، العيون مفتوحة على سعتها تشاركها الأذان والمسام، هو صاحب سرد بديع، جعل منهم مشاهدة الحكي كأنه مشاهد تمثيلية،

استحثوه بإكمال الحديث، تمنع عليهم بعض الشيء مشاكسة، عاد للإمساك بأطراف الحديث.

-عند نفى (سعد باشا) كان على رأس وفد كبير من أهل(ميت عنتر) يودعونه، وحين العودة من المنفى كان بالمقدمة مع فرق من العازفين، بل إنه أقام احتفالًا كبيرًا بقريته، من أجل تفانيه بحب الوفد، كان صاحب حظوة كبيرة لدى الجميع، مازال الكثيرون من أهل مديرية الدقهلية- رغم مرور عقود زمنية كثيرة- يتذكرون هذا السرادق الضخم الذى أقيم على مساحة ما يقرب من فدان أرض، بعد وفاة زعيم الأمة (سعد)؛ بل لعلها السابقة الأولى الذى سار نعشًا خاليًا تعلوه صورة الراحل، جنازة مهيبة توشحت بمر البكاء، اعتزل الحياة لبعض الوقت حزنًا، ولكنه عاود مسيرته، اقترب من عالم الصحافة، كان شغوفًا بالمعرفة، وجد بغيته بهذا العالم، عرف (محمد توفيق دياب، على يوسف وآخرين) من أساطين الصحافة وقتها، كان يستمد معرفته من هذه العلاقات، يعرف الأنباء قبل وصولها للعامة، وكان ينقل هذه إلى ضيوفه بشيء به نوع من التباهي لأسبقيته بالمعرفة، كان أيضًا على حضور الحفلات الفنية بدار الأوبرا المصرية ، بل صار من المقربين جدًا من (سليمان بك نجيب) مدير الدار، سار على هذا الدرب الحياتي إلى أن لقى ربه، وهو قد

تجاوز السبعين من العمر، علمت من أحد الأصدقاء المنتمين لعائلة (أبو الحمد) أنه قبل وفاته بأيام وهو كان بمرضه الذى طال شهورًا تنتابه حالات متتالية من الغياب عن الوعى، وفقدان بعض الذاكرة، لدرجة أنه كان يخلط بين أبنائه، ينادى على هذا باسم ذاك، وذاك باسم هذا، كان أيضًا ينادى على رفقاء له رحلوا من سنوات، كان أيضًا تنتابه نوبات من الضحك والبكاء في آن واحد، الأمر الذى يجعل من يزوره يبكى صمتًا، قبل وفاته بحوالي عشرة أيامٍ استدعى (الحسيني) ابنه الأكبر، طلب من الجميع تركهم وحدهم، أمسك بساعد الابن بشدة، حتى أنه اعتصره تمامًا، خاطبه بصوتٍ به بعض القوة.

- اسمع ما أقوله جيدًا، ولا تحيد عنه مطلقاً، وورِّثْهُ لأولادك ولأحفادك، هناك قبل أي شيء جملة ضعها أمامك دومًا، لا تتركها تغادرك ما حييت، لتكن منهجك الحياتي، اجعل إنسانيتك دومًا الكفة الأعلى والأرجح في تعاملاتك وفى علاقاتك وفى كل شيء، لا تكن مع الظالم على المظلوم، ولا تبخس حق المظلوم، لا تقل رأيًا دون أن تتلقى من عقلك وقلبك ما يشعرك بأنه صائب وبمحله، كن أبًا لإخوتك، لا تسمح لأى من يحاول شق صفوفكم، وتفتيت توحدكم، عيشوا صحبة، بناءً واحدًا، لا تقبلوا العيش بجُزُرٍ

منعزلة، كلٌّ لحاله، لا تنسَ ميراث عائلتنا، بعدها ضغط بعنف على كف ابنه، هنيهة تراخت اليد، وسقط الرأس، هزات متتالية غير مصدق منه، ولكن كان نداء الله تم، واستجاب هو للنداء، انتظر أبناءه أيام حتى يأتي رجال العائلة من مسقط الرأس الحقيقي للعائلة ببنى مزار إحدى بلدان الصعيد المصري لحضور مراسم تشييع الجثمان، يوم تشييع الجثمان خرجت البلدة عن بكره أبيها تودعه، اتشح الكل باللون الأسود، النساء وقفن لُصُقَ جدران الطريق المؤدى للمقابر، يُشرن إلى التابوت يقلن بصوت واحد مصحوب بصراخ وعويل، يشللشن بطرحهن السوداء.

- مع السلامة يا حاج، يا كبيرنا، بعدك صرنا يتامى، ربنا يرحمك ويسكنك جناته.

الحشد كبير جدًا، كل أهل البلدة والبلدان المجاورة ومعارفه من عديد المدن والقرى بعيدة أو قريبة، كانوا بوداعه، الكل بكاه بحرقة وبصدق، السرادق ظل قائمًا لأيامٍ ثلاث، لم يفرغ مطلقًا، ممتلئًا عن آخره، الحداد بالقرية استمر لأكثر من أربعين يومًا، القرآن الكريم يتصاعد من كل بيت، أُرجِئت كل الأعراس حزنًا عليه، الكل ظل يلهج بسيرته لأعوام طويلة، ومازال الحكي عنه مستمرًا. هذه هي عائلة (الحسيني فرحات) التي أرى أنها تتشابه معنا بالكثير، وأرى

أن مصاهرتهم تضيف إلينا مثلما نضيف إليهم، ولكن كما تعودنا بكل أمورنا القرار للجميع.

أمن الجميع على رأيه، ولكن الأب رفع يده طالبًا الحديث.

- كل هذا أعرفه وتعرفونه، ولكن لسنا من الأسر التي لا تترك لبناتهن الرأي، ومن هنا أوجه كلامي إلى صاحبة الشأن، والتفت إلى ابنته سائلاً لها:

- ما رأيك؟ لست متعجلاً بردك، خذي وقتك حتى يكون قرارك عن قناعة ورضى تامين.

طلبت الكلام بصوت شديد الخفوت، بل إنه يكاد لا يسمع.

- أبى، بل آبائي، أنتم أدرى بمصلحتي أكثر منى، ومؤكد أنكم لا ترتضون إلا سعادتي، والقرار قراركم.

ضمها الأب إلى صدره، قبل جبينها، ربت عليها كثيراً.

- إذًا على بركة الله، نرسل لهم نرحب بزيارتهم.

ارتأى إخوته أن يتريث يومين ويرسل بموافقتهم، وافقهم الرأي، وبالموعد الذي أعلن جاء الحاج (الحسيني) رفقة زوجته وإخوته وبعضًا من أولاده، وبأعقابهم سيارة محملة بخيرات الله من محاصيل وحظائر، جلسوا للحوار وقتًا طويلاً حول مجريات أحداث

بالمنطقة وشئون الزراعة والتجارة، وبعد الفنجان الثالث من القهوة، تحدث الحاج (الحسيني).

– مؤكد أنت أو أنتم تعلمون جيداً متانة العلاقة التي تجمع بيننا من سنوات، والتي ستسمر على مدار الزمن، ومن هنا جئنا اليوم نطلب مصاهرتكم بطلب يد ابنتكم وابنتنا (ناهد)، لابننا وابنكم (رضوان)؛ لنزداد شرفًا بكم.

– يا حاج (حسيني) أنت نفسك قلت إننا نعرف بعض من سنوات وتجمعنا علاقات أساسها احترام متبادل وود، وهي ابنتكم وهو ابننا، وشرف لنا مصاهرتكم، على بركة الله.

– إذًا لنقرأ الفاتحة.

رفعت الأيدي وارتفعت الأصوات بقراءة الفاتحة، بعدها تبادل الرجال العناق والقبلات، وعلت زغاريد النساء بشكل متتابع، نهضت زوجة الحاج (الحسيني) تحمل بيدها علبة قطيفة باللون الروز، قدمتها إلى العروس قائلة.

– هذه هديتي لك ولا علاقة لها بشبكتك.

عانقتها العروس وجلست وكل الأعين مصوبة إليها تنتظر معرفة ما تحتويه العلبة، فتحتها العروس، شهقت بلا إرادة، ذهلت وذهل

الجميع، عقداً ثميناً من الألماظ بديع الصنع، ومجموعة من الأساور تناسبه وخاتم بذات التصميم، نهضت العروس وارتمت بأحضانها تقبلها بحرارةٍ وبودٍ متناه، الجميع أثنى على الهدية، اتفقوا على أن يتم كل شيء في خلال أشهر لا تتجاوز الستة، في خلال زياراته المعدودة أيقنت أنه اختيار صائب، فهو هادئ، رزين، مرتب الذهن، وبخلال شهور كانت زوجةً له بليلة، شهد لها القاصي والداني، عاشت معه قرابة العشر أيام الأولى بالقرية ومن بعدها إلى سكنها الحالي، طوال سنوات الزواج لم يبدر عنه لفظ أو فعل يغاير صورته، كان أبًا حنونًا يعطى مساحات كبيرة لأولاده، يحكى لهم قصص الأنبياء والصحابة، يحكى لهم عن أسرته، علمهم القران الكريم والصلاة، وفن التعامل مع الآخرين، فكانا كما تمنوا، أخلاق وعلم وتفوق، (إسلام وطارق) كانا ومازالا قرة عيونهم، الأول مهندساً معماريًا مرموقاً، والثاني اختار اتجاه الطب، ووصل إلى درجة كبيرة من التميز، ولكنهما أيضاً أخذا اتجاه الغربة منذ أن التحقا بالجامعة، تعلما بالجامعات الأمريكية، تمتمت- فليحرسهم رب العالمين-، طال شرودها، أفاقت على يده- تربت عليها - سائلاً.

- ما بك؟ بأي شيء كان شرودك.

– أبدًا راودتني ذكريات أيام ماضية، تعرف أن علينا أن نعود إلى هذه الأيام إحياءً لخلايانا.

– لك حق، أنا خارج، جاء إليَّ اتصال (حسين) ينتظرني بالقرب من سيدنا الحسين، نصلى وأسمع له، ونعود، جهزي الغذاء، ربنا ما يحرمنا منك.

– مع السلامة.

..ما إن جلسوا إلى إحدى الموائد القصية إلى حد ما، البعيدة عن الضوضاء والجلبة التي هي عنوان مميز للمكان، سال ابن العم عن مشروبه، طلب القهوة التركي المحوجة، هو طلب كوبًا من الشاي الأخضر بالنعناع، لاحظ ارتعاشات يد ابن العم وهو يرفع فنجان القهوة؛ ليرتشفه، ارتعاشات كاد جسده يشاركها، لاحظ أيضًا أن بسماته الباهتة التي يظهرها لإخفاء ألم كبير، لم يشأ أن ينكأ ألمه، اكتفى بكلمات اعتيادية معتادة بلقاءات تأتى بعد غياب، بعينيه بريق دموع متجمدة ومحاولة لها، لابد أن الأمر ذو جلل، لن يجرؤ على البدء بالحديث، هناك أوقات لا يمكن للإنسان أن يكون هو بادئ القول، يرتشف قهوته بصوت يكاد يكون صراخاً، ينقر بأصابعه على المائدة نقرات متوترة متتالية، يفتح فمه لإطلاق عقال الكلام، ولكن سرعان ما يعود بالكلمات إلى حلقومه، انتهى من قهوته،

وضع الفنجان الفارغ بشيء من الحده، كاد أن ينكسر، انكفأ الفنجان، أفرغ بقاياه على المائدة، انتبه أحد العاملين للصوت، وشاهد ما حدث، أسرع بإحضار منشفة مبتلة، أخذ ينظف المائدة هامسًا، الأمر بسيط، حدث خيرًا، شكروا الرجل، طال الصمت وتصاعدت موجات الارتعاشات، بعد وقت ليس بالقصير وجده يمد كفه اليمنى ممسكًا بساعده بعنف زائد، اغرورقت عيناه، تخضبت وجنتاه ببعض دمعات تساقطت، خرج صوته مخنوقًا متحشرجًا مشروخًا.

- اعذرني ابن العم، جئتك محملاً بهم، لم أجد أمام أحد إلا أنت، أنت دومًا الأقرب لي، رغم الأوقات البعيدة التي صارت تفصل بيننا، جئت ألتمس حلاً منك، لن أطيل حتى لا أضيع وقتك، أنا لدى ثلاث بنات وابن وحيد، كلهم تزوجوا- الحمد لله-، المشكلة تتلخص في الابنة الصغيرة (ثريا)، حاصلة على ليسانس تربية بتفوق، وكانت قبل زواجها شرعت بإعداد رسالة الماجستير، مشهودًا لها بالجمال والأخلاق والعلم، وهى صفات لا تجتمع إلا بالقليل، نحمد الله على هذا، منذ أن حصلت على شهادة الثانوية العامة والعرسان يطرقون الأبواب، كنت دومًا بحالة رفض بداعي الانتهاء من التعليم، تعرف أنى أعمل مهندساً بهيئة الطرق

والكباري، علاقتي بالجميع مميزة، لا أتوانى على الوجود بكل مناسبات وملمات أي من الزملاء والزميلات، كان الأقرب لي زميلين من المهندسين، تقاربًا إلى حد التزاوج بين الأسر، أصبح ثلاثتنا كأننا واحد، عرفت كل منهما عن قرب، من كل جوانبهم، حتى جاء يوم وطلب منى صديقي (نعمان البرلسي) وهو من قرية مجاورة لنا، طلب منى الجلوس منفردين لبعض الوقت، ظننت أنه بحاجة لشيء يخجل أن يبوح به أمام أحد، جلسنا بعد العمل بأحد المقاهي، لم ينتظر لحظة بادرني بالحديث.

– أكيد أنت تعلم كم المحبة التي أكنها لكم، رب أخ لم تلده أمي، وأنت بصدق هذا الأخ، لذا يراودني من زمن بعيد، ربما وأطفالنا صغار، أن من الضروري أن نتصاهر، وقبل كل شيء أقول لك، إن اتفقنا أو اختلفنا لن يتغير من أمرنا شيء، نحن عِشْرة عمر، لن أطيل عليك، أنت تعرف (فؤاد) ابني جيدًا، حاصل على ماجستير في القانون، ويُعِد للدكتوراة، ويعمل بمكتب محامي شهير بالقاهرة، وصاحب المكتب دائم الإشادة به؛ لذا أعرض عليك طلب يد ابنتك(ثريا) له، اعرض الموضوع على الأسرة، وأنتظر ردكم، وفى كلتا الأمرين نحن إخوة.

بالحقيقة في البداية وقْع هذا كان شديد الدهشة؛ لأنني لم ألحظ أي من علامات الاهتمام بهذا من خلال ابنه أو من أسرته كلها، كثيراً ما جلس الاثنان معًا هنا أو هناك، لم ألمح مرة نظرة تعبر عن إعجاب متبادل بينهم، الابن متقارب مع ابني الذى يماثله عمرًا(كريم)، وكثيرًا ما كان يأتي ويتسامران معًا، ويخرجان سويًا لقضاء بعض الوقت مع زملاء لهم، المهم لم يكن أمامي إلا طلب مهلة؛ لأخذ رأى باقي الأسرة، وهو ما تمت الموافقة عليه، جلست ليلتها مع كامل الأسرة، حتى الأبناء المتزوجين طلبت منهم الحضور، كنت قد شرحت لزوجتي (نجوى) كل ما دار بيني وبين صديقي، هي نفسها كانت بنفس حال دهشتي، جلست بين الجميع، حكيت تفصيليًا الحديث الذى دار بيننا، فُوجِئت بترحيب الكل، بداعي أننا نعرفهم من سنوات، ولم نرَ أو نسمع عنهم ما يسيئهم، سألت (ثريا) عن رأيها، الإجابة المعتادة من الأبناء، رمت الكرة بملعبي، أنت أدرى بمصلحتي، وافقتهم وبشرط أن تتعرف عليه جيدًا من خلال جلسات خاصة بهم، تعرف طريقة تفكيره، أحلامه، وطموحاته، وهذا ما يشير إلى مدى التوافق بينهم، تمت قراءة الفاتحة، وهذا ما اتفقنا عليه، دون أي خطوات قادمة إلا عندما تقول لنا رأيها صراحة، زيارة وأخرى، لاحظت ترحيب منها دون أن تتفوه بهذا،

كانت تستقبله بلهفةٍ، ملامحها تقول سعادتها، بعد أقل من شهر، أعلنت موافقتها، سارت الأمور سلسة لا تعقيدات بها من أي طرفٍ، لم نغالِ بمتطلباتنا؛ لأن الأهم أن تكون ابنتنا بحال ميسرة وسعيدة، كل الخطوات سارت بيسر، بعد ما يقرب من ستة أشهرٍ كانت تُزَفُّ إليه، كنت سعيداً؛ لأنى أتممت رسالتي نحو أولادي، ودعوت لهم بأن يكونوا سعداء، من زياراتنا لها، شعرنا أنها تخفى شيء، دوماً شاردة، ليست معنا، ولكن كلما سألناها لا تتفوه سوى الحمد لله الحمد لله، خلال الجلسة أجدها دائمة الالتصاق بأمها تكاد تدخل داخل ثيابها، رغم انزعاجنا قلنا ربما لم تتعود أن تبعد عنا، كنا نوهم أنفاسنا بهذا التبرير، نعود أنا وأمها الألم يعتصرنا، مر على هذا الحال ما يقرب من خمسة أشهر أو يزيد، بإحدى زيارات أمها، ضغطت عليها جدًا لما رأته من الشحوب ونحول الجسد، بعد إلحاح من الأم، ارتمت بأحضانها وأخذت بالبكاء العارم، الأم تسمرت بجلستها، تلجم لسانها، تخشبت تمامًا، لم تستطع الحراك، أخذتها بحضنها مشاركةً لها بالبكاء، شعرتُ بقبضة صدر هائلة، وكاد قلبها أن يتوقف، تربت عليها وهى بحاجة لمن يُهدِئ من روعها ويربت عليها، بعد وقت طويل ونظرات مضوبة متسائلة، خرجت الكلمات التي ما إن سمعتها من أمها إلا وشعرت أنها

ليست كلمات، لا طعنات نافذة وحادة بالقلوب، خرجت كلماتها مشروخة ومتقاطعة قالت:

- أن زوجها، رَجُلُها على مدار الشهور الماضية لم يقربها مطلقًا.

هي رفضت البوح لنا حرصًا علينا، وقالت أصبرُ ربما رهبة الزواج، ولكن كل هذا على أعصابها، حفظت سره ولم تتفوه لأحد، كانت تتصنع أنها سعيدة أمام أهله، ولما وجدت الأمر يزداد سوءًا، فاض بها الكيل، الأم لطمت وصرخت ودقت على صدرها، ما كان منها أن طلبتُ منها أن أسرعُ بإعداد حقيبة ملابسها والذهاب معها، وهو ما كان، سارا وسط ظلام الطريق، كادتا ينكفئان كثيراً، كان يكتمان بكائهن؛ حتى لا يثيرا تطفل الناس، فوجئت بدخولهم على هذه الحالة، انتفضت، أخذت ابنتي بصدري، تصاعد صوت بكائها، سألت زوجتي ملتاعًا.

- ماذا هناك؟ ما سبب هذا؟ انطقي.

لم ترد عليَّ إلا باللطم والصراخ، أجلستها بجواري، احتويتهما بذارعي، طال صمتهم وطال نشيجهم البكائي، وأنا أزداد قلقًا، أخذت أُهدِئُ منهما، بعد وقتٍ تم الهدوء، تكلمت زوجتي حكت ما قالته (ثريا)، للحقيقة أحسست كأنى أصبت بالشلل، تصلبت

أوصالي، العرق البارد يتصبب من كامل جسدي، تاهت معالم الأشياء من حولي، جلست محتويًا رأسي بين يدى، وجدت نفسى أبكى مثلهن، لم أدرِ بشيء إلا صوت ارتطام شيء بعنف على الأرض، أفقت على صراخ زوجتي، جالسةً على الأرض واضعة رأس ابنتنا على ساقها، تضرب وجنتيها بهدوء، تنادى عليها، الوجه شديد الشحوب، لا شيء يشير للحياة، صرخت بي طالبةً الإسراع باستدعاء دكتور أو إسعاف، خرجت لا أرى ما أمامي، هناك بالشارع أحد الأطباء، جريت أتخبط، أخذت أطرق بابه بعنف، فتح الباب، لم أعطيه فرصة للسؤال، صرخت به أن يأتي معي على الفور، الرجل فهم أن الأمر خطير، تناول حقيبته، وألقى على بيجامته عباءةً على وجه السرعة، هرول من معي، جلس على الأرض بجوارها، تحسس النبض، قام بقياس الضغط، أجرى بعض محاولات إفاقتها، وضع نشادر بالقرب من أنفها، أخذ وقتًا طويلاً، حتى فتّحت عيونها إلى حد ما، تنهد وأخذ يدلك وجهها، أنهضها، طلب كوبًا من العصير، أخذ يشربها، اطمئن ، خاطبنا.

– واضح أنها تعرضت لحالة هبوط حاد، ربما يكون من تأثير أنيميا حادة، يجب تغذيتها جيدًا، والبعد عن أي مؤثرات نفسية سلبية، جو هادئ،

كتب صنفين من الدواء، قال إنهما فيتامينات، تركنا ونحن بحالة توهان، الأم أسرعت لإعداد طعام سريع لها، وأنا حائر ماذا أفعل؟ وماذا يقول الناس عن عودتها إلينا بعد شهور قليلة؟ وأنت تعرف الأرياف ليس لهم إلا الحكي، وتحويل الحبة إلى قبة، همست لنفسي، فوضتك بأمري يا رب، فجأة رنَّ الهاتف، نظرت لأرى من الطالب، وجدت أنه (نعمان البرلسي)، أجبته كان سؤاله عن (ثريا) هل هي عندنا؟ عاد (فؤاد) زوجها من عمله ولم يجدها، طمأنته وأضفت أن يأتيني هو وابنه على الفور دون انتظار حتى الصباح، حاول أن يعرف السبب، وجدتني أصرخ به، نفذ ما أطلبه منك، لم تمر أقل من ساعة وجاء هو وابنه كل منهما ترتسم على وجوههم كل ألوان الطيف، لم أعط لهم فرصة لالتقاط الأنفاس، وجهت حديثي مباشرة للابن.

- تتكلم أنت أم أتكلم أنا؟

لهجتي بالحديث جعلت (نعمان) ينتفض واقفاً رافعاً صوته لحد ما.

- ماذا هناك؟ جئت بنا بهذا الوقت دون أن نعرف السبب، لم ترحب بنا كما يجب، حتى أننا ما كدنا نجلس، حتى وجهت كلامك لابني بلهجة أقرب للاتهام، تكلم ووضح لي الأمر.

.. تفرست بوجهه، أمسكت بساعده بعنف، أجلسته صارخاً به.

– ما بيننا من عشرة وعيش وملح كان يفرض عليك أن تصارحني بعلة ابنك، كنت أنا أول من يعاونك بالبحث عن علاج وعن حل، ولكن أن تختار ابنتي أنا التي هي مثل ابنتك، لتضعها بهذه النار، لماذا؟ لماذا؟ قبل أن تنفعل وتحتد اسأل ابنك يجيبك، ولماذا؟ أنت مؤكد تعلم علته، فلماذا خدعتني واخترتني أنا دونًا عن كل الناس؟، لتبتليني بهذه المصيبة، فهمني لماذا أنا؟

استدار إلى ولده مصوبًا عينيه نحوه بحدة.

– انطق، رد على كلام عمك، وضح لي، أخبرني عن الأمر الذي لا أفهمه للآن، أنا تائه لا أستوعب أي شيء، عمك يقول كلام محتاج إلى تفسير، تكلم.

وضع الابن رأسه إلى الأرض، وضع رأسه بين كفيه، وأخذ بالبكاء العالي، مطأطئ الرأس حتى كادت تكون بين قدميه، أمسك الأب بكتفه وأخذ يهزه هزات عنيفة، طالبًا منه الحديث، ولما لم يجد منه ردًا، استدار إليّ طالبًا منى أن أشرح له ماهية الأمر، اضطررت للقول، حكيت له ما كان، الرجل تصبب عرقًا، أظنه باردًا حتى أنه بلل قميصه بأكمله وكأن أحدًا قذفه بشلال مياه، ما إن سمع حتى

تهاوى أرضاً، أصبح هو ومكان جلوسه قطعة واحدة، فجأة نهض منتفضًا، أمسك بكتفيه أخذ يهزهما يمينًا ويساراً، صارخاً به.

- لماذا لم تخبرنا بعلتك؟، كنا حاولنا علاجها، لماذا وضعتنا بهذا الموقف السيء مع رفيق العمر؟ ربنا يسامحك ويسامحنا، وضعتنا في مأزق حاد، وجّه نظره إليَّ مخاطبًا لي.

- هل تسمح أن تمنحنا فرصة للعلاج، هو ولدك أيضًا، أعطنا فرصة، نحاول الإصلاح، أرجوك يا حاج.

ما إن انتهى من حديثه حتى رددت عليه بحدة لم أعهدها بي على الإطلاق.

- أي فرصة، خرج الأمر من يدينا، ما حدث يندرج تحت بند الخداع، سواء كنت تعرف أو لا تعرف، أرجوك مثلما دخلنا إخوة بالود، نخرج كما دخلنا، بلا أي داعي للمشاكل، خلينا لا نخسر الكثير مما كان بيننا أعوامًا طويلةً، يكفي ما كان، ربنا يستر على البنت، الموضوع ليس سهلاً، لتقول لي فرصة، انتهى تمامًا، غدًا تأتى بالمأذون وننهى الأمر برمته، أظن كلامي واضح.

ما كان عليه هو وولده إلا تنكيس الرؤوس، والسير بأقدام متثاقلة كأنها محملة بأطنان من الرمال، ظل يرن علي عشرات المرات ولا

أجيب، القرار لدى لا رجعة فيه، الذى كسر لا يعود كما كان، خاصة بأمر مثل هذا، في عصر اليوم التالي هاتفته، طلبت منه الحضور هو وابنه وبصحبتهم مأذون من قريتهم، بهدف عدم وصول هذا إلى أهل قريتنا، أنت تعرف أن الريف يجيد الحكايا وإضافات كثيرة لها، الكثير منها غير واقعى، ولكنه يقال من زاوية التشويق، ولفت الانتباه، جاء بعد العشاء، حاول الشيخ المصاحب له الحديث للإصلاح، لم أستجب، حدث خلاف حاد بيننا، أنا كنت أصر على النص بمستند الطلاق على أنَّ من كان زوجًا لها لم يستطع الدخول بها، رفض وخرّ راكعًا يُقبلُ يدى، وكاد يُقبلُ قدماي وهو شديد البكاء، تشبثت جدًا جدًا، ولما طال الجدال، وافقت على مطلبه وبداخلي يقين أن هناك ما يفيد عذريتها، حتى لا تلوك الألسنة سيرة ابنتي بغير الحقيقة، انتهى الأمر، وباليوم التالي أتيت بسيارات من أجل أثاثها وحاجياتها، لم آت بها إلى منزلي، لي شقة بالمنصورة كنت أقيم بها من سنوات حين يحتم علىَّ العمل أن أظل لأوقات متأخرة، وكنا أحيانًا نقضى بها أيامًا أنا والأسرة من باب تغيير الأجواء، هذا منذ قرابة الشهرين، انشغلنا بتعب (ثريا) وحالتها النفسية المتردية، أصبحت تأبى الأكل والشرب، تغلق باب الحجرة عليها، لا تخرج إلا للضرورة، أسلمت نفسها للكآبة، كل

هذا وأنا أفكر بحل لإثبات عدم الدخول بها، الكلام كان بدأ يُثار عن سبب وجودها عندنا، قلنا أنها مريضة، جاء السؤال لماذا لا نرى أحداً من أهل زوجها؟ هنا كان لابد من سرعة البحث عن حل، لم يخطر ببالي إلا أنت، كل شيء تغير من حولنا، لم تعد قريتنا وأجزم أن كل القرى تتشابه في هذا، لم يعد هناك من أزمان الأجداد والآباء إلا النذر اليسير، كنا دوما أسرة واحدة، الألم والوجع يجمعنا مثلما يجمعنا الفرح، كنا جميعا سياجات تصد أي محاولات للتعدي على خصوصيات أيًّا منا، كنا نتسابق لستر عيوبا، كانت هناك شراكة دائمة تجمع الكل، دون توجيه، وكأننا نولد ونحمل هذه الجينات، اليوم للأسف تغيرت الأمور بزوايا منفرجة بأقصى أنواع ما يسمى بالزوايا المنفرجة، كل يفعل ما يشاء، لا مبالاة بمن يعيشون حوله ومعه، للأسف أصبح الهرم الاجتماعي مقلوبًا بل ومهترئًا لحد كبير من جرّاء رياح الغرب المسمومة التي أبهرت أبصارنا وحركت غرائزنا، بالتالي انزلقنا إلى هوة التقليد الأعمى بلا وعى متناسين كل موروثنا من تاريخ وقيم ومبادي، فتهنا عن جادة الطريق، بل قل لم نعد نبصر الطريق ولا نعرف أين نضع خطواتنا؟ رغم كل هذا لا ننكر أن هناك أُسَرًا مازالت متماسكة بما تربت عليه وعاشت به، وهو ما يجعل لنا أمل أن نعود لسابق أزماننا، آسف صدعتك، لم

يكن أمامي إلا انت ابن عم شقيق ولسابق زمالتنا التي جمعتنا سنوات طويلة، الحياة أخذت كل منا باتجاه، ولكن يظل ما يربطنا الكثير والكثير.

– حقًا ما قلت، مزروع داخلنا أو قل الجيل الذي نحن منه، الكثير من القيم والتقاليد وثوابت الأمور التي توارثناها من الأجداد، أما عن موضوع ابنتنا لا تقلق، مؤكد هناك حل، لحظة سأتصل بصديق محام كبير، أحمل له ثقة كبيرة.

أخرج هاتفه وداعب ازراره، الرنين مسموع، جاءه الصوت مرحبا.

– أهلاً أستاذ (رضوان) لنا مدة لم نسمع صوتك، لعل غيابك للخير، تحت أمرك.

شرح له كل شيء، طمينه قائلاً: –

– الأمر بسيط لا داعي للقلق، نلتقي غدًا، نحرر توكيلا ونتقدم للطب الشرعي بطلب لمناظرة البنت لإثبات عذريتها، عندها يصدر تقرير من الطب الشرعي بهذا، وبهذا يقطع أي كلام يقال بشأن سبب انفصالها.

شكره واتفقا على اللقاء صباح الغد أمام أحد مكاتب الشهر العقاري.

طمأن ابن عمه، بأن الاستاذ (فكرى الخياط) من أكبر محامين مصر وأخبره أن كل شيء ميسر بأمر الله ولا داعي للقلق، آتاه تليفون من الزوجة يخبره أن الغذاء ينتظرهم، حاول ابن العم الاعتذار، ولكنه رفض هذا بكل إصرار، بل أخبره بضرورة مبيته للذهاب للشهر العقاري لعمل التوكيل، جعله يتصل بأسرته لإخبارهم بهذا. أخذا طريقهما إلى المنزل، رحبت به (ناهد) كل الترحيب، تناولا طعام الغذاء مع حكايات ذات أحداث مضحكة محاولة لنفض الألم والوجع المسيطران على كاهله، بعدها أدخله لحجرة الضيوف وجاء له عباءة منزلية، داعيه ضاحكا.

- حتى تعرف أنني لم أنس ريفتي، ومازلت أعيش بكل جلالبيب الأجداد الأقدمين، أتركك للنوم قليلاً، ولنا أحاديث تروي عطش العمر للذكريات.

أخذهم النوم إلى ما بعد المغرب، نهض (حسين) أولًا، طرق باب الحجرة من الداخل للتنبيه على يقظته، جاءه الرد.

- تفضل.

خرج ملقيًا التحية، سأل عن الحمام، أشار إلى مكانه، اغتسل وخرج، طالبًا أن يصلى، طلب منه الانتظار ليصليا سويًا، انتهيا من الصلاة،

تناول يده وسار به إلى الشرفة، أتيت إليهم بالفاكهة متعددة الأصناف، وبعضًا من المشروبات، جلسا يتبادلان الحديث، لم يقترب مطلقًا من الحديث حول موضوع الابنة؛ حتى لا يثير مزيدًا من الأحزان الساكنة داخله، والبادية على قسماته، رغم محاولات (حسين) أنه غير منشغل بهذا، حتى لو لبعض الوقت، جلست الزوجة معهم، تكرر الترحاب، قالت:

- لم أرك من أيام زواجي الأولى، ربما من لحظة أن جيت للتهنئة، عرفنا بعدها بسفرك للسعودية بإحدى الشركات الكبرى، وعرفنا أنك تزوجت، وأن العروس ذهبت إليك حيث عملك، بعدها انقطعت أخبارك لحد كبير، بعض الأخبار كانت تأتينا من خلال زياراتنا المتباعدة للقرية، رغم علمي أنكما انت و (رضوان) كنتما ملتصقان ببعض، رغم فارق السن بينكما، فهو يكبرك بثلاث سنوات على ما أتذكر.

رفع كفه طالبًا الكلام.

- بداية أنا و (رضوان) مخطئان، لتباعدنا مهما كانت الظروف والمبررات، صحيح الدنيا أخذتنا رياحها شرقًا وغربًا ولكل الاتجاهات، ولكن مؤكد أنا وهو وكل أبناء العائلة لا يمكن لنا أن ننسى أو نتناسى أنفسنا، كل منا هو الآخر، أنا أيضًا كنت متابع لكل

أموركم، مراحل حياتكم، علمت بمولد الأبناء على ما اتذكر (إسلام، طارق)، وتابعت مراحل عمرهم وتعليمهم من خلال أبناء العم العددين، علمت مؤخرًا أنهما يعيشان بفرنسا على ما أظن، أحدهما مهندسًا، والآخر طبيبًا، وكلاهما ناجح نجاحًا مبهرًا، تفتخر به العائلة، أما أنا تزوجت من قرية تبعد عنا أكثر من مائة كيلو، اسمها (أورين) تابعة لمركز(شبراخيت بالبحيرة)، ولكنه النصيب، يأتي بغته كما يقولون، كنت مكلفًا لمرافقة وفد من الوزارة وبعض خبراء أجانب، ولم أعرف للآن لما اختاروني، ولكنه القدر، انتهت مهمتنا، أصر أحد كبراء القرية دعوتنا للمبيت؛ لأن الوقت تأخر وأقسم بالله أن لا نغادر ليلاً، أكرم ضيافتنا بشكل غير متصور، أثار فينا جميعاً الدهشة والفضول والتساؤل، ولكن أنا كنت غير داهش بنفس أحوال مرافقي، لأنني تربيت بالريف وأعرف عنهم هذه الطبيعة الحاتمية، فالقرويون يرون أن الثراء الحقيقي هو الناس، معرفة الناس كنوز، أثناء تبادلنا الحديث، أشار إلى الحاج (مخلص الإمام)، وهو اسم والد زوجتي، بالجلوس بالقرب منه، أخذ بالحديث معي منفردًا، سألني عن من أنا، ما كدت أتفوه بأنني من (ميت عنتر) ومن عائلة (أبو الحمد) واسمى(حسين أبو الوفا أبو الحمد) إلا وجدته ينهض قافزًا قفزة شاب بالعشرين، أخذني

بصدره يقبلني مرات عديدة، عاودنا الجلوس، أمسك بيدي ضاغطًا عليها، سألني.

- هل تعرف الحاج (الحسيني فرحات أبو الحمد).

أجبته بأنه عمى، صاح.

- سبحان الله العظيم، الدنيا صغيرة، كان عمك رفيقنا هو والحاجة زوجته برحلة الحج، أجمل أيام أمضيناها بالأراضي المقدسة، طمني عليه، وأخذ يحكى ويسترسل بحكايات متعددة، فأجانى حين قال.

- منذ رأيتك وأنا أسأل نفسي، أين رأيت هذه الملامح؟ والحمد لله أنى عثرت على رائحة أحبة.

نهض فجأة وأنهضني معه، استأذن من الحضور، خرج بي، إلى حيث يوجد بهو كبير معد للجلسات بشكلٍ به ذوق عال، جلسنا، طلب منى أن أحكى عنى كل شيء، حكيت له عنى وعن العائلة، لم نشعر الا بزقزقات العصافير تبشر بيوم جديد، نسينا من معنا، فاجأنى بأمر لم أتوقعه، قال إنه سيذهب معي إلى قريتي ليلتقي بعمى والأسرة، بالطبع لم يكن أمامي إلا الترحيب، ذهبت للنوم، لم أصحُ إلا قُبيْلَ الظهيرة، أخذنا الإذن بالمغادرة بعد تناول الإفطار، كان مستعدًا لمصاحبتنا، الدهشة للحقيقة أكلت دواخلي؛ ولكن للحقيقة

كان بي ارتياح شديد له، فقط كان إشفاقي عليه من السفر الطويل، طوال الطريق نتبادل الحديث الطويل، حكى لي عنه، أنه يمتلك زراعات شاسعة يتكسب من ورائها الكثير، حتى إنه كل عام يضيف بعض الأراضي إلى أراضيه، وأنه أنجب ولدان، علمهم أفضل تعليم، أحدهم طبيبًا للجهاز الهضمي، له عيادة بدمنهور، وبالقرية حسب رغبة الأب، يخصص أيامها لأهل القرية ومحيطها من قرى بالمجان، بل يتكفل ببعض الأدوية لغير القادرين على نفقته أو نفقة الحاج (مخلص)، والابن الثاني ضابطاً بالجيش إسوة بمنهج العائلة بضرورة الانخراط بسلك الجيش والشرطة، وله أيضاً ثلاث بنات، اثنتان تزوجتا، وسكنا المدينة، وبقيت ابنة نالت شهادة ليسانس الآداب لغة إنجليزية العام الماضي. أحسست خلال ساعات السفر أن الرجل قريب من روحي، وكأنني أعرفه سابقًا، وصلنا بعد سفر طويل شاق تخلله وقفات للتحرر من جلسة على حال واحد، وتناول بعض الأطعمة والمشروبات، عند وصولنا توقفنا أمام عتبات منزل عمى، طرقت الباب، فتح أحد إخوتك لا أتذكر من كان، لم يعطني الرجل فرصة، بادر أخوك.

- أخبر الوالد أن الحاج (مخلص الإمام) يقف بالباب.

ما كاد ينتهي من نطق اسمه، حتى شاهدت عمى يأتي حافي القدمين مهرولًا منحيًا أخوك عن طريقة بشكل أقرب للعنف، فاتحًا ذراعيه على سعتهما مهللاً بصوت جهوري لم أعهده به على الإطلاق.

- أهلاً أهلاً، والله والله لا أصدق عيناي وأذناي، أجمل لحظة أن أجدك هنا، ولكن وقبل أن يكمل لمحنى فلم يزد، فقد فهم كيف وصل (الحاج مخلص) إليه، وضع اليد باليد، أدخله البيت مرحبًا بكل ألوان الترحيب، أشعرني هذا اللقاء والترحاب كأنهم عاشا معًا سنوات طويلة، التفت إليَّ العم قائلاً قبل أن يدخل.

- ولد يا (حسين) هو كان معتادًا على نداء كل أبنائه وأبناء إخوته هكذا، لك عندي مكافأة كبيرة، فأنت أتيت لي بروائح ذكية عشناها أياماً لا تنسى بالأراضي المقدسة.

على مدار ثلاثة أيام قضاها بالقرية، لم يفارقه لحظاتها عمى، طاف به على كل العائلة، وكل وجهاء القرية، أقيمت الموائد ونحرت الذبائح، وفى اليوم الثالث طلبني العم، أجلسني بينه وبين (الحاج مخلص الإمام)، وأبى يجلس قريباً منهم بعيونه فرحة لا أعرف لها سبباً، أخذوا يتبادلون النظرات لبعض الوقت، ثم وجدت العم يمسك يدي، وبين الحين والآخر يربت على ساقي، مما زاد من

دهشتي وتساؤلي الداخلي، ماذا هناك؟ أخيراً انسابت الكلمات من بين شفتيه.

– اسمع يا(حسين) يا ابني، أنت تعرف أن كل شباب العائلة أبنائي، ولعلها المرة الأولى الذي نغير به طقوس الحياة، وحتى لا أزيدك قلقًا، (الحاج مخلص الإمام) منذ أن شرفنا وهو لا يفتر من الحديث عنك، وعن إحساسه بك من اللحظة الأولى، لذا قررنا سويًا أن نزوجك ابنته (نجوى)، وهذا والله نسب يتوج رؤوسنا جميعًا، وأتيت بأبيك وأخبرته وتوافق مع رغبتنا، ما رأيك يا عريسنا؟

اعتراني صمت مطبق، تصبب العرق شلالًا من كل جسدي، رغم وأعترف أنى تمنيت أن نرتبط بعلاقة مع هذا الرجل لما وجدته من ترحاب العم، زغدني برفق هانيًا.

– انطق يا ولد، أنت رجل والرجال لا تخجل، هيا حتى نرسل لباقي العائلة لنتمم الأمر، ويشاركونا فرحتنا.

خرج الكلام منى أظنه كان يرتدى كل ثياب الارتباك.

– وهل بعد قولك قول، أنت كبيرنا وكلمتك تتفذ؛ لأنها تهدف لسعادتنا، ثم يا والدي أخبرت أبى فماذا أقول بعد قولكم.

عانقني وأرسل بطلب العائلة من الرجال الذي جاؤوا مهرولين، الكبير لا يحب إرجاء مطالبه، أعلمهم بما تم، أتت الموافقة بكل ترحاب، تعانق الجميع وباركوا هذه المصاهرة، بعد العناق والقبلات، قال العم:

- بعد أسبوع من الآن سنذهب إلى بلدتهم لطلب يد ابنتهم حسب التقاليد، ما تم هنا يخصنا، ثم نظرا لبعد المسافة رغم أن المسافات لا تفرق بين الأحبة، ليكن الزفاف بأقرب وقت، وهذا ما كان، بعد حوالى الست أشهر كان الزفاف، وصارت حياة تجاوزت السبع وعشرين عامًا، لم أشعر حينها إلا بكل سعادة، (نجوى) امرأة تجيد فن التعامل مع كل شيء بهدوء وعقلانية، أمر آخر لابد من ذكره رغم ثقتي أنه راسخ داخل كل من ينتمى لعائلة (أبو الحمد)، أن الأجداد وضعوا أمام أعيننا أموراً تعتبر قانوناً نسير عليه إلى يومنا هذا، الصدق التام مع كل شيء، الصدق يقرب المسافات، ويكون ثراءً لمن يتعامل معه، والآخر عدم الخوف، الخوف أصفاد تمنع الإنسان من ممارسة حريته، من أن يعيش بضمير، وأظن جازمًا أنها جينات توارثناها.

ضحك بصوت عال وأردف قائلاً.

- صدعتكم كثيرًا، ولكن بصدق كنت محتاج أحكى، اللحظات الحلوة لا يجب أن تظل حبيسة الصدور، دعونا نذهب للنوم، حقيقة أنا بحاجة له لأعاود تذكر تفصيلات كثيرة، أشكركم على أشكركم على أنكم فتحتم مضخات الأحاسيس بداخلي، تصبحون على خير.

..بصباح اليوم التالي، خرجا لمقابلة المحامي الذى حدد مكان اللقاء أمام أحد مقرات الشهر العقاري، تمت الأمور بيسر لسابق علاقات المحامي المتوطدة مع العاملين بالمكتب، وبعدها ذهبوا إلى الطب الشرعي، تقدم المحامي بطلب لمناظرة الابنة من المختصين لإثبات عذريتها بشكل رسمي، تحدد موعد المناظرة بعد أسبوع، كانا اتفقا قبل مقابلة المحامي على أن يكون الطب الشرعي بالقاهرة بعدًا عن القيل والقال، وكان هذا باتفاق الجميع رأيًا صائبًا، صحب ابن العم حتى محطة القطار، مع التأكيد بحضوره بالموعد المحدد هو وابنته، لم يتركه حتى تحرك القطار، طوال طريق العودة، لم تبارحه الأفكار، تسأل هل الزمن يدور ويلف دوراته المتعددة، ومهما طال الزمن، وتباعدت المسافات لابد لأى إنسان للعودة إلى بداياته، أجاب على نفسه، أمر حتمي، مهما قذفت بك قواديس الزمن شرقًا وغربًا وبكل أرجاء المعمورة، مهما تغيرت ملامحك وتحولت سحنتك إلى شبيهة بهم، مهما تغيرت طباعك وركبت موجات التغيير السريع

والمتسارع، مهما ضاعت أحرف لغتك وتغيرت لهجتك ولكنتك، مهما علت درجات الثروة والسلطة وتمرغت بمتع الدنيا، ونسيت حبوك حافيًا على تراب بلدك، مهما غيرت من ثيابك، مهما عشت بين الحفلات والسهرات، مهما ومهما ستعود يومًا، الغالب الأعم يعود، والبعض يخلع وينسلخ تمامًا عن أمسه، فيموت وحيدًا كما عاش وحيدًا، معظم من يهرب فارًا من عالمه بحثًا عن حياة مغايرة لحياته، يعود مهما طال الأمد وطالت غربته، عندما يضع قدمه على تراب وطنه، تجده دون أي توجهات أو إملاءات، يخر ساجدًا مقبلاً تراب الوطن، نازعًا عن كاهله كل أردية ارتداها أثناء غربته، يمسح عن ملامحه كل ما تراكم عليها من أغبره وطقوس احتلته لفترات، يعود مولودًا جديدًا، الكثيرون يعودون أحياءً وقلةً تعود ملتفة الساق على الساق، ولكن الكل يعود، نحن أبناء الشرق جبلنا على ضرورة أن نولد وأن نموت بأوطاننا، أما الغرب فلا يهتم ولا يعنيه أو يهتم بأي مكان يعيش وبأي مكان يدفن، اعتادوا متى صار قادرًا على أن يسير بمضمار الحياة وحيدًا يغادر كل ما يربطه بأسرة أنجبته، ويولى الأدبار هاربًا من القيود الأسرية، وجد نفسه يبتسم ويهمس.

– أحمد الله أنى ولدت شرقيًا لي جذور لا أستطيع مهما بعدت إلا أن أعود إليها طالبًا دفئها.

قبل أن يتوقف أمام رصيف البناية التي يقطن بها، رن هاتفه، توقف بمحاذاة الرصيف، نظر إلى شاشة الهاتف، الرقم غير مسجل عنده، ورقم دولي لدولة لا يعرفها، تسائل من يكون، ليس له أي علاقات بأصدقاء يقيمون بالخارج إلا عدداً قليلا يعرف أماكن إقامتهم وأرقامهم مسجلة لديه، وهو أيضاً لم يغادر مصر مطلقاً إلا عند أداء فريضة الحج، فتح الخط جاءه صوت ذكوري، يتكلم العربية بشكل متقطع وبين الكلمة والكلمة كلمات إنجليزية، الصوت يأتيه.

- (رضوان) ألا تعرفني، أنا (لوكا ديموس أنطونياس)، هل نسيتني؟

رن الاسم في أذنه، وجد نفسه يصيح غير آبه بالشارع ومحتواه.

- يالله ياالله!! أين أنت طوال هذا الزمن، وكيف توصلت لرقمي؟ هل جلست إلى البلورة السحرية الخاصة لوالدك؟

- كما أنت لم تتغير، تريد معرفة كل شيء على الفور، وحتى تهدأ أخذت رقمك من (عبد الله التحيوي) وأعرف أنه يهاتفك كثيراً ويلتقى بك بزيارته، ثم أنا أتصل بك لأقول لك خلال أسبوعين سنأتي لمصر، وقررنا هذه المرة أن نقضيها بفيلا (عبد الله التحيوي) بالغردقة، بصحبة الزوجات على الأقل نعطيهن فرصة للتنفس عن

دواخلهن، نجعلهم يأخذون راحتهم تماماً في تقطيع فرواتنا كما تقولون، فقط جهز نفسك لأجازة بهذه الفترة، (عبد الله) سوف يتصل بك ويعلمك بالتاريخ تحديدًا، سلام أنت تعرف أنى شديد البخل، وهذه المكالمة تكلفتها عالية، على فكرة سوف أحملك أنت و(عبد الله) قيمتها، الحق الحق.

وأطلق ضحكات طويلة مجلجلة، قاذفًا السلام مرات، وأسرع بإغلاق الخط تاركًا له الدهشة والمفاجأة.

صعد بدهشته إلى شقته، وهو يضرب كفًا بكفٍ، ويتمتم بكلمات مبهمة، مما آثار دهشة زوجته، وعندما أخبرها فحوى المكالمة، أصابتها نوبة من الضحك المتواصل، وقالت.

- حكيت لي عنه بعض الشيء، فقط طريقته التي حكيت عنها تشير بأنه كما هو يعيش الحياة كأنه مازال طفلاً.

- لك حق، هو فعلاً طفل لا يكبر، ما يدهشني هو تذكره لي، بالحقيقة نسيت عنه الكثير، بل ظننت أنه غادر الحياة، (عبد الله التحيوي) ولا مرة حدثني عنه، من الواضح أنهما متواصلان دائمًا، عامةً أثار داخلي معرفة تفاصيله. سأخلد للنوم قليلاً؛ لأني لم أعرف النوم جيدًا ليلة البارحة.

٦

...بقرية (ميت عنتر) وتحت ظلال بعض الأشجار التي تقع على حافة الترعة الرئيسية والتي تظلل إحدى المُصَلَّيَات الكبيرة للصلاة في أوقاتها من المزارعين المتواجدين بحقولهم، تجد أمام كلِ حوضِ أرضٍ له مسماه الخاص عدداً من المُصَلَّيَات لأداء فروض الله بأوقاتها، تجمع ما يقرب من العشرين شاباً، متقاربي العمر الذى لا يتجاوز الخمسة والعشرين عاماً أو أكبر قليلا، اجتمعوا لأمر تم الإعداد له على مدار ما يقارب الشهر، أخذوا على عاتقهم محاولة العودة بالأمور الحياتية بالقرية والمصاحب لها من قيم وعادات وأعراف وسلوكيات، تصب في سبيل عودة الود والتراحم للقرية إلى سابق العهد، هم يرون رياح التغيير تهب بسرعة أكبر من سرعة الضوء، وتقذف بكل شي الى كل الزوايا بل حولت كل شيء شظايا، بدأت الفكرة من خلال الشاب (محمود أبو الهوى) خريج طب الأزهر، وزميله (خالد محجوب) خريج كلية العلوم، كانا يجلسان ذات ليلة يتحدثان بموضوعات شتى، تطرق بهم الحديث، عن المتغيرات السريعة والمتغيرة التي تشهدها البلاد عامة، وقريتهم خاصة، هذا المتغيرات التي لا يمكن ملاحقاتها،_كل يوم وكل ساعة متغير جديد_، تحدثا على أن هذه المتغيرات قد أصبحت مثل

النار في الهشيم، ولابد من إيجاد محاولات وحلول جادة للتصدي لها، هم يرون هدماً متعمداً وموجهاً بهدف جعل كل بلد وكل مكان داخل الدول تتحول إلى جزر منعزلة، جعل لكل من أهلها فكراً خاصاً به يعتقنه ويؤمن به دون فهم سلبياته وإيجابية، بل إلى حد تصادم الآراء والمعتقدات، زمن يتداعى وينهار به كل ما تم ميراثه عبر القرون من تاريخ وقيم وطقوس حياتية، كانت هي السياج الآمن للبلدان، عقدوا مقارنة بين الماضي والحاضر، طال بهم الحديث لوقت طويل، بالنهاية اتفقا على مخاطبة الشباب المقاربين لهم عمرا ويعرفون عنهم الاستنارة وتغليب الصالح العام، حددوا لكل عائلة ممثلا لها، وهاهم اليوم جاءوا للنقاش وليطرح كل منهم أفكاره على طاولة النقاش،

بدأ الحديث (محمود أبو الهوى).

– بداية نحن لسنا ضد مسايرة ومواكبة التغيير، نرحب بأي تغيير يضيف ويبنى ولا يهدم ما تربينا وعشنا عليه، أعرف أننا جميعا جئنا لهدف واحد، أراه مهما للغاية، وأننا جميعا متجردين من أي غايات شخصية، طبعا جميعنا شاهد عيان على المتغيرات الخطيرة التي تمر بها قريتنا مثلها مثل كل الوطن، متغيرات خطط لها من سنوات وربما من عقود، أصحاب هذه الهجمات البربرية، والتي أدرجها أنا

من وجهه نظري، تحت مسمى الحروب الضروس، التي غايتها تفتيت كل شيء، إلى اختراق تاريخنا ، ثقافتنا، معتقداتنا، ليتمكنوا من جعلنا ندور بفلكهم، أطلقوا علينا ما يحولنا من شعوب منتجة تكتفي بما هو متاح من الإنتاج لتعيش، وكنا شعوبا قانعة راضية، حامدين شاكرين على هذه النعمة، جعلونا شعوبا مستهلكة وشعوبا كسالى نتباعد عن العمل، صدَّرُوا لنا عديدا من المنتجات الكثيرة بصنوفها وأشكالها، مما جعل الكل يسيل لعابه ويهرول إليها، اعتمدوا في هذا المسلك عنصر الإبهار البصرى والحسى، أظنكم ترون أن المزارعين الذين كان يضرب بهم المثل بالنشاط والعمل الدؤوب الذى يثمر نتاجا يشيد به الجميع، نزعوا منهم الحمية والحماس، أصبحوا كسالى ساهرين على المقاهي التي احتلت غالبية شوارع القرية، يشاهدون أفلاماً تبث لإثارة الشهوات والغرائز، حتى نساء القرية أصابتهن العدوى، يهرولن إلى الأفران بالمدينة لشراء الخبز وكافة الشيء من المركز، أصبحن أسيرات التقليد الأعمى، صرن يتشبهن بما يشاهدن، ضاع أهم ما كان يميز حياتنا، الخجل والحياء، وإن تقاعسنا سوف تأكل هذه المتغيرات الأخضر واليابس، لذا جئنا لمحاولة إيجاد حلول تحد من هذا ،

ولكي نكون موضوعيين على كل منا أن يبدأ بنفسه وأسرته وجيرانه، وبأمر الله نستطيع، فماذا ترون بصدق؟!

تبارى الجميع كل يدلى بدلوه، هناك من طالب بأن تقوم أئمة المساجد بدروسهم وخطبهم، للدعوة إلى جادة الصواب، والبعض طالب أيضاً بأن تتم لقاءات دائمة لبعض رجالات القرية من رجالات مشهود لهم بالفكر والرؤية الثاقبة مع الأهالي، والبعض نادى بعقد لقاء موسع للجميع لتبصريهم بخطورة الانزلاق إلى هوية هذه المتغيرات، وهناك من اقترح ضرورة وجود عدد من الفتيات للمشاركة في توعية نساء القرية، وفي النهاية اتفقوا على التواصل أولاً مع كبار القرية المقيمين بها، ومن يقيم خارجها، وجلسوا يتذكرون أسماء هؤلاء، توافقوا على وفد منهم يمر على المشايخ والأئمة، وآخر للمرور على المدارس والمعاهد الدينية، وثالث لطرق الأبواب، لابد من إعادة دور الأسرة والمسجد والمدرسة، بأسلوب هادئ ولا يجنح للتطرف، بخلال يومان أعدا قائمة بأسماء أبناء القرية المقيمين خارجها ومناصبهم، بدؤوا بمخاطبتهم هاتفيا وشرح أهداف دعوتهم لعودة القرية إلى ما كانت عليه، وإلى ضرورة استعادة القناعة والرضا وعدم التشبه بالآخرين، رحبت الغالبية ، وعليه تم الاتفاق على التجمع بإحدى ساحات

القرية أحد أيام الجمعة بعد صلاة العصر، تم إخطار من يقيمون بخارج القرية باليوم المحدد ، وكان من بينهم (رضوان أبو الحمد)، صباحاً استقل سيارته ومعه زوجته، أصر على السفر بالصباح الباكر قبل الزحام والحر، كان يسير الهُوَينَا يفكر بهذا الطرح الذي فكر به الشباب، التغير أصاب كل شيء، ولكن المدن تختلف عن القرى، المدن تذوب بها الأشياء، ولا أحد ينتبه للتغيير، أو لنكن منصفين لا يُعِيرُه أي اهتمام، لتسير الحياة كما تريد ونحن نسير بركابها، مردفا كلماته بجملة دائمة الترديد (كله مقدر ومكتوب)، هذه حقيقة ولكن ليست مبررا للخنوع والخضوع بلا أدنى تفكير، أما القرية صغيرة المساحات، قليلة السكان فأي متغير أو حدث جديد لابد من حدوث ضجيج وجلبة، وانتباه وتفكير ومحاولات للتفسير، بطبيعة الحال ليس من الجميع، آخر زيارة له للقرية من قرابة الستة أشهر، ياألله ما هذا التغير السريع، كل المساحات الزراعية التي شاهدها برحلته الماضية، لا يوجد لها أثر، الأبراج السكنية الأسمنتية صارت هي صاحبة الغلبة، حتى الخضرة استسلمت للكتل الأسمنتية والخرسانات والتغييرات، حتى الهواء لم يعد كما كان سابقا، ضاعت نسمته المنعشة التي تمر على الوجوه تداعبها، وكيف لها أن تكون! وقد صارت حبيسة محاطة بالكتل الأسمنتية،

كانت تمسح العرق ووعثاء الطريق، أصبحنا نستنشق الغبار وثاني أوكسيد الكربون، المتغيرات ألبست كل شيء أَرْدِيَتَها، لأن هناك قوى تعمل علانية وخفية لتمزيق وتعرية الدول والشعوب من تاريخها الذى هو سترها وكرامتها، تنهد تنهيدة صدر عنها صوت كبير، أزعج الزوجة التي التفت إليه مصوبة نظرة تساؤل، وضع كفه على كفها رابتا عليها قائلا..

- اطمئني لا شيء، مجرد هاجس وإشفاق على شباب بهم حماس لمواجهة المتغيرات الهدامة، ولهم حق هي هدامة وإن لم نحاول التصدي، سوف يستفحل الأمر وتتحول الدول في وقت طويل إلى دويلات صغيرة جدا، وكل دويلة جزيرة منعزلة، هم يحاولون تجريد الشعوب من تاريخها، التاريخ هو الشرف، هو ستر العورات، فعلا أنا أشفق عليهم وبذات الوقت ممتن لحماسهم، يكفيهم شرف المحاولة، وما يدريك ربما يستطيعون.

ضغطت بكفها عليه دعما وتأييدا.

ترك نفسه للتأمل، واضح أن وجوده بالمدينة لا يعطيه فرصة كبيرة لمشاهدة التغير بشكل جلي، كل شيء يتوه بالمدن، المدن تظهر بها المتغيرات في شكل تقليد بالملابس، بتسريحات الشعر، من تقاليع متعددة الأشكال، من سلوكيات لا تناسب ملامحنا ولا بيئتنا، حتى

الحديث أخذ منحي اللكنات الغربية والكلام الذى يتخلله كلمات أجنبية، يبدو أن الكل ينساق للتقليد دون إعمال العقل والتمييز بين ما يناسبنا أو لا يناسبنا، التقليد للِّحاق فقط بركب من يقلِّدون، وكأن الأمر صار مباراة يتسارع الكل للفوز بها، حقا تغيرت الحياة بجوانبها، ولكن للأسف ليس للأمام، بل كلما مر وقت نعود للخلف در!، وصل إلى قريته تعمد أن يمر بغالبية شوارعها، الوقت باكرا، شباب متجمع حلقات صغيرة على نواصي الشوارع والحارات، يدخن السجائر بشكل استعراضي، يرفعون عقيرتهم بالنكات الفاحشة، يتبادلن التشابك بشكل غلافه الخارجي لعب ومداعبة، ولكنه ينم على عنف وسيكولوجيات ليست سوية، يمارسون الرقص بشكل ابتذالي وترديد أغان لا معنى لها، ضجيج بلا عائد، ينفثون دخان سجائرهم دون مبالاة لأى شيء، آه يا زمن!، كنا لا نجرؤ على رفع أبصارنا حتى لإخوتنا الكبار، كان من يمر على رجل كبير وهو يعتلى مطيته ، لابد أن يترجل عنها، بل قد يصل الأمر أن يعرِّج إلى طريق آخر، تسريحات شعر غريبة، وشعور مضَفَّرة تشبها بالنساء، وسراويل بها العديد من التمزقات، توجد مسابقة دائمة بأشكال التمزقات وفنياتها، يا ألله ما الذى يحدث؟!، أين القرآن الكريم الذى كان غلافا دائما للقرية؟! خاصة بواكير

الصباح، ما من بيت إلا و يصدر عنه القرآن، الآن وللأسف أغاني الضجيج والخبط والرزع سائدة اليوم والوقت، ما أسرع نار التغيير في تفجير الماضي بكل مكوناته، كانت عادته الدائمة في زياراته للقرية، أن يمر على إخوته من النساء، عملا بوصية الأب _رحمه الله_ البنات مسئولياتكم للأبد، هن الأولى بالسؤال والاطمئنان، كونوا دوما السند، يمر على أختيه، يجالس كل منهن بعض الوقت، يسمع لهن عن كل تفصيلاتهن خلال فترات الغياب، يطمئن على أمور أولادهن، يتدخل لحل مشكلات قليلة طرأت، يتناول مشروبا أو طعاما حسب توقيت وجوده، فعل هذا، وبعدها أخذ الطريق إلى منزل العائلة حيث إخوته، شقته الخاصة لا يدخل إليها إلا بعد جلساته المستفيضة مع إخوته، بعد ساعات من حضوره أخيرا دخل شقته، أسرع بارتداء جلبابه الريفي، يشعر بكل الراحة حين يفعل هذا، يشعر بأنه يرتدى ذاته الحقيقية وأنه لم ولن ينسلخ عن جذوره، الزوجة تذهب لمجالسة زوجات إخوة زوجها، تجمعها بهن علاقات جميلة، على تواصل دائم هاتفيا، تعرف ويعرفن كافة التفاصيل كعادة نسوة مصر أو بالحقيقة هذه صفة الشعوب العربية كلها، لا يملُّون من الحكي وإعادته مرارا وتكرارا، حان وقت الصلاة، صعد ونزل يطرق أبواب إخوته للذهاب سويا

للصلاة، فالجماعة أيضاً بالذهاب جماعة للصلاة، وجوههم تنطق بالبِشْر، أثناء السير وبين الحين والآخر يربت أحدهم على بقية الإخوة.

من أجمل الأشياء الذى كان الأب والجد حريصين عليها، هو دوام الحب بينهم وبين أبنائهم وأحفادهم، هذا الأمر الذى يجعل العائلة بحال من الاستقرار، التحايا تلقى عليهم من كل المارين بهم أو يمرون عليها، برفع الأيدي أو بالإيماءات بالرؤوس أو بالإسراع بالمصافحة وتبادل القبلات، كل هذا يحدث بكل العفوية والصدق، الساعات التي يقضيها ببلدته يعود منها وكأنه مولود جديد، لبلدته سحر عجيب، تعيد إليه ذكرياته، كل ركن منها له معه أحداث وأحداث، للأماكن ذاكرة لا تعرف الصدأ مطلقاً ، مسقط الرؤوس أشبه بمغناطيس شديد الجاذبية، حتى لو كنا على مسافات طويلة أو غادرنا لبلدان أخرى لابد من العودة والتمرغ بها وتقبيل ثراها، البلدات اللحظة بها تعادل أعمارا كثيرة، دخلوا إلى المسجد الكبير الذى يتوسط القرية، أخذوا أماكنهم بالصفوف، أدوا صلوات تحية المسجد والسنة، الخطيب كان شاباً لا يتجاوز الثلاثين من العمر، كان مفوها يملك رصانة الكلمة، يدلل على أقواله بالعديد من الأسانيد والأدلة، تناول بخطبته ضرورة التمسك بمسيرة الآباء

والأجداد والاقتداء بمنهجهم الأخلاقي وكيفية تعاملهم مع مفردات الحياة، ضرورة التحلي بأهم صفة تكون لدى الإنسان، الرضا والقناعة بما آتاه من رب العالمين، فلكل إنسان رزقه، ولكل حظوظٌ متساوية من الرزق، فالبعض رزقة مال، وآخر رزقه صحة، وآخر فلاح أولاده، الحظوظ متساوية فرب العباد عادل ....ختمت للصلاة، الكل يصافح الكل، تتكون بعض الجماعات من الشباب والرجال، يجمع بينهم الحب، الصلاة تغسل الإنسان من داخله، يخرج كأنه مولود جديد، عاد هو وإخوته، جلسوا ببهو البيت المعد خصيصا لهذا الغرض، دارت أحاديثهم عن الكثير من شئونهم وشئون العائلة والقرية، والحكي عن أحداث جرت بالأيام الماضية، عن أعراس ، عن وفيات ، عن مشاحنات، عن ذكريات الأمس، طال نقاشهم حتى نودي عليهم لتناول الطعام، جلسوا جميعا رجالا ونساء وبعض الأبناء المتواجدين، بين اللقيمات تعلو الضحكات الصافية، الإنسان يولد من جديد عندما يكون غطاؤه أهله وناسه.

..بعد الغداء وما يتبعه من فاكهة ومشروبات، كان يود الاسترخاء قليلا، ولكن لا وقت، اجتماع القرية بعد ساعات قليلة، فضل أن يقضيها مع إخوته ينبش معهم بالذكريات، يتذكرون مواقف

شديدة البهجة، وأخرى كانت شديدة الألم، يتبادلون الضحكات حينا، والدموع حينا آخر، قاموا لصلاة العصر بالبهو، أمهم هو، قبيل الموعد المحدد، نهضوا معا شاهدوا الكثيرين بطريقهم للذهاب، يحثون الخطى، المكان المعد مكتظ عن آخره، من كل الشرائح العمرية والاجتماعية، حتى السيدات والفتيات خصص لهن مكان مستقل، أفسح لهم البعض مكانا بالصف الأول، فالكل يعلم مكانتهم بالقرية، بعد الاطمئنان على اكتمال كل شيء، بدأ أحد المشايخ من القرية تلاوة بعض آيات القرآن الكريم، بعدها أعطيت الكلمة للعمدة.

- بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، اليوم نحن جميعا جئنا ملبيين النداء للعودة إلى أصولنا وجذورنا، إلى ميراث سار بنا وسرنا معه قرونا طويلة، كل منا مسئول وشريك، لذلك لابد لنا من التوحد والالتفاف حول هذا الشأن حرصا على كياننا وعلى قوة البناء، واسمحوا لي أن أدعو أخي الأستاذ (رضوان الحسيني فرحات أبو الحمد) ليتحدث إلينا برؤيته بهذا الشأن، فوجئ بهذا المطلب، ولم يكن أمامه بد من النهوض، سلم على جلوس المنصة، العمدة وبعض رجالات

ومشايخ القرية، تلعثمت الكلمات وتوقفت على شفتيه، هو لم يعتد أن يتحدث إلى جمع، بعد فترة ربما يراها البعض طويلة، تكلم.

- السلام عليكم ورحمه الله وبركاته، بداية لابد لي من تحية كل الحضور، كبيرا وصغيرا، رجلاً أو امرأة، لأن معنى وجودكم يعطى رسالة كبيرة وهامة، أننا جميعا ننتمى لبلدتنا، ولأنفسنا ولكل مجتمعنا من كل زواياه، وأننا مهمومون بذات الهم وبذات القضية، قبل أن ندخل إلى الموضوع الأساسي لهذا أود القول _هو أيضا لا يخرج عن صلب الموضوع_ أن الدول الكبرى تريد دوما أن تعلن للجميع أنها الأقوى وأنها الأعظم، لتملي سياساتها ورؤيتها وما تريد على شعوب الأرض، ولكن بحق وصدق نحن أكيد شركاء بهذا الأمر ، لأننا استقبلنا ما يرد إلينا وهرولنا لتقليده دون أن نتدارس ونفكر مدى إيجابيَّته ومدى توافقه مع أسلوب معيشتنا وحياتنا، إذا فلا نلقى بكل اللائمة عليهم بل نحن نتحمل اللوم الأكبر، سوف أُحِلُيكم إلى كتاب للدكتور (مصطفي محمود) مؤكد كلكم تعرفونه، كتابه المعنون (قراءة المستقبل)، كأنه يقرأ المشهد الحالي باستشراف كبير، يقول، إذا أردت هدم حضارة أمة فهناك ثلاث وسائل لتحقيق هذا، اهدم الأسرة واهدم التعليم واهدم وأسقط القدوات والمرجعيات، اهدم الأسرة بتغيب دور الأم

بجعلها تخجل من وصفها (ربة بيت)، واهدم المعلم بأن لا تجعل له أهمية في المجتمع، وقلل من مكانته حتى يحتقره تلاميذه وطلابه، واهدم وأسقط القدوات والمثل والرموز والمرجعيات، عليك بأن تطعم أفواههم على الدوام، وتقلل من شأنهم، شكك فيهم حتى لا يسمع لهم أحد ولا يقتدى بهم أحد، فإذا اختفت الأم الواعية، واختفى المعلم المخلص، وسقطت القدوات والمرجعيات، فمن يستطيع أن يربى على صحيح القيم؟!، ما يعيبنا هنا هو إلى متى نظل في نظرهم ضعفاء؟ وهذه هي الطامة الكبرى، لأننا نرى بأم أعيننا ما ذكرت ولا رد فعل يجابه هذا، باختصار شديد يجب علينا أن ننزع عنا هذه الوصمة التي وصمونا بها، نحن لسنا ضعفاء بل نحن أقوى منهم، نحن تاريخ ضارب في أعماق التاريخ، يعنى أننا لنا هوية، وأين هم من هذا؟!، هم دول مستحدثة، لا يجمع بينهم أي مشترك، غالبيتهم ينتمون لمجتمعات أخرى، شراذم تجمعت وصنعت دولا، أوهمت الكل أنهم هم الأقوى، وعلى الجميع من الدول الأخرى أن يرفع يديه محيِّيًا ومُرَحِباً بإملاءاتهم دون أدنى تفكير أو وعى مما تحمله من كم كبير من الآثام والشرور، للأسف نحن من أغلقنا هذه الدائرة علينا، وخنعنا لصفة الضعف، وهذا ليس بمعزل عن شأننا اليوم، جئنا اليوم لمخاطبة العقول قبل

القلوب للحرص على ما جبلنا وتربينا عليه من موروث تاريخي وديني وعقائدي، مؤكد بداخل البعض تساؤل ولهم حق به، هل نظل جامدين ولا نقبل التغير والتطور الذى يعيشه العالم؟، مؤكد لا وألف لا، التغيير في الحياة ضرورة حتمية، لكل حقبة زمنية تغيراتها، لا يهم متى يحدث التغيير، المهم بل الأهم أن نستعد له، أن ندرسه جيدا، نعرف جوهره وأهدافه قبل أن ننبهر لغلافه الخارجي، وقبل أن يسيل لعابنا، لابد من إعمال العقل، حتى نتبصر جيدا ونتيقن من الجوانب التي ممكن أن تضيف إلينا فكرا وثقافة وتعاملا مع الحياة بشكل نرتضيه ؛لأنه يناسبنا من غالبية الزوايا، مؤكد هناك أمران، البعض يغير الظروف ويتحكم في مسارها، والبعض الآخر تغيره الظروف فيتوه ولا يبصر موضع قدمه، من هنا لا أطالب إلا بالإصرار على التبصر والتمعن لكل ما يرد إلينا من متغيرات، غالبيتها من وجهه نظري، لها أهداف غير معلنة، أن تشق صف الأسرة، وبالتالي تشق صف المجتمع والدول والشعوب، ليسهل الهيمنة والسيطرة عليها وتسير حسب ما تخطط له، لابد لنا من توحد بالآراء، ودعوني أعرج بكم على قضية هامة أراها من صميم موضوعنا، وآسف مقدما إن كنت سأطيل عليكم، نحن نفتقد في مشهدنا الفكري والاجتماعي لثلاثة أنواع من الأدب، أدب

الخلاف، أدب النصيحة، أدب الحوار، الخلاف بالرأي ضرورة طبيعية تبعا لاختلاف الأفهام في الرأي، وتباين العقول وتمايز المستويات في التفكير وتحليل الأمور والمشاهد، الأمر غير الطبيعي أن يكون خلافنا في الرأي بوابات للخصومات والعداوات وإذكاء لنوازع غير سوية أو منطقية وعقلانية، وشرارات توقد نيران القطيعة والتباعد والتفسخ، العقلاء مازالوا يختلفون ويتحاورون في حدود العقل دون أن تصل آثار خلافهم إلى القلب، فهم يدركون من أن الناس لابد من أن تختلف، ويؤمنون بكل يقين بقول رب العالمين

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، صدق الله العظيم)، ألا نحسن أن نكون إخوانا حتى لو لم نتفق، أحبك أخي حتى لو بقينا طول الدهر مختلفين، واختلاف معك لا يبيح عرضي، أو يحل غيبتي، الناس عند الاختلاف ثلاث، إن لم تكن معي فلا يعنى هذا أنك ضدى وهذا منطق العقلاء، إن لم تكن معي فأنت ضدي ، وهذا منطق الحمقى، وإن لم تكن معي فأنت ضد الله وهذا منطق المتطرفين، عندما نحسن كيف نختلف، سنحسن كيف نتطور، بعضنا يتقن أدب الخلاف، والآخر يهوى في مأزق خلاف الأدب، وأيضاً أدب النصيحة، النصح يكون باللين وبالحجة

الواضحة والمنطقية، الشدة بالنصح سبيل لأخذ الجانب الأبعد والأسوأ من أي نصيحة، وأدب الحوار، الحوار الهادئ الذى يتيح الفرصة للتقارب لا للتنابذ، الحوار الذى به طريق واحد هو طريق الود والصالح العام، أنهي حديثي بدعوة هامة، أن تعود الأسرة إلى مسئولياتها نحو الأبناء، لا داعي لمبرر الهرولة وراء متطلبات العيش، آبائنا وأجدادنا لم ينصاعوا لأى مبررات، أدعو المعلم والمعلمة إلى الحرص على رسالتهم الأساسية، غرس القيم والسلوكيات والتاريخ داخل عقول وأفئدة أولادنا، أدعو الأئمة والشيوخ للقيام بالدعوة الدائمة للسير بطريق اعتدنا عليه ولم نحد عنه، جاء الوقت لنخرج من ثياب الغربة التي نعيشها، لنعترف بالواقع فكل منا غريب بين أهله، يعيش وقته بين آليات التكنولوجيا، حاضر جسدا غائب روحا وعقلا ومشاركة حياتية، استيقظوا من سباتكم حتى تتبينوا موضع أقدامكم، الأرض تكون غاية في الصلابة عندما تتمسكون بأمسكم فهو مفتاح استشراف الغد، غاب الحوار فغابت عنا أخلاقيتنا، لنبدأ بأنفسنا،(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .صدق رب العرش العظيم)، قبل أن أغادر المنصة أدعو العمدة ورجالات القرية لتشكيل لجنة حكماء لمتابعة أمور القرية بشكل مستمر للتصدي للسلبيات

وترسيخ الإيجابيات، كلنا مسؤول ويجب أن يكون قادراً على مسئولياته، إن عرف كل منا مسئوليته تتذلل كل الصعاب مهما كانت صعوبتها، عودوا للحوار الأُسرِيِّ، أشركوا أولادكم بكل شيء ليتبصروا الأمور ويعرفوا كيفية التعامل معها، وجهوا النصح بشكل لين به مودة واحترام ، فيعود الكل إلى المضمار الحقيقي للحياة ويتحمل مسئولياته ، أرجو أن أكون قد أوصلت رسائلي، والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

ضج المكان بالتصفيق المتصاعد، صاح أحد الشباب.

– نشكرك أستاذنا على كلمتك التي أصابت كبد الحقيقة، ووضعت الأيدي على ما يعترينا من هواجس وتساؤلات، ونعدك بالعودة إلى نهج أسلافنا وتاريخنا، أيده الكثيرين بالهتاف المؤيد.

أخذ العمدة الكلمة.

– أظن بعد هذه الكلمة المستفيضة والشارحة لكل شيء، أن الكرة قد ألقيت بملعب الجميع، فعلينا أن نتكاتف من أجل أن نعيد أفكارنا وحياتنا إلى طريقها المستقيم، قبل أن نغادر نتعاهد على تحمل كل منا مسئوليته ودوره.

أَمَّن الكل على قوله، ولكن طالب البعض بعرض وجهات نظر أخرى ، تتطابق أغلبها مع قيل، طالت النقاشات التي نالت الموافقة والمعارضة أحياناً، بالنهاية اتفق الجميع على البدء من جديد، ولتكن بأنفسهم ، خرج الجميع يحمل بداخله رداءً جديدا من الحماسة، وكأن العصابة التي كانت تحجب البصر قد تمزقت بشكل تام، تعانق مع إخوته وأهله، أشار إلى (حسين) ابن العم أن يقترب منه، خاطبه.

– لدي علم أن لك مهمة غدا بالقاهرة، جهز أمورك لتأتى معي بعد ساعتين، صعب أن تسافر من هنا لتنهي مهمتك بموعدها.

شكره، وأخذ الطريق ليستعد هو وابنته للسفر، عيون إخوته بها تساؤلات، كيف عرف أن ابن العم لديه مهمة؟ وماهي هذه المهمة؟، لمح تساؤلاتهم، فوضع حدا لها.

– (حسين) كان قد كلمني تليفونيا، ومن بين الحديث علمت أن له مهمة هو وابنته (ثريا) بالقاهرة، ولكن لا علم لي بماهي؟ ولا يصح أن أسأل.

طوال الطريق إلى البيت كانت الحكايات عن كل ما يمرون به، من أصحاب الدور المؤسسين لها، وبعض الحكايات عن مواقف

تخصهم، عند الوصول إلى البيت، طلب منهم أن يسترخى قليلا، بعدها يتأهب للمغادرة، الزوجة وجدت نفسها وسط زوجات الإخوة وبناتهن، سمعت منهن حكايات بعضها تدفع بهن للقهقهات، وبعضها يدفع بالدموع إلى المآقى، نام بكامل الاستغراق، فلقد نال نصيبا وافيا من الدفء الصادق، طال نومه لأكثر من ساعة، استيقظ على همس زوجته تطلب منه الاستيقاظ استعدادا للسفر، ذهب للاغتسال ، اطمئن على حاجياته، ارتدى ملابسه، خرج ليجد الزوجة على أهبة الاستعداد، الإخوة جميعهم منتظرون بالبهو ، صافحهم وعانقهم، وجد (حسين) قادما بصحبة ابنته، أسرع الجميع بركوب السيارة، أشاروا بأيديهم مودعين الجميع، طوال الطريق لا حديث إلا عن القرية وتغيراتها وتحولاتها، والحكي عن بعض شخوص العائلة والعائلات الأخرى، مع بعض القفشات والنكات والمواقف التي تدفع بهم إلى الضحك بصفاء تام، عند الوصول كان الإرهاق باديا على الكل، فآثروا الخلود للنوم.

.. قبيل الفجر صحا (حسين)، جلس القرفصاء على السرير، أخذ يتلو آيات القرآن الكريم بذات طريقته التي تربى ونشأ عليها، الصوت الخافت الهادئ الذى يترافق مع التمايل يمنة ويسرة، مع

إغماض العينين إلى حد ما، وترك نفسه للسباحة في ملكوت الله، طقس اعتاده على مدار عمره منذ أن أدركه الوعى والتمييز بين الأشياء، يستغرق منه هذا ما يقارب الربع ساعة أو أكثر قليلاً، بعدها يتلو أذكار الصباح، ويختمها بالدعوات لأبيه وأمه والأهل والأقارب ممن ناداهم رب العالمين، ثم يدعو لأسرته ولنفسه ولكل الأحبة، شعر بحركة خارج الحجرة التي ينام بها مما ينبئ عن يقظة أهل البيت، أصدر صوتا عاليا لأحد ما بما يشبه السعال ليخبرهم بيقظته، ابنته تنام مع زوجة العم، آتاه طرق باب الحجرة، أذن للطارق بالدخول، تبادلا تحية الصباح، نهض مصاحبا له حتى يقوما بالوضوء، طلب من ابن العم أن يصليا بالمسجد الزينبيِّ، من سنوات طوال لم يصل به، وأيضا لتناول الإفطار بأحد المطاعم المنتشرة بالميدان، هو يريد تذكر أيام دراسته الجامعية، كان يهوى الذهاب للمناطق الشعبية، ذات الطبيعة العفوية غير المغلفة بأمور مصطنعة وبمكياجات تنفي صفة الطبيعة التي خلقها الله، ما أجمل أن تسير وسط بشر يشبهونك، بسطاء على سجيتهم، كان دوما يذهب إلى الحسين، عابدين، باب اللوق، باب الشعرية، شبرا، كل شبر يعرف أنه مازال يحمل بطياته الطيبة والنقاء، كان يحشر نفسه بين متناولي الإفطار على عربات الفول والطعمية وتحبيشاتها، وكثيرا

ما ذهب لتناول أطباق الكشري أبو دقه حراقة، ياألله مر الزمان وهو بذات العشق، وافقه (رضوان) مخبرا له أنه أيضاً يريد هذا كسرا لأمور صارت ناموسا حياتيا له، خرجا ليلحقا بالصلاة جماعة، المنظر رائع، نسيم الصباح الذى لم تلوثه مضخات ثاني أوكسيد الكربون الدائمة التصاعد من الكم الهائل من السيارات على تعدد نوعياتها، وكأن المهمة الأساسية لهذه السيارات إثبات تواجدها بهذه الملوثات، نسيم يداعب الوجوه، يذهب عنها وسن الليل، يعيد فتح المسام وإنعاش الأرواح والأفئدة، ما أجمل رؤية هذه الهرولات الصباحية من الجميع رجالا ونساء وشبابا وأطفالا يمسكون بأيدي الآباء يشاركونهم الهرولة، الكل يتسابق استجابة لنداء الله، الصدق الإيماني يشد صاحبه للسير بطريق الله، هرولا مثل الآخرين، تسابقا مع المتسابقين، السباق بحب الله غذاء للروح وإيقاظ للنفس، الوقوف كتفا بكتف، القدم تلامس القدم، رسائل أن هناك وحدة الإيمان، وحدة العقيدة، يتساوى الجميع بين يدي المولى، تختلف الأردية وتختلف الملامح وتختلف الشريحة المجتمعية ولكن تتوحد القلوب والعقول، أديا الصلاة، أخذ (حسين) يمعن النظر بصحن المسجد، هلل بصوت عال عندما لمح مجموعة تصنع دائرة، تتمايل وتهتز، والابتهالات و التهجدات تتصاعد، هرول بلا

أي إرادة، جلس بينهم، اندمج معهم كأنه يعرفهم من سنوات، نسى كل شيء، (رضوان) وقف دهشة لما يرى، الذكر وتمايل الأجساد يزداد، وبعض النهنهات وأصوات بكاء، وتساقط دموع يبلل الصدور، طال انتظاره، لم يكن هناك بد من الذهاب إليه لإخراجه من حالة الوجد الروحاني المهيمنة على الجميع، هم بمعزل تماماً عن كل شيء، لكزه على كتفه بهدوء مرات حتى انتبه، أفاق من جو الروحانيات، ألقى السلام على الحضور، تباطأ ذراع ابن العم، سارا جنبا إلى جنب بلا أي حديث، مازال يعيش بذات الحالة، سارا إلى أحد المطاعم التي تقدم الوجبة الشعبية الأولى لجموع الشعب، الفول والفلافل والحمص، جلسا يتناولان بهدوء، نظرات متبادلة تنبؤ عن أن المذاق راق لهم، انتهيا، ذهبا لمقهىً مجاور، الصمت يسود وكأن (حسين) مازال جالسا وسط المنشدين والذاكرين، بعد شرود طال به ألقى بسؤال مباغت.

- لماذا بغالبية المساجد، بالمدن أو القرى، تلمح أن الغالبية من روداها ينتمون إلى طبقة الكادحين، الصنايعية والحرفيين، وكل من يجرى بالمشوار على أكل عيشه اليومي، أغلبهم من أصحاب العروق النافرة والأيدي المعروقة، أصحاب العرق الغزير، هل صار العرق دليلا أكيدا ومقياسا يتعرف به على الشقاء؟، لا تجد إلا نسبة لا تذكر

لأصحاب الثراء والواجهة الاجتماعية، هذا السؤال لا يغادرني على الإطلاق، هل الدين لفئة دون أخرى؟، هل صحيح العبارة التي تتردد دائما أن ربك رب الغلابة؟، أنا من ناحيتي لا أحبذ هذه المقولة، الله رب للجميع ؛ولكنه يصطفي من عباده المؤمنين وهذه تعنى المؤمن الحق الصادق مع ذاته ومع الله، الدين رسوخ ويقين وليس ثيابا أو مسوحا نرتديها حسب حاجتنا إليها، نحن نقصر الدين على أمور محددة، مؤكد هذا تفسير خاطئ، لأن الدين للجميع ولكل الأوقات وكل المواقف والله رب الكل دون استثناء أو تفضيل لأحد على آخر، حقيقة هذا أمر يثير الدهشة، الفقراء والكادحون يلوذون إلى الله دوما، رغم شظف عيشهم إلا أنهم يتمتعون بفضيلة لا توجد بالكثير من الطبقات المخملية، الحمد والشكر والرضا بما هو مقسوم لهم، هناك أمور تظل بلا تفسيرات، آسف أخذتك إلى متاهة تساؤلاتي التي أصنفها أنا على أنها لا يجب أن تثار، لأنها تذهب بنا إلى الجدلية المتزايدة، فمن الأفضل أن تظل حبيسة الصدور، هيا بنا إلى البيت، لنستعد للذهاب إلى الطب الشرعي، بالمناسبة هل أكدت على المحامي ليكون بصحبتنا؟

– لا تقلق كلمته أمس قبل حضوري للبلد وأكدت عليه، الأستاذ (فكري الخياط) رجل دقيق بمواعيده، ومنظم جدا، هيا بنا.

وجدا الزوجة والابنة جالستان يتناولان أطراف الحديث الضاحك، ألقيا التحية عليهما، جلسوا جميعا يتحدثون بأمور شتى، عندما اقتربت الساعة من التاسعة، نهضوا لتبديل ثيابهم استعدادا لمهمتهم، عند باب الطب الشرعي، وجدوا المحامي بانتظارهم، أخذوا الصعود إلى السلم، ما إن وصلوا إلى مدخل الطب الشرعي حتى فوجئوا بانهيار الابنة بالبكاء الحار المصحوب بنشيج، أسرعوا إليها أحاطوها تماما، أخذها الأب بصدره يربت عليها، يقبل رأسها، أسرعت إليها إحدى الطبيبات، أمسكت بيدها وسارت بها إلى إحدى الحجرات، وقفت حائلا بين دخولهم.

– دعونا وحدنا قليلا، لا قلق كل شيء سيكون على ما يرام.

أجلستها وذهبت سريعا باتجاه ثلاجة صغيرة بأحد الأركان، أتت لها بمشروب يهدئ من روعها، أخذت تتحدث إليها حديث الأم لابنتها.

– لماذا هذا؟ لا داعي لكل هذا، الأمر بسيط، نحمد الله أن لم يتطور للأسوأ، هناك من يتعرضن للأبشع، نحمد الله أنه غفل عن فض عذريتك بالطرق البدائية المعتادة ببلادنا وبأساليب غير أخلاقية، يكفيك أنك مازلتِ كما أنت كما سنرى ونثبت بأمر الله، اهدئي

تماما، ليس هناك ما يخيفك، واثقة أنا من أنك بخير، الأمر لن يستغرق وقتا، أنا من سيناظرك، فلا خجل، نحن نساء مثل بعض.

أخذت تحدثها بشؤون متعددة، حتى أنهت جزعها، خرجت الطبيبة إليهم لطمأنتهم على أنها أصبحت بخير، حمدوا الله، عاودت للدخول، أخذت تحدثها وتسألها بأمور شتى حتى تعيد تهيئتها نفسيا، نصف ساعة وأقل كانت قد قامت بتوقيع الكشف الطبي عليها، انتهت عانقتها طمأنتها تماما.

– أنت فعلا لم يقربك أحد لا من قريب ولا من بعيد، لا تهتمي بأي كلام، عيشي حياتك كأنك تبدئين من جديد، أيام ويكون التقرير جاهزا ومعتمدا.

خرجت إليهم إنسانة تختلف تماما عما كانت عليه من ساعة، وجهها عادت له نضارته، البسمة مرسومة بكل التناسق على الشفاه، أبلغتهم بما قالته الدكتورة، تبادلوا التصافح الحار والشد على الأيدي، أبلغهم المحامي أنه سيتابع الأمر، ويحضر التقرير ويقدمه للأستاذ (رضوان) إلا إذا أرادوا الحضور للحصول على التقرير، تقدموا بالشكر له، وغادروا إلى السيارة، بطريق العودة، خاطبها (رضوان).

– اليوم اعتبريه ميلاد جديد لك، إنسي ما كان، كأنه لم يكن، على ما سمعت من أبيكِ أنك تحبين العلم، فلماذا لا تواصلي المسار العلمي، تقدمي للدراسات العليا، وثقى من أن الله يعوضك بالأفضل، العلم هو العلاج لك، انغمسي فيه وأعلني عن ذاتك، ونحن من خلفك ندعمك، أود أن أسمع عنك ما يسرنا دوما.

صعدوا الشقة، استقبلتهم (ناهد) بكل البشاشة، احتضنتها وأخذت تنهال عليها تقبيلا.

– والله...والله! أعدتِ لي أجمل إحساس، إحساس الأم، صحيح أنى أم ولكن أنت أيقظتِ هذا الإحساس، لابد أن أجد منك اتصالات دائمة، وأيضا زيارات كلما سنحت الفرصة، يا حاج (حسين) لا تحرمنا من هذه الياسمينة أرجوك.

تبسم الجميع، لحظات وكانوا قد أعدوا حاجياتهم، وغادر الجميع إلى حيث محطة القطار.

..٧..

..سارت الأيام كسيرها المعتاد، الخريطة اليومية المرسومة بعناية فائقة الجودة ودقة متناهية من رب العباد، هو عدو للنظام الممل الروتيني، كان طريقه الأوحد للخروج من هذا الشعور، هو أن ينصهر بالعمل وأن يتفانى به، أن يستغرق دوما بالقراءة في المستحدث بعلم المحاسبة والماليات والاقتصاديات، خاصة علم الاقتصاد الذى يتغير بين اللحظة والأخرى، مؤشراته أكثر المؤشرات بالعالم صعودا وهبوطا، لا يمكن بحال التنبؤ باللحظة القادمة، علم شديد المراوغة، هو مولع به، رغم تعقيداته، كثيراً ما يخط تصورات جديدة من الممكن أن تضيف للعمل وتغير من آلياته، لا يقدم على عرضها على المستويات الأعلى دون دراساتها عشرات المرات، رؤساؤه كانت أبوابهم مفتوحة له، يعرفون مدى تفانيه، ومدى قدرته على تقديم مقترحات جديدة تقفز بالعمل إلى محطات أكثر نحو التميز، صحيح برنامجه اليومي يكاد يكون شبه الخط الواحد، وللأمانة كان قنوعا بهذا وإن كان لابد له من الولوج إلى طرق تشعره بالتجدد، اللحظات التي يشرد لها بعيدا عن العمل، كان مولعا بالقراءة لكتاب متعددي الجنسيات، لكى تعرف شعبا عليك بقراءة أفكاره، هو دوما حريص على الوقوف على مسافة

ليست بعيدة عن مستحدثات الحياة الثقافية، الثقافة الباب الواسع لمعرفة كيف تدار الأمور، ثقافته وقراءته المتنوعة جعلت منه قاسما مشتركا بكل مؤتمرات وفاعليات الوزارة، عرف عنه طلاقة لسانه ورصانة عباراته، وترتيب أفكارهم، كانت الوظائف العليا تسعى إليه، لم يسع يوما إليها، عرضوا عليه مرات عديدة مناصب قيادية تقربه من أصحاب القرار الأول بالشأن الاقتصادي بالوطن؛ ولكنه رفض، رغم تمكنه من أدواته وقدرته إلا أنه لا يحب أن يرتدى ثياب الرجل الأول، من داخله يبتسم كثيراً ما يكون الظل صاحب تأثير أقوى من الأصل، الظل هو الصورة الحقيقية والسيكولوجية للأصل، وسبحان الخالق كل ظل يعرف أصله، إلا من اتبع سبيل الشيطان، وتمرد على مشيئة الرب، وأخذ طريقاً مغايرا لما يريده الله، الظل الطيب للرجل الطيب، والشرير لمن يشبهه، وهو يرتضى بهذا، مهما كان موقعه له الوجود القوي، كثيرا ما كان يكتب القرارات ذات الصدى التي يعلنها المسؤول، والتي يعلو التصفيق والهتاف لها، ليس معنى هذا أنه يتنصل من المسئولية، لا هو يواجه بشجاعة، لا يتورع عن مواجهة أصحاب الأخطاء وجها لوجه، ربما يصل الأمر به بتصعيد الأمور دون مبالاة لأحد، لديه طقوس لم تتغير بمرور الزمن، الذهاب للمسرح كل شهر، حضر

مسرحيات العمالقة، (سناء جميل، سميحة ايوب، الأخوين حمدي وعبد الله غيث، سعد أردش، كرم مطاوع)، والكثيرين من أساطين هذا الفن الراقي، المسرح مرآة الشعوب، يجسد حياتها وإشكالياتها من كل الزوايا، كثيراً ما كان يذهب لبعض معارض الفن التشكيلي، هو يرى اللوحات تجسيد لأحاسيس وتفاعلات صاحبها مع واقعه ومع نظرته للحياة، وشرح واضح لسيكولوجيته الإنسانية والإبداعية ، والحفلات الأوبرالية التي تضخ الكثير والكثير من التجدد الروحي والشعوري داخله، كان حريصا أثناء حياة (ثومة) على الجلوس هو والزوجة وأولاده حينما كانوا أطفالا بالشرفة، لسماع حفلاتها الشهرية، كان من البداية يرغب بتربية الأولاد على رقي الذوق، وآداب السلوك بوجه عام، ونجح حمدا لله في هذا، يعود من عمله بتوقيت شبه محدد، اللهم بالحالات الطارئة بالعمل، يلقى بحكاياته بحجرها، يشركها بتفاصيله اليومية، إن حدث يوماً وأصابه نوع من ضيق الصدر، يسرع إلى قريته، يتبع بهذا إسوة بالأستاذ الإمام (محمد عبده) عندما يولى وجهه اتجاه مسقط رأسه ليتوه بوجعه وضيقه بين صدور أهله وأقاربه، هكذا كانت بوصلته الحياتية، منذ أن تطأ قدماه تراب قريته، لا يأخذ وقتا للراحة، يضع حقيبته ويسرع إلى الشوارع والحواري، يحب أن يتلمس من سيره

رائحة قريته والمتغير بها، يطرق أبواب أهله وأقاربه وأصدقاءه، يصافحهم بحرارة، يستقبل رسائل الأيدي، اللمسات رسائل ود ومحبة وشوق ودعوات بالخير متبادلة بين الطرفين، بعد العشاء يذهب من فوره مسرعا بل مهرولا إلى حيث بيت (مغاوري الحافي)، أهل القرية أطلقوا هذه الكناية عليه ؛لأنه لم يرتدِ حذاءً بعمره، عندما يسئل عن السبب يقول ضاحكا، لا أريد أن يكون بيني وبين تراب بلدي حاجز ! ملمس التراب يحدثني حديث الشوق والحنين، دوما له تعبيرات لا تأتى بخاطر أو بال أحد، حتى من حملة الشهادات وأهل العلم، البيت المجاور لمقابر القرية الرئيسية، القرية كلما اتسعت، كلما أقام أهلها مقابر جديدة بأحد أركانها، كان بيته بالبداية لا يجاوره سوى أربع أو خمس مقابر، هذا من أكثر من خمسة عقود زمنية أو أكثر، أما اليوم فقد أحاطت البيوت والمقابر بأشكال متباينة به، كل منهم ارتمى بأحضان الآخر، الموتى ونس الأحياء، والأحياء يلبين نداء الموتى بأن عليهم رعايتهم أمواتا مثلما كانوا وهم أحياء، (مغاوري) لم يتغير، نفس الهيئة نفس الملامح، نفس طريقة الكلام وحركات اليدين، وكأن الزمن لم يستدل على عنوانه مطلقا، يخرج من بيته قبيل الفجر، يهرول إلى حيث تقوده قدماه إلى مسجد من مساجد القرية، ينظف

المسجد ودورات مياهه، كثيرا ما يأتي معه بأعواد البخور يشعلها، ويوزعها على أرجاء المسجد، يصلى كثيرا من الركعات قبل الصلاة، يصلى بخشوع تام، يقول عن هذا، لابد من التفرغ التام للصلاة، لا يأخذك الفكر نحو أي شيء، الشرود بالصلاة يجعلها بلا اكتمال، رغم أُمِّيَتِه إلا أنَّه يشعرك بأنه فيلسوف عفوي أنجبته الحياة وصقلته، كان صاحب بصيرة تدهش الجميع، يشخص أمراض النبات، الحيوان، يستدعونه كثيرا لرسم الحدود بالأراضي الزراعية، رغم وجود دلال مساحة هذه من ضمن مهامه، ولكنه يستدعى لأنه لا يحيد عن الشرع التام، لا يجامل ولا يحابى، البعض يطلق عليه(مغاوري الحقاني)، تجده في كل ربوع القرية، وكأن له عددا من النسخ موزع بعدالة على القرية، كان دوما بمقدمة أي حدث، بسرادقات الأفراح والمأتم تجده أول من يمهد المكان ويرشه بالماء، تجده قبيل المغيب، قبل وصول الكهرباء للقرية، يسير خلف المشعلاتي الذى ينظف ويشعل الفوانيس المتواجدة بالقرية، يحمل السلم يضعه بحرفية تامه أسفل كل فانوس، لم يطلب أجراً مطلقا، الأجر يصله إلى البيت، ما إن يدلف إلى بيته، يجد خيرات الله، موزعة جيدا، كل صنف على حده، كان دوما عفيا، لم يره مرة أو يسمع أنه توعك يوماً أو أصيب بإعياء، سأله يوماً عن السر،

ضحك وهو يجيب، الطبيعة يا بُنَيَّ، الطبيعة هي العلاج الناجع، دعك من العقاقير التي لا نعرف مكوناتها الحقيقية، إن عالجت ألما معيناً فإنها تفسد أموراً أخرى، أنا صباحي كوب كبير من الماء المغلي أو اللبن الدافئ مضاف إليه مقدار محسوب على قدر الكوب من العسل والليمون، أتجرعه يشعرني كأنني أكلت ديكا روميا كبيرا، ويعقب هذا بضحكات يرتج له كامل الجسد، الممتلئ المتناسق دون انبعاجات، متناسب مع طوله الذى ينتمى إلى فصيلة العماليق، كان يحب الجلوس إليه ليسمع ويرى تصويره للأحداث بالقرية، كلماته متناسقة مع حركات يديه وجسده، حين الحكي، كان يحكى تفاصيل التفاصيل لا تفوته شاردة أو واردة، يتحدث بكل شيء ولكنه أبدا لا يخوض بالأعراض أو النميمة، يقول بهذا الشأن، كن سترا لأخيك يكون الله سترك الدائم، له أسرة صغيرة، زوجة ضريرة يقال أنه تزوجها رحمة بها، أنجب ولدين وابنه، الولدان أخذتهم قدماهم لغربة دائمة، أحدهم بالعراق والآخر بالأردن، يعملان بكار المعمار، يأتيان على فترات متباعدة، كثيراً وحدهم، قليلاً مع الأحفاد، يأتيان ببعض الملابس والأغطية الخاصة بالنوم، يقضيان أياماً ويعودان للغياب، الابنة تزوجت بالقرية، هي من تقوم برعايتهم وبأعمال المنزل، دوما يردد في كل مجلس، من لم

ينجب بنات كأنه لم ينجب، هن حاملات الحنان الدائم المتزايد مع الأيام، البنات ملك لأسرهن العائلية الأساسية، أما الشباب فملك لزوجاتهن، يردف هذا بقهقهات عالية، يجلس إليه لا يدرى بالزمن، لا يريد تركه ولكنه بالنهاية يغادر أرديته ممتلئة بألوان متعددة من السعادة والحكمة الحياتية الخالية من أي مقعرات أو مضاف إليها بهارات غير مناسبة لها، عفوية مطلقة، دوما نحن بحاجة للبساطة، البساطة نسائم تجدد خلايا الروح.

..٨..

..كان منهمكا بين كم كبير من الأوراق، ما بين دراسات لخطط الوزارة بالمرحلة القادمة، وتقارير عن ما تم بفترات سابقة، يمسك بأقلامه الملونة، يكتب تأشيراته وتوجهاته، يقطع عليه عمله عشرات التليفونات، منها من يسترشد به بشأن ما، ومنهم من يخبره أن هناك اجتماعا خلال ساعات، وعليه أن يعد تقارير معينة، والبعض يطلب اللقاء معه، دوما إجاباته مقتضبه، لا يعطى مساحات لحديث مطول خارج إطار العمل، مؤمن تماماً أن لكل أمر وقته، اليوم جدول الأعمال ملئ بالكثير، لا يعرف متى سينتهي كل هذا الكم من الأعمال، الله المعين، كل حين يدخل عليه (مرتضى) حاملا مشروبا، وسط كل هذه الانشغالات جاءه رنين الهاتف، نظر للرقم، ذات الرقم الدولي الخاص ب(لوكا)، فتح الخط، أتاه الصوت صاخبا طريقته التي يبدو أنها لم تتغير.

– (رضوان) أخبارك، لعلك بخير، هل رتبت أمورك على الإجازة، أنا قادم نهاية الأسبوع القادم، وسيلحق بي (عبد الله التحيوي) بعد يومين، سأرسل لك موعد وصول الطائرة إلى مطار القاهرة، ورقم الرحلة، أرجو أن تكون أول من يستقبلني بعد الغياب الطويل، كم أنا شغوف لهذا اللقاء.

– مؤكد سوف أكون بالانتظار وأنا مثلك مشتاق لكم، زمنا طويلا باعد بيننا، نحمد الله على تجميعه لنا، لنستعيد ما تسرب من بين أيدينا ومن أعمارنا، تحياتي، سلام.

انتهي اليوم بشكل هادئ رغم كم العمل الكبير الذى كان ملقى على كاهله، عند الساعة الخامسة انصرف، الفكر أخذه لترتيبات استقبال (لوكا)، لابد من استضافته أول الأيام على الأقل بشقته، لابد من إعداد "بروجرام/برنامج" يناسب زيارته بعد غياب عقود، كل شيء تغير، لابد من الاحتفاء به وبزوجته، حسبما فهم أنها الزيارة الأولى لها لمصر، ولكنه بالنهاية أرجأ هذا لحين معرفة توقيت وصوله، وبعد النقاش مع زوجته، للنساء رؤية مميزة بهذا الأمر، لهم لمساتهم التي تعطى الحدث رونقا مميزا، دخل إلى شقته مرهق تماما من جراء هذا اليوم الشاق من العمل، طلب من زوجته إرجاء تناول الطعام لحين أخذ حمام دافئ يزيل به آثار هذا اليوم، ثم الاسترخاء قليلا لتهدئة جسده لبعض الوقت، وافقته بلا جدال، أقبلت عليه ربتت عليه مرات، متمنية له الصحة والعافية، ترك حقيبته التي تحمل بطياتها بعض الملفات التي تحتاج لدراسة متأنية، عادته أن الملفات الشائكة والتي تحتاج قرارات حاسمة ومؤثرة إيجابيا يأتي بها إلى المنزل، يدرسها بهدوء وبعيداً عن أي شيء يقطع

حبال أفكاره أو يشتتها، أسرع بالدخول إلى الحمام، يعشق الاستحمام بالماء الساخن لحد ما، يعشق أن يغلف جسده بالبخار، يطيل بحمامه، أحياناً يداعب المياه، يمد كفيه يملؤهم ماء ويقذف وجهه به، ربما يرفع عقيرته بالغناء، وربما يضحك بصوت عال، الضحكة تصل إلى مسامع الزوجة، التي تبتسم وتضرب كفا بكف، متمتمة، ستظل دوما طفلا كبيرا ! هو بالبيت يخلع كل ثياب الجدية المتناهية التي يرتديها خارج جدران البيت، للبيت طقوسه الخاصة، خرج منتشيا مرتديا البُرْنُس، أسرع بالدخول إلى حجرته، هو يخشى جداً الإصابة بنوبة برد، ألقى بنفسه على الفراش، تدثر بغطاء خفيف، لحظات وذهب بسبات عميق، تقف على باب الحجرة تبتسم، كم أنت رقيق أيها الزوج الرائع.

بعد ما يقرب من ساعتين استيقظ، أخذ ينشط جسده ببعض الحركات الرياضية، قفز بنفسه وأسرع للاغتسال وصلاة ما فاته من صلوات أثناء نومه، أقبل على زوجته التي تجلس بالشرفة، تمسك بكتاب، هي عاشقة للقراءة تبحث دائما عن الرواية، تعشق كتابات جيل الستينيات، هذا الجيل الذى كان له دور بارز في الثقافة المصرية والعربية، تهوى قراءة كل كتابات (إحسان عبد القدوس) هذا الكاتب الذى كتب عن المرأة واستطاع كشف أغوارها بشكل كبير،

(ويوسف السباعي ، وإدريس ومحفوظ) وغيرهم ممن ينتمون إلى هذا الجيل، الجيل الذى مازال حيا في عقول وضمائر الأجيال التي عاصرتهم وما بعدها بعدة أجيال، كانوا يكتبون الصدق ويكتبون الواقع ولأنفسهم وللقراء ما يخاطب عقولهم وأحاسيسهم، لم تنتبه لدخوله، مرر يده على شعرها، مال عليها وقبل الرأس، ابتسمت له ونهضت قائلة.

– أعد لك العشاء نتناوله سويا، أنا أنتظرك دوما، أقل من عشر دقائق يكون العشاء جاهزا.

الدقائق مرت وهو شارد في أحداث اليوم، هو يحب مراجعة أيامه، يحب أن يعرف كيف كانت خطواته، يصحح بعضا من أمور يرى أنه عالجها بشيء من العجلة، مراجعة النفس ضرورة حتى لا يتمادى في السير بطريق كله متعرجات، أفاق من شروده على الصوت يناديه للحضور، دخل إلى حيث مائدة الطعام، أصابه الذهول، الطعام يحيط به أضواء شموع متناثرة، إضاءات خافته، موسيقى أغنية،(ألف ليلة وليلة) تصدح من الكاسيت، علت البسمات قسماته، أمسك بيدها أجلسها، نظر إليها، حدثها بصوت هادئ.

– كل يوم يمر يؤكد لي أن الله كافأني بك، ما من يوم يمر إلا وتشعريننى بأن كل شيء متجدد، ربت على يدها وبدأ بتناول الطعام

وهما يتبادلان النظرات والبسمات ذات الرسائل، انتهيا سبقها إلى الشرفة، لحظات وأقبلت عليه تحمل مشروبات، جلست مواجهة له، سألها.

- هل تحدث إليك الأولاد والأحفاد اليوم؟

أجابته بالنفي، طالبها أن تأتى بجهاز "اللابتوب" ليتصلا بهما واحدا بعد الآخر صوتا وصورة، الاثنان بباريس ، توأم الفارق بينهم دقائق، رغم أنهما توأم وكما يقولون إن التوائم تتشابه بالكثير من الصفات المشتركة، إلا (إسلام وطارق) البون شاسع بينهم، قد يتشابهان في الكثير من الملامح، إلا أن الطباع مختلفة تماما، (إسلام) عملي جدا منغمس بأبحاثه ودراساته التي لا تنتهي، يكاد طول الوقت يتحدث لغة واحدة، لغة العلم حتى أن زوجته شكت يوما لأمه أنه ممكن أن يقطع حميمته حين يتذكر أو يطرأ بخاطره فكرة علمية جديدة !، حتى مشاعره مغلفه أو لنقل مغموسة بلغة العلم الجامدة كثيرا.

لا يفكر إلا بخطوات علمه وعمله، وبعدها تتساوى عنده كل الأمور، والآخر منفتح على الحياة، ولكن بشكل متوازن، مرتب لكل أمر حقه من الاهتمام، لا يطغى أمر على آخر، هما مثال حي لتغيير مفهوم أن التوائم تتشابه بكل شيء، أتت "باللابتوب" قائلة.

- لنبدأ بالأكبر.

داعبت أصابعها الجهاز، لحظات وقامت بفتح اتصال صوتي ومرئي مع الابن، جملتها الأولى المعتادة.

- قبل أي شيء اتكلم مع حبيبتي (هنا، جنا، والعكروت الصغير (مهند) هم لهم الأولوية، أنتم أخذتم حقكم، وهم لهم حقهم.

وتعلو ضحكاتها وهي تتحدث مع الصغار، تداعبهم بالإشارات وترسل القبلات، الصغار يبادلنها نفس الحال، له حظ قليل من الحديث معهم، هي تستولى على كل الوقت، ومثلما فعلت مع الابن الأول والأكبر تنتقل إلى الآخر، وأولاده (مازن، زياد، ناهد الصغيرة)، تحكى لهم كل تفصيلات الأيام الماضية، لا تنس شاردة ولا واردة، تطمئن عليهم وتدعو لهم، تودعهم ملوحة بيديها، دامعة العينين، بل ربما تجهش بالبكاء، لا يجد بدا من إبداء الدهشة والربت عليها، أخذ وقتا لتهدئتها بعد التواصل مع الأبناء والأحفاد، تظل لدقائق متأثرة بهذا، أخرجها مما هي عليه بتذكريها بموقف صادفاه ببداية حياتهم الزوجية، عندما أتت (منال) ابنة أحد أخوالها ثالث يوم الزفاف، كانت بعمر العاشرة، رفضت كل محاولات أبيها وأمها وإخوتها بالمغادرة، أخذت تبكى وترفس الأرض بقدميها، وفشلت كل المحاولات معها، حاولت الأم ضربها، وقفت هي حائلا بين

هذا، وأصرت على تركها لديهم هذه الليلة، ونامت بأحضانها ونام هو بالصالة، ضحكا كثيرا وهما يتذكران هذا، داعبها باليوم التالي هامسا لها.

- من أولها هروب، الحساب يجمع.

ظلت دوما تداعبه بهذا دوما حتى أن (منال) للآن تخجل حين زياراتهم رغم اقترابها من الأربعين من العمر، ورغم أن أولادها صاروا أطول قامة منها، كلما رأى أنها مقبلة على فقرة شجن وبكاء وتقلب قسمات الوجه يذكرها به فيعود صفاء ملامحها وتعود إشراقة وجهها، جلس يحكى لها عن (لوكا) و (عبد الله التحيوي)، كانا قرناء بداياته الحياتية، أطلق عليهم أهل القرية مسمى (ثلاثي أضواء القرية) أسوة بفرقة (ثلاثي أضواء المسرح)، كانوا لا يفترقون إلا عند النوم وأحيانا كانوا ينامون عند أحدهم، حتى أنهم اتفقا على توحيد ملابسهم وأحذيتهم، كانت مشاغباتهم لطيفة، كانوا يفعلون بعض الأشياء الصغيرة نوعا من المشاكسات، ولكن بأسلوب لا يجعلهم يتعرضون للعقاب أو التوبيخ، فأهاليهم ناس لهم قيمة ولا يقبلون التعرض لأى إهانات لفظية أو جسدية لأي من أولادهم، كانت مشاغباتهم تثير الضحكات والمرح، مثل طرق بعض الأبواب والنوافذ طرقا شديداً والهرولة عدوا بعيدا، مثل

خطف طواقي من على رؤوس بعض الشباب، مثل القفز ببعض الحدائق وتناول ثمارها بكل نهم ثم القيام بكتابة اسم صاحب الحديقة بقشور ما تناولونه، أشياء كثيرة من هذا القبيل، حتى باللعب يكونون ضمن فريق واحد، سمعت عن (عبد الله التحيوي) من خلال مكالماته الهاتفية التي كان لها موعد محدد، الخميس الأخير من كل شهر عند العاشرة مساء، يتحدث ما لا يقل عن عشر دقائق، خلالها تعلو الضحكات، يتلون وجه زوجها بكل ألوان السعادة، تتورد وجنتاه وتتلون باللون القرمزي، أما (لوكا) سمعت عنه مرات لا تعد على أصابع اليد الواحدة، بهذه الليلة جلس يحكى لها بعض الملامح عنه، كان ابنا وحيدا (لديموس أنطونيوس)، رجل يوناني حسبما سمع من الحكي عنه، أنه أتى القرية بصحبه أحد أبنائها كان يعمل معه بالإسكندرية اسمه (محمود القفاص)، كان حينها شابا يافعا تجاوز الثلاثين بسنوات قليلة، كان وحيدا اكترى شقة صغيرة بها حجرة لها باب على الشارع بأحد بيوتات القرية، جعل منه محلا للبقالة التي تناسب مجتمع القرية، الشاي والسكر والصابون والكيروسين وبعض صنوف البقوليات، والسجائر والدخان والمعسل وبعض أصناف حلوى الأطفال، لم يعرف أحدا السبب لمجيئه ولماذا اختار هذه القرية، إلا

بعد سنوات طوال من تواجده بها، عندما كان جالسا بين مجموعة من القرية، صارت بينهم ألفة وصداقة يشهد لها، حكى أنه كان زوجا لامرأة يونانية أيضاً، تزوجها عن حب، عاشا سويا ست سنوات كلها فوق مستوى السعادة، لم ينجب منها ولم ينغص هذا عليه حياته، كان لا يتصور أبدا أن يأتي يوم ويجد نفسه دونها، رغم كل السعادة التي عاشها، إلا أنه على فترات كان صدره ينقبض، يشعر بغصة بحلقه، فسرها ربما خشية أن يفقد هذه السعادة، الإنسان بطبعه حتى بلحظات سعادته لابد وأن يقرنها بخوف، ولكن ما كان يشعره حدث، ذات صباح صحا مندهشا فهو إعتاد على أنها من توقظه بمداعبة رقيقة من يديها، وجدها نائمة بجواره أو هكذا خيل إليه، وجهها غاية بالبهاء، ترتسم عليه إشراقة شمس، أخذ يربت عليها بحنو ويناديها بصوت خافت، الملائكة لا تصحو بضجيج، مرات ومرات يناديها لا حراك، يهزها هزات لا جدوى، أيقن أنها ودعت الحياة، أخذ يصرخ بهستيريا ويلطم وجهه، فتح الباب وأخذ يبكى ويصرخ، خرج الجيران من شققهم، لم يجب على تساؤلاتهم، اكتفي بالإشارة إلى الداخل، أسرع النساء إليها تيقن من وفاتها، الرجال ساعدوه بمراسم الدفن من إجراءات ومستندات، بعدها رفض دخول شقته مرددا.

- كيف أعيش بها بعد الآن؟!، لا أستطيع، أكثر من ليلة وهو جالس أمام بابها، ينام على هذا الحال، (محمود القفاص) صديقه المقرب افتقده وطال غيابه لأسبوع بلا معرفة سبب، في النهاية قرر الذهاب إليه، وجده على حال يرثى لها، وجه شديد الشحوب، الوجه غارت وجنتاه وبرزت عظامه، سمع القصة من بعض الجيران، فهو يرفض الكلام، مكتفياً بالبكاء والصراخ، ضمه بصدره أخذا بالربت عليه، وترديد بعض آيات القرآن الكري، ليس مهما أنها لا تخص دينه، القرآن الكريم طبيب كل الأديان، لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، وكذلك بالأديان، استطاع بعد وقت تهدئته، جره مع أحد الجيران إلى الشقة، ذهبوا به إلى الحمام ، وهو بحالة شجن شديد، طلب (محمود) من الجيران أن يتركوه له وشكرهم، أدخله الحمام، قام بنزع ثيابه، فتح المياه على أقصى سعتها عليه باردة، كان يجهش بالبكاء تحت الماء ويرتجف، أخرجه وأتى بما استطاع أن يحضره من ملابس من دولابه، ألبسه كان يفعل وكأن (ديموس)ابنا له، أدخله الفراش وألقى عليه بأغطية صوفية، الجو كان ببدايات الشتاء، عاود قراءة القرآن، يمرر يده على جبينه، حتى راح بسبات عميق، ذهب من فوره للخروج لإحضار طعام ومشروبات لهم، من الواضح أنه لم يأكل من أيام، جلس بجواره

حزينا لملامح الأسى المرتسمة خطوطاً غائرة بملامح صديقه، لم يرد أن يوقظه، النوم رحلة لتذكر أشياء والهروب من أشياء أخرى، طال نومه لساعات، استيقظ يتجول بعينيه بأرجاء الغرفة، حاول النهوض والبكاء، أخذه بصدره يدعوه للهدوء، بعد جهد أوقفه وأخذ بيده ليغسل النعاس عن وجهه، أجلسه على مائدة الطعام الصغيرة، فتح لفافات الطعام، أبى كثيرا، أخذ يطعمه بيده، تناولا أكواب الشاي، أخذ يحدثه أن ما حدث أمر حتمي، لكل إنسان ساعته، وأن عليه أن يتقبل قدر الله، فلا نملك من أنفسنا شيئا، كان يستمع إليه والدموع تغسل وجهه، بعد جهد قال (ديموس).

- لا أعترض ولا أنكر قدريات الله، ولكنه الفراق المباغت بلا مقدمات، لا مرض ولا توجعات، الفجائيات مؤلمة للغاية، بل قاتلة، أنا لا أصدق ما حدث، كيف أعيش من غيرها، كل شيء هنا وبكل الشوارع سوف يذكرني بها، لا تستغرب إن كنت أفكر بالمغادرة، لا أعرف إلى أين؟ ربما أفكر بالعودة إلى اليونان، بلدي التي لم أعرفها مطلقا، هنا ولدت وتربيت وعشت، وربما أغادر لمكان آخر بعيد، لا أعرف أين يكون؟، وعاود الشرود، هو حي وليس حيا، طرأت الفكرة فجأة برأس (محمود) ليسافرا معا إلى قريته لبضعة أيام، يخرجه من هذا الجو المأساوي، وبعدها لتكن

مشيئة الله، أخذ وقتا لإقناعه ولكنه بالنهاية وافقه، اتفقا على الذهاب باليوم التالي بعد أخذ إجازة من عملهم بشركة الشحن والتفريغ التي يعملان بها داخل الميناء، صاحب العمل كان إنساناً يقدر العاملين لديه، وافق ومنحه مبلغا ماليا يساعدهم في أيامهم القادمة، ذهبا إلى القرية، أقام معه أياما، كان يتجول معه بالقرية، بحقولها، بشوارعها، يذهب به إلى مجالس السمر مع الأصدقاء، لا يتكلم مجرد مستمع، عادت له بعض الحيوية، وعاد جسده إلى شكله الطبيعي، كان متوسط القامة، متناسق، وصاحب بشرة شديدة البياض الممتلئة دموية أو كما يقولون بالأرياف (وجهه يبك دما) كناية عن شدة دموية الوجه، انتهت أيام الإجازة، فوجئ (محمود) به يطلب منه أن يدبر له إقامة دائمة، "هو ارتاح للقرية وأهلها" ، لا يريد العودة للعمل وللعيش بالإسكندرية، أخبره أن لديه بعض المال ويود أن يقيم عملا تجاريا هنا، تناقشا حول النشاط، توافقا على بقالة تناسب احتياجات القرية، على الفور أسرع باستئجار منزل صغير به حجرتان إحداهما تطل على الشارع الرئيسي تصلح لمشروعه، وحجرة داخلية لنومه وما يلزم من أمور المعيشة، دبرا كل ما يلزم من صنوف البقالة، وأرجأ البعض لحين عودته من الإسكندرية لتسوية بعض المتعلقات، عادا إلى الإسكندرية، ذهب

إلى صاحب العقار الذى يقطن إحدى شققه، أعطاه إيجار شهرين واعدا إياه أن يرسل الإيجار قبل موعده، أصر على عدم تركها، فهي مرتع حياته على مدار عقود، ولد بها وعاش مع أبيه وأمه وأخته (ماريكا) التي ما إن بلغت العشرين حتى أخذت قرارا بالعودة إلى اليونان حيث أعمامها وأخوالها، وبعد عودتها بأقل من عام، جاءت رسالة تخبرهم أنها تزوجت من صديق لها عرفته، ومن لحظتها كانت تكتفي بالرسائل وبعض الصور لها ولزوجها وأولادها، وبعد سنوات انقطعت أخبارها تماما، حاول الأب معرفة ماذا حدث لها من خلال أقاربه ولكن جاءت الإجابة موحدة من الجميع، لقد غادرت اليونان دون أن تخبر أحدا ولم يعرفوا إلى أين ذهبت، وطال غيابها حتى مات الأب وتلته الأم دون معرفة أين مستقر ابنتهم، حتى أنها لم تحضر جنازات الأب والأم، وربما لا تعرف أنهم ماتوا، عاش كل عمره هنا، وتزوج بها، الشقة بالنسبة له ليست سكنا يأوي إليه ويعيش فيها، هي مخزون ذكريات، والإنسان بلا ذكريات هو بلا هوية ولا انتماء ولا وطن، يكون عاريا تماما كمن ولدته أمه، الذكريات رداء لابد للإنسان أن يكون شديد الحرص على دوام وجوده فوق كاهله طوال العمر، فتح خزائن الذكريات بشقيها السعيد والمؤلم لابد من حين لآخر أن نزيل المزاليج عنها لإعادة

فلترة دواخلنا، عاد مهرولا إلى القرية، زاول عمله، بأيام قليلة كان قد نال محبة الجميع بوده وببشاشته ووجهه الباسم دوما، ولكنته الجميلة التي كان يمزج العربية باليونانية، تخرج جمله تحمل مرحا يزيد من مساحات الوصل بينه وبين أهل القرية، نظر إلى ساعته وجد أن الوقت قد ذهب بهم بعيداً دون أن يشعرا، نهض مادا يده ينهضها معه، هانيا.

– لو أخذنا بالحديث عن الأمس والذكريات والشخوص لن ننتهي أبداً، دعي البعض لقادم الأيام.

حاولت كثيراً أن تجعله يكمل ما كانوا، بل حكيه، لكنه أصر على أن النوم يطبق على جفونه، ولا أحد يستطيع التصدي لنداءاته.

..٩..

..جاء (حسين) ومعه ابنته باليوم المحدد لاستلام تقرير الطب الشرعي، سبق حضوره المهاتفة ليكون هو بالانتظار هو والمحامي، بالساعة المحددة التقيا، أخذا أماكنهم انتظارا لحلول موعد حصولهم على التقرير، الخوف مرتسم على قسمات (ثريا)، الكثير من أمورها الحياتية متوقف على هذا التقرير، قدماها تطرق الأرض دقات متتالية وبإيقاع واحد، الأب يجلس متململا واضعا رأسه بين كفيه، صدره يعلو ويهبط بصوت يكاد يسمع، هو والمحامي أخذا جانبا يتحدثان همسا بأمور خارج سياق الأمر المنتظر، هربا من التوتر المحيط والمخيم على كل الأجواء، كل الحاضرين بذات ملامح القلق والتوتر، نودى على اسمها، تم السماح لها بالدخول وحدها، زادت مساحات التوتر على محياها، نظرت للجميع نظرة تحمل معانى كثيرة أبرزها الخوف من المجهول، الخطوات متثاقلة، تكاد تتهاوى إعياء، أسرعت الطبيبة ومساعدتها إلى معاونتها وإجلاسها على أحد المقاعد، أتوا إليها بكوب من الليمون للتهدئة، هم اعتادوا هذا، تمر عليهم حالات كثيرة على هذه الشاكلة وغيرها، أتوا إليها بالتقرير، قرأته الطبيبة عليها، أتى بالتقرير أن لا أحد اقترب منها مطلقا وأنها كاملة العذرية وأن غشاء البكارة لم يتعرض

لأي من محاولات الإيلاج، تغير حالها من اليسار إلى اليمين، ندت عنها تنهيدة عميقة مع شهقة، عادت الدماء الساخنة إلى وجنتيها، ألقت بنفسها بين أحضان الطبيبة، أخذت تتنقل بين أحضان الطاقم الطبي بلا تمييز بين رجل وسيدة، ثم خرت ساجدة إلى الأرض تقبلها، رفعت يدها إلى أعلى، صرخت بفرح عارم.

- أشكرك يارب أحمدك يارب دوما أنت أعلم بعبادك.

أخذت تبتهل ويعلو صوتها بالدعاء لفترة،

ثم تعالت ضحكاتها الهستيرية، وصلت إلى مسامع المتواجدين بالخارج، أخذوا يتعانقون يتبادلون القبلات، خرجت من الغرفة _أخرى ليست هي التي دخلت منها_، أخذها الأب بين أحضانه، أخذ يقبلها بحنو، تبادلا الدموع والفرحة، أحاطا الأب والعم بها من الجانبين، أخذا الطريق نحو المغادرة، عند مدخل البناية التي يوجد بها المقر تصافحا مع المحامي، أسرع (حسين) متنحيا بالمحامي جانبا، أخرج مظروفا من جيبه، مد يده به إليه، رفض المحامي قائلا.

– حسابي وصلني وبزيادة من الأستاذ (رضوان) وأدار ظهره ملوحا لهم بالوداع، حاول المغادرة هو وابنته للعودة إلى بلدتهم، رفض تماما السماع لهذا الأمر قائلا.

– لابد لنا من الاحتفال بابنتنا، الحمد الله الذي أظهر حقها لتظل مرفوعة الرأس، نذهب للبيت لنستريح قليلا ونخرج قبيل المغرب لرحلة نيلية جميلة نخرج بها من الآلام التي عشناها بالأيام الماضية

انصاعا له بعد إصراره، هي تسير بينهم بخطوات وثابة تكاد ترقص بخطواتها، تشعر أن الحياة عادت إليها مرة أخرى وأنها ولدت من جديد ، استقبلتهم أفضل استقبال، جلسا بالشرفة المتسعة المليئة زهورا وأقفاصا لطيور الزينة، أخذت (ثريا) معها إلى المطبخ لإعداد الطعام، حاورتها حول هواياتها، حول طقوس يومها، الحوار التفاف للخروج من ألمها والحوار يمتد بين كل الأطراف عن البلدة وما طرأ عليها من تغيرات، وعن ناسها وحكايات من هنا وهناك، هي أيضا كان هدفها إبعادها عن التفكير بالأحداث الماضية، دعتهم للطعام، تناوله بين تذكر مواقف من زمن مر، وبين نقاشات حول أمور حياتية، انتهوا وأخذوا أماكنهم بالشرفة البانورامية التي تطل على أكثر من شارع، الزوجة لها شغف ينهشها لسماع باقي حكاية (لوكا)، نبشت الأمر بسؤال مفاجئ وُجِّه إلى (حسين).

- هل كنت صديقا لمجموعة (رضوان) مثل (لوكا وعبد الله التحيوي)؟.

انتابت (رضوان) حالة من الضحك الصاخب والمتواصل، التقط أنفاسه، حدثنا.

- يعجبني ذكاؤك المتقد، تعرفين بطرق مختلفة الوصول لما ترغبين، أجيبك أنا حتى يهدأ داخلك القلق.

- بداية (حسين) كان رفيقا لنا ولكن وليس بشكل دائم، يرافقنا حال الموقف يكون مناسبا له، كنا نطلق عليه ثلاثتنا (الحكيم) فهو للأمانة لم يكن صاحب طيش أو نزوات أو أي شطط من أي نوع، وعندما كان يجد أننا بصدد فعل خارج نطاق المألوف يولي الأدبار والفرار، وقد يستمر فراره أياماً، وربما إن لمحنا على البعد، يختار طريقا آخر لا يصادفنا به، من يومه وهو هكذا.

تعالت ضحكاتهم، نظر إلى (ثريا) سائلا.

- هل تغير أبيك عما قلت؟، لا أظن.

- فعلا يا عمى كما قلت أبى دوما شديد الهدوء، حتى لو صادفه أمر شديد الصعوبة، هادئ، يعتزل كل شيء لوقت ويعود إلينا بحل يحل الأمر بمنتهي السهولة.

– أنت لخصت شخصية أبيك تماماً.

والتفت إلى زوجته.

– حتى أزيدك شغفا لن أتكلم إلا بعد قيامك بإحضار صينية البسبوسة التي أعرف قيامك بصنعها فور علمك بحضورهم، بعدها أروى ظمأكِ.

وأردف حديثه بضحكة مجلجلة شقت سكون القول، نهضت ضاحكة.

– رشوة يعنى، حاضر من عيوني.

جلسوا يتناولون أطراف الحديث المتشعب حول أمور عديدة خاصة وعامة، هي تجلس متململة تنتظر أن يبدأ بالحكي، هو يتعمد زيادة شغفها، وعندما وجد أن مساحات التململ قد زادت على كاملها تكلم.

– على مدار الأيام كان (ديموس) يزداد قريبا من الجميع، ينتهي من عمله، يغلق محله نصف إغلاق ربما يأتي من يحتاج شيئا، يجلس على مصطبة إسمنتية قام ببنائها ليجلس هو ومن أصبح صديقا مقربا، كان الأصدقاء بحالة ازدياد كبير، يجلس بينهم يحكى عن حياته وذكرياته، بلغته التي تحمل اللغتين معا، الجميع يجلس بحالة

إنصات تام، العيون مفتوحة على كامل سعتها وأيضا الأفواه، صار يحكى لهم عن أعياد واحتفالات اليونان، رغم أنه لم يعش بها، كان يحكى عن ما سمع من أسرته، يحكى عن المأكولات والمخبوزات اليونانية، مما دعا البعض أن يطلبوا منه أن يقوم بتعليم بعض نسائهن صنوفا من الطعام، فهناك ملل من نوعيات ظلوا طول العمر يتناولونها، قام بهذا تحت أنظار الأزواج، راجت تجارته حتى تحول الى مركز توزيع، اتفق مع بعض الرجال من عدد من القرى المجاورة عرف عنهم أنهم يجوبون البلاد لبيع بضاعة مختلفة، بعد صلاة الفجر تجد ركائب كل منها يحمل صندوقان من الخشب على جانبي الحمار أو البغل أو المهر الصغير، يقفون طابور، يمد كل منهم بالبضاعة، من سكر وزيت ودقيق وبقوليات وسجائر ومعسل وبعض صنوف الأدخنة والمشروبات والحلوى، وصنوف بقالية أخرى، فيما بعد أتى بالأقمشة ولعب الأطفال، كل يوم يمر يزداد عدد موزعيه، يعودون آخر اليوم كل منهم يعطيه قيمة ما تم بيعه، يراجع معهم كل شيء، كان بارعا باللغة الحسابية، يعطى كل منهم نصيبة من العمولة ويزيد قليلا للتحفيز، صار حديث الجميع، يتساءلون متى يجد وقتا للنوم، ولا يجدون إجابة، بنهايات كل شهر، كان يسافر ليوم أو يومين الإسكندرية، أول ما تطأ قدماه

الإسكندرية يذهب على الفور إلى حيث مقبرة زوجته، يضع باقات الورد المتنوع الألوان على قبرها، كانت تعشق الورود، كانت تزين كل الشقة بها، تقول دوما، الزهور رؤيتها تزيح الكثير من أي هم بالصدور تجعلك مقبلا على الحياة، يبكى بكاؤنا حارا كأنها ماتت من لحظات، يظل على هذا الحال لوقت طويل، يغادر متثاقل القدمين، يسير بكل الشوارع التي تجولا بها سويا، يتخيل كل لحظه، كل كلمة، كل لفتة، كل بسمة أو ضحكة، الدموع ترافق مخيلته، يتوقف قليلا أمام مدخل البيت، يتأمله من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، يصعد الدرج بهدوء تام، متخيلا أنها تصعد معه، كان يهدأ من خطوته لأجلها، لولا خجله حينها لكان صعد بها محمولة على ذراعيه، يفتح الشقة، يتوقف قليلا يستقبل رائحتها بصدره، يتجول بالشقة زاوية زاوية، يعود إلى الصالة التي تزين جدرانها العديد من الصور، كل صورة تحمل ذكرى وموقف، يحضر الشموع من أحد أدراج المطبخ، يحتفظ بعدد كبير منها، كانت تعشق الشموع الملونة، يضئ بعضها على شكل دائرة، يطفأ كل الأنوار، يجثو على ركبتيه، يركز عيناه على صورتهما يوم زفافهما، يأخذ بمناجاتها.

– لماذا غادرتني دون سابق إعلان، ذهبتي وتركتي آلاما لا تبرحني، وغربة باردة تغلفني.

يجهش بالبكاء الشديد وبصوت مسموع، الدموع تغسل محيط وجهه وتتساقط على صدره، فجأة يجد نفسه أسيراً للنوم، ينام حيث يجلس، يمر الوقت يطول أو يقصر، يستيقظ مندهشا لنومه على هذا الوضع، يغتسل يعدل من ملابسه، يعيد المرور على الصور، يمرر يده على كل صورة، يصله الإحساس أنه يلمس الشخوص بشحمهم ولحمهم، يشعر كأنهم يتحدثون معه، يبادلونه الشوق، يغادر مرتديا حللا جديدة متناقضة بين الحزن والفرح، يمر على صاحب البيت يمنحه الإيجار لشهر أو شهور، يمر على بعض أصدقاؤه وما تبقى من عائلته، يجلس معهم يجتر معهم ذكريات ومواقف تجمع بين كل مواقف الحياة، قد يبيت ليوم إن وجد أن هناك أمورا لم ينتهي منها، يعود تحكى قسماته كل ما مر به أثناء غيابه، توسعت تجارته وأتى بصنوف عديدة من البضائع، وجد أن المكان لم يعد يليق بتوسعاته، اشترى قطعة أرض كبيرة تطل على أكثر من اتجاه، شرع ببناء منزل كبير على شكل سرايا كبيرة تحيط بها الأشجار من كل جانب وبشكل مغاير للنظام السائد بهذا الزمن لسرايات مشابهة لكبار رجالات القرية، ومخازن تتسع لتجارته،

استأثر بتجارة القطن، أنشأ مثل بورصة صغيرة، يجمع القطن من القرية وأجوارها ثم تأتى سيارات الشركات الكبرى تحمل ما لديه وبالسعر الذى يحدده، لا يسمح بالجدال مطلقا حول أسعاره باعها قبل أن يرحل عن القرية للباشا الكبير، صاحب الأراضي المترامية الأطراف ولا يعرف مداها أحد (حسن باشا الفراهيدي)أستاذ الجامعة صاحب الاسم الطنان بمجال تخصصه (الاقتصاد السياسي)، وهذا له أيضاً حكاية، الريف دوما أرضه خصبه حبلى دوما بالحكايات، عنقود حكايات القرى ليس له نهاية، الحكايات تتولد كل لحظة وأخرى، مثلما جاء فجأة عاد فجأة بعد سنوات إلى الإسكندرية، باع كل ما يملك، كان يعيش وحيدا، يخدمه رجل اسمه (رشوان) أتى به من إحدى زياراته للإسكندرية، كان من أبناء الصعيد، قالوا حينها أنه هارب من ثأر ينتظره، وكأن ما من أحد يترك بلده إلى بلد آخر إلا ويكون هاربا من أمر ما، وتأتى سيدة من أبناء القرية تقوم بشئون المنزل من تنظيف وطعام وغيرها من أمور، قبل كل هذا كانت هناك فترة غاب لأسبوع كامل، وعاد بصحبة سيدة غاية بالجمال، أعلن أنها زوجته، وهي التي منحته ابنه الوحيد (لوكا)، الذى كان رفيقا لي حتى عمر حوالى الخامسة عشرة، بعدها سافر مع أبية أسمع عنهما بعد الأخبار الصغيرة، فيما

بعد التقينا صدفة بالكلية التي ضمتنا، عادت بيننا أواصر الصلة، كان يأتي إلي بالقرية، وأذهب أنا إلى ڤيلَّتهم الكبيرة، كان أبوه قد نالت منه الشيخوخة، وترك أعماله تدار من رجل يمت إليه بقرابة ويثق به ويتابع بين الحين والآخر أعماله ، مع تحفيز (لوكا) بالمتابعة والتعلم، انتهت سنوات دراستنا، وعاد الفراق بيننا أللهم إلا مهاتفات قليلة ومراسلات أقل، حتى فوجئت بأن أباه أمره بتصفية كل شيء والعودة سريعاً إلى اليونان، طالبا أن يدفن هناك، لا أتذكر أنه راسلني إلا مرة أو مرتين بالبدايات وبعدها ضاع تماما عني حتى جاءني الاتصال الأول منه يخبرني بحضوره، هذا ما سمعته من أبى الذى أعجب بالرجل وكان رفيقا دائما له، هذه حكاية عائلة (لوكا)، هل أشبعت فضولك، عندما يأتي نسمع منه البقية،

الجميع أعلن أنه فعلا علم أشياء لم يعرف بها من قبل حتى (حسين) ابن القرية.

– على فكرة يا (حسين) هما سوف يتواجدان خلال الأسبوع القادم، ما رأيك أن تكون معنا، هو مصر على تواجدنا بڤيلا (عبد الله التحيوي) بأحد شواطئ الغردقة، كل مع زوجته، فكر.

– بالتأكيد موافق، ما أحلى أن نتذكر أيامنا الماضية.

طلب السماح لهم بالمغادرة بداعي أن لديه عملا بالغد كان بحالة نسيان له، معتذرا عن مصاحبتهم بالرحلة النيلية كما اتفقا حاول كثيرا هو والزوجة إثناءه ولكنه أصر، تم إيصالهم إلى موقف سيارات الأقاليم، تم وداعهم، أوقف السيارة قريبا من النيل، ترجلا أخذا بالنظر إلى المياه السارية، المياه مثل الحياة تظل سائرة بلا نهاية، مد يده واحتوى راحة يدها ضاغطا عليها تحمل الكثير من الرسائل.

..١٠..

الأيام المتبقية على حضور (لوكا)، قليلة تحتاج منه إلى التفكير بجدية "ببروجرام/ببرنامج" الأيام التي تسبق ذهابهم إلى حيث ڤيلا (عبد الله التحيوي)، هو لا يعرف متى يصل ولا ما برأسه من ترتيبات، زفر هامسا لذاته؛ لنترك الأمر لحين حضوره، أخبر رؤساءه أنه سوف يحصل على إجازة تقارب العشرين يوما، بالتأكيد دهشوا غاية الدهشة، هو على مدار سنوات عمره لم يطلب إجازة إلا بأحايين قليلة، بالملمات غالبا، حالات العزاء على وجه التحديد، حاولوا الفهم ربما كان يعانى من مشكلة طارئة يعاونوه في الوصول لحلول لهم، طمأنهم بأن الأمر لا أكثر من حاجته لبعض الاستجمام مع زوجته، حاولوا تقليل الفترة بداعي العمل لا يسير الا بوجوده، أقنعهم بأن الأيام ما أسرع مرورها وهناك الكثيرون من الأكفاء يستطيعون القيام بهذا وأكثر، سارت الأيام التالية على ذات الوتيرة المعتادة، حتى أتاه رنين الهاتف بذات الرقم الدولي، استقبل المكالمة بالتحايا والسؤال المعتاد بين كل البشر بالسؤال عن الأحوال والصحة، أخبره أنه سيستقل الطائرة من مطار أثينا غدا بالحادية عشر عند الظهيرة، تصل بمشيئة الله بحدود ما بين الرابعة عصرا أو بعدها بقليل حسب ظروف الطيران، كان قد توصل لشيء مبدئي

أن الايام الأولى يقضيها معه بشقته، وبعد ذلك يكون النقاش حول كيف يكون "البروجرام/البرنامج" ؟، بالتوقيت المحدد كان متواجداً بصحبة زوجته، لوجود زوجة (لوكا) معه، وقفا بصالة الانتظار بعد إعلان الإذاعة الداخلية عن وصول الطائرة القادمة من أثينا، حائرا هل يعرفه من أول وهلة، لابد أن تغيرات كثيرة قد طرأت عليه، أكثر من خمسة وثلاثين عاما لم يره، لابد أن الزمن قد بدل به مثلما يبدل بكل البشر، يشرئب ناظرا موجها بصره ناحية بوابة الخروج، يتأمل سحنات كل الخارجين باحثا عنه، فجأة ندت عنه "أهه"، لقد لمحه، يا ألله يكاد يكون كما تركه آخر لقاء معه، مازال فارع الطول ، ممشوقا دون إنحناء، منتصب القامة لاوجود لشبهة إنحناء بقامته، مازالت طريقته بالسير كما هي، يمشى واثق الخطوة ملكا، تسمع خطواته لها رنين معين، كلما اقترب كلما زادت دهشته، الوجه المستدير المتورد دائما، الشعر الأسود الفاحم، منسدل على جبينه، لم تعرف الشعيرات البيضاء سبيلا إليه، أصبح على مقربة منه، صرخ باللغة التي تجمع بين العربية المتكسرة أحرقها وبين اللغة اليونانية المطعمة ببعض الكلمات الانجليزية، إنه أشبه بدولة كمبوزولتيه، فاتحا ذراعيه على سعتهما.

يا ألله يا حبيبي، كم أشتاق لك، صدقني حبيبي لم أنسك لحظة، طمني عليك.

أخذ (رضوان) يفرك عينيه دهشة، ما يراه هو (لوكا) الذى غادر من عقود، مازال بريق عينيه حادا، مازالت رنة المرح بصوته، هل الزمن ضل الطريق إليه؟، فلماذا يا زمن تصر على مرافقتنا؟! حتى الزمن يفرق بين الشرق والغرب، أفاق على تلويح يده أمام عينيه يصيح به.

- مازلت كما تركتك كلما أصبت بالدهشة يصيبك الشرود التام، والله والله أنا (لوكا) بشحمه ودمه، ويؤكد لك هذا الزوجة الجميلة التي جعلتني أنسى وجودها(كريستينا)، سألها ألست أنا (لوكا) أخبريهم، وأطلق ذات الضحكة الطويلة الممطوطة التي كانت تسمع على مسافة كيلو متر كما كانوا يقولون.

ألقى كل منهما بأحضان الآخر، غاصا داخل بعضهم، تشبث كل منهما بالآخر، تبادلا الكثير من القبلات التي وزعت بعدالة على الوجنتين والرأس، انتبها أن هناك سيدتان مرافقتين لهما، استدار وبحركة تمثيلية أحنى الرأس.

- آسف لكم، لي العذر فهذا الرجل أعيانى زمنا عاش بداخلي ولم يغادرني، هذه بلد شهدت ميلادي، وأظنها أيضاً مستقرى الأخير.

عرَّفه على زوجته (ناهد) مثلما تم تعريفه إلى (كريستينا)، أخذا الطريق نحو السيارة وبأعقابهم عامل يدفع عربة حمل الشنط والمتعلقات الأخرى، سارا كل منهم واضعا يده على كتف الآخر، ركبا السيارة طلب منه قبل السير على مهل يريد أن يرى الطرق والبنايات والشوارع والناس على مهل، كل هذه تمنحك عنواناً بارزا عن التحولات التي نالت من الكل بفعل الزمن، وسرعة هبات الريح التي تنادى بالتغيير، هذه الرياح هي نداهة متطورة مجالها المغناطيسي شديد الفاعلية، كان يسير الهوينى لم يغادر السير بالحارة اليمنى من الطريق، كان مثل صغير يضع عينيه على الزجاج، يتأمل بعمق، تندو عنه بين الحين والآخر آهة أو تمتمة، كان يسأل باستمرار.

– كيف حدث هذا؟!، ما هذا التغير والعمران الكبير، أتذكر يوم سفري، كان كل الطريق صحراء، صخور ورمال، لا ترى أي معالم العمران إلا على بعد مسافات طويلة، الزمن أشبه بفتيل ديناميت سريع الاشتعال يبدل الحال إلى حال آخر، طال بهم الوقت والحديث المقتضب، الزوجتان انهمكتا بالحديث باللغة الإنجليزية التي تجيدها (ناهد)، هي خريجة تربية قسم اللغة الإنجليزية، وصلا الى البيت بعد أكثر من ساعتين ونصف بدلا من الساعة، صعدا كل

منهما يحمل بعضا من الحقائب، بل إن حارس البناية أسرع أيضاً لحمل البعض، فور الدخول جلسا لالتقاط الأنفاس، أسرعت لإحضار مشروب المانجو المثلج، لمح بوجه (لوكا) بعضا من الحاجة للإغفاءة، أخذه للاغتسال وسار به إلى حجرة أعدت له ولزوجته، طلب منه أن يستريح قليلا من الرحلة الطويلة، ولحين حضور الطعام، كان قد طلب وجبة من أحد المطاعم الشهيرة، أخذ يتذكر قبل طلبها ما كان يحبه، يعرف أنه مغرم بالحمام المحشو بالأرز والمكسرات، كم من مرة تناوله بسرايا الأب، يعشق اللحم المشوي على الفحم، كم من مرة كانا يسهران بالحديقة، ويقوم بشي اللحم على الفحم، كل هذا تذكره وطلبه، خلد هو أيضا للنوم، أما الزوجة فلم يواتيها النوم، اكتفت بالجلوس ممددة جسدها على كنبة الأنتريه، أمارات السعادة تكسو وجهها زادته بهاءً، هي تكون قمة السعادة عندما تجد زوجها كل ما به يشى بالسعادة، وأن حالته المزاجية حائط صد قوى بين أي شيء يعكر صفوهما، وما شاهدته اليوم يعلن أنه قد حصل على ما قد يسعده بلا حدود، هي رأت على وجهه ما ينبئ على أنه ربما عاد إلى الوراء سنوات كثيرة، قبلت يدها باطنا وظاهرا، وحمدت الله، وغفت قليلا، لم تنتبه إلا على خطوات زوجها التي تحفظها تماما، لوقع أقدامه حفيف معين، نهضت جالسة

باسمة بوجهه، جلس بقربها ربت على يدها، طلب منها إعادة الاتصال بالمطعم لسرعة إحضار الطعام، مؤكد هم على يقظة قريبة، نهضت من فورها، غسلت وجهها من الغفوة التي أخذتها قليلا، أجرت الاتصال طلبت أن تأتى الوجبة بخلال النصف ساعة على الأكثر، أخذت توقد شموعا ملونة، توزعها بشكل هندسي على كل الأرجاء، وبعض الزهور على الأركان، أضاءت أنوارا خافته، نثرت عطر الياسمين الذى يعشقه زوجها وهي أيضا، جاء الطعام، وضعته برؤيتها الخاصة، أشارت إلى زوجها أن يدعوهم إلى الطعام مع طرق الباب طرقات خفيفة، أتاه الرد أنهم قادمون، خرج من الحجرة وبأعقابه زوجته، فاجأ الجميع بوقوفه وسط الصالة، يجرى بعض التمرينات الرياضية المنشطة للجسد، ما إن شاهده يفعل هذا حتى انتابته حالة من الضحك الهستيري، تخرج الجمل الكلامية من فمه متقطعة تحتاج لمن يجمع شتاتها ويعيد لضمها لتفهم.

- أنت كما أنت لم تتغير طقوسك، ذكرتني بها، كنت تفعلها حتى خارج نطاق بيتكم، وها أنت تفعلها ببيت تدخله للمرة الأولى.

لم يعره اهتماما حتى إنه لم يلتفت إليه وكأنه لم يسمعه، ظل على هذا الحال قرابة العشر دقائق، انتهي سار إلى الحمام، اغتسل وعاد كأنه شابا بالعشرين، جلس مجاورا له، والزوجتان تجاورتا يدور بينهم

حديثا بالإنجليزية، تتخلله بعض البسمات والضحكات، ضحك (لوكا) وهو يمد يده إلى الطعام قائلا.

– هيا إلى الطعام، لا خجل فأنتم ببيتكم، إلا يقولون هذا في مصر بكاملها.

تشاركت ضحكاتهم، بدأوا بالتناول مع بعض الكلمات التي تثير الضحكات، عندما انتهوا، قاموا للجلوس بالشرفة، أتت لهم بالمشروبات الساخنة، جلسوا يتبادلون الحديث عن أمس مضى ويوم يعاش، فاجأهم بسؤال.

– (رضوان) يا حبيبي، هل مازالت السرايا موجودة؟

– السرايا، هل تتخيل بعد أكتر من ثلاثين عاماً أن تظل كل الأمور على حالها؟ السرايا الآن مجرد سور يلتف حول أنقاضها، وأشجارها العجوز، مات الباشا الذى مازال يحكى عنه للآن حكاية زواجه، فهو رغم مكانته العلمية، كان أستاذا جامعيا مرموقا، سليل أرستقراطية مخملية جدا، ظل بلا زواج حتى تجاوز الأربعين، كان يحب قضاء حوائجه بنفسه، إعتاد شراء اللحم من أشهر جزار بالناحية (فارس الطوبجي)، الذائع الصيت الذى ورثه عن أبيه (سالم الطوبجي) الذى اعتزل المهنة يكتفي بالجلوس عن قرب من

الابن على أريكة هرمه تشبه شيخوخته، يتناول عشرات الأكواب من الشاي الأسود شديد القتامة قليل السكر، بين الحين والآخر يلقى بتعليماته نوعاً من الإيحاء أنه مازال يملك القرار، تجلس بجواره الأم والأخت تبيعان الكرشة والكوارع والممبار وبقايا أحشاء الذبائح، الأخت (وصيفة) خلبت لبه، للحق كانت شديدة الجمال والجسد الفائر، حتى أن أهل القرية كان يتساءلون كيف جاء هذا الجمال الصارخ، صحيح الأب والأم بشبابهم كانوا يتمتعون بجمال غير مألوف بالقرى ولكنها فاقت كل جمال، الباشا بأناقته وعطره الذى يسبقه ليعلن عن قدومه يذهب كل يوم أو يومين للشراء وبكميات يوزعها فيما بعد على عمال السرايا والأُجراء الذين يزرعون أراضيه، طلبها للزواج غير عابئ بالفارق الاجتماعي ولا بحديث الناس، تزوجها وحجبها عن الناس تماما، حتى أهلها لم يسمح لهم بالحضور، حدد لها يوماً أسبوعياً للذهاب إليهم، يرافقها عن بعد (عباس العبد) الرجل المقرب جدا للباشا وكاتم أسراره، مجرد ساعة تعطيهم بعض ما يجود به الزوج من هبات عينية ومادية، بسبب هذه المرافقة الدائمة وكعادة أهل القرى يفسرون الأمور حسب تفكيرهم، ودائمي البحث عن حكايات حتى لو كانت لا تحمل أي ملمح من ملامح الصدق، اتهموها أنها عشيقة (لعباس)

وأن أولادها منه هو رغم أن كل الملامح التي يحملونها ملامح الأب تماماً، الرجل كان مما يطلق عليهم العماليق، فارع الطول بشكل غير معتاد، البشرة الخمرية، الجسد الممتلئ بلا ترهل أو زوائد، لم يتزوج، ولكن للأمانة كان الرجل من الصنف الوفي جداً، ولم يهتم بما يقال، كان رده على من يسأله لماذا لا يرد على هذه الأقوال؟.

– الرد في مثل الأمور يؤكد ما يقال، دعهم يقولون حتى يملوا من القول.

وبالفعل كان فلسفته هذه خير رادع لهذه الادعاءات، ماتت الشائعات قبل أن تسرى بشكل يوجع، أنجبت من الباشا ولدين، كانا أطفالا عاديين يعشقون التقارب مع من هم بذات العمر أو أكبر أو أصغر قليلا، كبرا والتحقا بالجامعة، (صلاح) الأكبر بكلية الزراعية تنفيذا لرغبته ليلم بشئون أراضيهم وزراعاتهم، (كارم) بكلية الفنون الجميلة لعشقه للرسم والتصوير من صغره، سارت الأعوام هادئة إلى أن مات الباشا بلا مقدمات مرضية، بعدها من كان يريد الإشراف على أراضيهم خالف الطريق وكذلك أخيه الذى أساساً لا يهتم بأي شيء سوى حصوله على الأموال وإنفاقها على الملاهي ولعب القمار الذى أدمنه، وبدأوا ببيع الأراضي جزءً

جزءً، أما السرايا أصرت (وصيفة) على عدم التفريط بها على حياة عينها، ولكن لم تجد الاهتمام الذى يحافظ عليها خاصة بعد وفاة (عباس العبد)، زيارات الأبناء تقلصت لا يأتون إلا للحصول على الإيجارات أو بيع جزء آخر، ماتت (وصيفة) وقبل موتها أوصتهم بأن لا يفرطوا بالسرايا، حتى لو تحولت إلى مجرد أحجار متناثرة، وهذا هو حالها، هم يتمنون بيعها حتى يجتثوا جذورهم من القرية؛ لأن حياتهم لا ترتبط مطلقا بها، أولادهم لا يعرفون طريقا لها، هذا هو حالها الآن سور وأحجار أو قل أطلال.

- أنا سوف أشتريها بأي ثمن، أصارحك بأمر لم نعلنه من قبل، وظل حبيسا كل هذه السنوات، أن أبى كان ألمه الكبير الذى صاحبه منذ رحل من القرية هو بيعه السرايا، قال لي أكثر من مرة، إن استطعت يوماً أن تعيدها لا تتقاعس، ندم عمرى الذى أنزفه للآن هو لحظة غياب عقلي وفعلي هذا، يوم أن وقعت عقد السرايا أحسست أنى بلا ستر وبكيت يومها بكاءً حارا، أخبرني أيضا محاولة التراجع ودفع تعويضا للباشا لكنه رفض، ويبدو أنه كان يضع بين يدي أمانة ووصية حان وقت تنفيذها؛ لذا حاول الوصول إلى أرقام (صلاح وكارم) وأنا لي طريقتي بإقناعهم، سكت قليلا ثم عاود الحديث.

- رجاء لا تندهش أو تتساءل الآن، سوف أخبرك بكل شيء، ولكن الآن إن لم يكن عندك مانع نخرج ونذهب للجلوس أمام النيل، كم أفتقده، كلما كنت أتذكره كنت أرتعش كأني محموما، وتزداد مساحات الغربة داخلي، هناك أماكن وأزمان لا تستطيع نسيانها أو التباعد عنها مهما كانت المسافات وسنوات التباعد.

لم يكن هناك بد من إجابة رغبته رغم أن الوقت تجاوز العاشرة مساءاً.

أسرعوا بالنزول والحقيقة أنه كان يتوق لهذا أيضا، انطلقت بهم السيارة دون تحديد لمكان محدد، طرأت برأسه فكرة أن تكون سهرتهم بباخرة نيلية، وعندما عرض عليه الفكرة رفض تماما قائلا.

- أريد أن أمشي لأراه على الطبيعة، وليس من داخل ما يشبه العلبة والخندق، أريد نسيمه يدخلني مباشرة، لا تحرمني من شوقي.

وافقه، أخذوا بالسير على مهل، كل فترة يتوقف، يفتح ذراعيه على سعتهما، يصرخ.

- للهواء هنا رونق آخر، تشعر به يضخ روحا جديدة داخلك، طفت عشرات الشواطئ بكل القارات، ولكنى ابدأ لم أشعر بالدفء، كنت أشعر كأنه ضمن منظومة الأشياء المعلبة، التي بلا

روح ولا طعم ولا تعطيك أي إحساس، النيل يظل حيا داخل من شاهده، وأنا كنت هذا الإنسان، الحنين يتملكني، ولكن للأسف أخذتني الحياة العملية، ونسيت احتياجاتي الروحية، ولكن ها أنا عدت من جديد، و أظنني لن أغادر، وطفرت دمعتان من عينيه دفعت (رضوان) إلى احتضانه بقوة والربت على ظهره مرات يشكل به بعض القوة، ليخرجه من حالة الشجن، أخذ يده وذهب به إلى أحد باعه الترمس واحضروا بعضا منه، عادت البسمات إلى شفاههم، طال بهم السهر حتى داعبت وجوههم قطرات ندى الفجر، السعادة الغالبة كانت من نصيب (كريستينا، فهو لم تشهد طوال عمرها مثل هذا، عادوا إلى الشقة يرتدون حلالا أخرى غير التي ذهبوا بها، ذهبوا بالنوم بشكل لم يعهدوه من قبل.

اليقظة كانت قرابة العصر، تناولوا الإفطار أو نستطيع القول إنها وجبة ازدواجية تجمع الإفطار بالغذاء، بعد جلسة قصيرة لم تخرج عن إطار الحديث عن بعض المتغيرات، أصر على السفر على الفور إلى الإسكندرية، أخبره أنه اتفق مع شركة لإيجارات السيارات لترسل لهم سيارة من أحدث الطرازات لتكون تحت إمرتهم ليومين أو ثلاثة حسب الظروف، حاول إبداء الرأي وطلب الإرجاء لوقت آخر، رفض بشدة قائلا.

- أرجوكم أنا متعطش لكل شيء، عمر طويل تسرب من يدى، أحاول الإمساك به، العمر لم يتبق به الكثير، فدعوني أتشبع بكل شيء، سئمت من العمل الذى كبلني عشرات السنين، أرجوك أُشعر بي، وأقسم بالله بك ذات الحنين، لا تكابر، المكابرة تضيع منا جماليات نحتاجها، أرجوكم أنا بحاجة لهذا ، قولوا مجنون، عندي لوثة، قولوا أي حاجة، بيتنا هناك اشتقت له، لا تندهشوا، نعم مازال البيت قائما الشيء الوحيد الذي رفضت بيعه، ليربطني بإسكندرية، تركته تحت رعاية أحد أبناء جنسيتي اليونانية أصر على أن يظل بلا مغادرة، كنت أرسل له أجر رعايته وصيانته، وبعد أن مات تولى أبناؤه نفس الحال، وكنت أطلب منهم بين الحين والآخر إرسال صور للبيت من الداخل، أنا محتاج أمشى بكل مكان، بكل حارة وزقاق وشارع، مشتاق للأنفوشي، للسيالة، لكوم الدكة، للأزاريطة، لكوم الشقافة، لمطعم (محمد أحمد)، لآيس كريم محطة الرمل، أشتاق للجلوس على محل ديليس، أشتاق لحديقة الخالدين، أشتاق لجلسة ليلية على اللسان، أشتاق لأزقتها وحواريها وناسها البسطاء، ما كان يصبرني قليلا على غربتي هو ألبوم الصور الذى يحوى الكثير من لقطات الحياة ومراحلها، لولا خشيتي من نعتى بالجنون لقبلت كل ما بها، جدران وناس، اشتقت لكل شيء، هل

أنتم متخيلون أني نسيت كل هذا، لا والله تذكري لهذه الأماكن كانت سبب تحملي، لأنى كنت واثقا أنى عائد، تعرف أنى فكرت تأجيل حضوري للشتاء، محتاج أجرى تحت المطر، إسكندرية رائعة بالشتاء، لا بكل الأوقات، كفاية كلام وهيا استعدوا، لا وقت السيارة على وصول، لم يكن أمامهم إلا الإذعان لرغبته، استقلا السيارة، سأل السائق عن أي إسطوانة بها أغنية (فيروز) شط إسكندرية، نفى، رد عليه.

- كنت أعرف الإجابة، استدار نحوهم مخبرا لهم أنها الأغنية الوحيدة التي كانت تتردد بمكتبه ومنزله منذ أن سمعها للمرة الأولى.

أخرج من شنطته الصغيرة التي يحملها بين يديه، أخرج فلاشه، طلب منه أن يشغلها بصفة دائمة حتى يصلوا، لا أي شيء آخر، كان يدندن مع الأغنية الفيروزية، كان بحالة نسيان لكل ما يحيط به، كل ما كان يصدر عنه كل لحظة، يا الله ما هذا الكم من التغير، ما كنت أتخيل هذا مطلقا. وصلت السيارة إلى منطقة كامب شيزار، توقفت تمامًا حسبما أشار للسائق، بيت من الطراز القديم، المساحة الكبيرة، الأشجار العملاقة النادرة تلتف حول كل شيء، لا يبدو

المبنى كاملا، مجرد الدور الأعلى الذي يأخذ سقفه الشكل الهرمي المزين بالقرميد الأحمر، رغم كل هذه السنوات والأجواء العديدة التي مرت به صيفا وشتاءً وربيعا وخريفا، ما زال لونه زاهيا كأنه تم تركيبه بالأمس لا بل من ساعات، نقر بيده نقرات تجمع بين الهدوء والصخب، لم ينتظر كثيراً، فتح الباب الكبير الذي يسمح بدخول سيارة ضخمة، فتح الباب وظهر كهل عجوز ربما تجاوز السبعين، يتكأ على عصا غليظة، يجاوره يمينًا ويسارًا شبان تجاوزا العشرين بسنوات قليلة، كان يلهج بكلمات متقطعه، مرحبا.

– أهلا بالغالي ابن الغالي، أحمد الرب أن رأيتك وانا ما زلت حيا، اشتقنا لك كثيرا، تفضلوا كل شيء جاهز.

أشار الشابين معرفا. بهم (بيدرو ، ماركو) أحفادي من (جوزيف) ابنى الوحيد، سارع الشابين بإخراج الحقائب من السيارة وأخذها إلى البيت.

ساروا متجاورين، كل زوجة تتعلق بذراع زوجها، من خلفهم يسير (فابيو) الكهل الذي ظل يتابعهم بالحديث.

– كل شيء معد كما أمرت، الحمامات جاهزة، والطعام جاهز بعد وقت قليل كما أمرت، أتمنى أن لا تفارقني ثانية، فأنت تذكرني

بالأحبة، الله يعطيك العمر، وقفز ممسكاً بعنقه يقبله مع عيون تذرف الدموع.

سارع بتعريف كل أسرة بغرفتها الخاصة، الغرف متسعة للغاية، لها أكثر من صالون، ملحق بها حمامان ، تمنى لهم الوقت الطيب مثلما قال، جلس (رضوان) على حافة الفراش تجاوره زوجته، كلاهما ينظر إلى الآخر وكل علامات الدهشة وصنوفها ترتسم على قسمات وجهيهما، الأحداث تهرول وأنفاسهم تتهدج تحاول الملاحقة، (لوكا) جاء يستدعى الزمن البعيد الذي مر، ولكن لم يضع بمخيلته أن زمن الهرولات قد مضى وولى من عقود، كانت إجابة دهشتهم تبدو من عيونهم وضرب الكف بالكف بخفه، ما علينا إلا أن نحاول العَدْوَ لنرى إلى أي نهاية نصل، نهضا سويا، كل منهما أخذ ركنا بعيدا عن الآخر، لتبديل ثيابهم والذهاب إلى الحمام لإزالة آثار الرحلة الطويلة من السفر عن كواهلهم، والاسترخاء قليلا، ثم انتظار القادم، بعد الحمام استلقيا على الفراش وذهبا بسبات عميق، على الطرف الآخر، لم تكن لدى (لوكا) أي رغبة بالنوم، أخذ حمامه الدافئ، وارتدى بيجامته الحريرية، يعشق هو منذ صغره الأردية الحريرية، علمته أمه هذا، جلس بالشرفة التي تلتف حول كامل البيت، وضع أمامه كوبا كبيرا من القهوة المحوجة التي لا تفارق

صنوفها المتعددة ونكهتاها المختلفة رحلاته، القهوة تزيده تركيزا وحيوية، جلس على الكرسي الهزاز، كرسي أباه والذي حرص حتى بغيابه أن يوصي به، التاريخ يجب رعايته ولا يهمل أبدا، أشعل سيجاره الكوبي، أيضا السيجار هذا لازمه منذ أن عرف تدخين السيجار، يرتشف رشفه، ينفث بعض من دخان السيجار، يغمض عينيه قليلا، يشرد ويعود إلى زمن سحيق، تذكر وجودَه ابنا وحيداً لأب تجاوز الخمسين بسنوات ليست قليلة، وأم تصغره على الأقل بما يقارب العقدين وربما الأكثر، الأب (ديموس) الذي لا يراه إلا بعد غروب الشمس بساعات، يصحو يجده خرج إلى عمله، يعود منهكا من العمل، يغتسل سريعا، يتناول طعامه على عجالة، أبيه كان عجولًا على الدوام، عرف هذا عندما بدأ يفهم، كان الأهالي يطلقون عليه (أبو قلب حامي) ينادنوه أحياناً (بالحامي)، ينهض بعدها متثاقلا إلى الجلوس على الكنبة مرتبعا، لحين أن تأتى له بكوب من النعناع الأخضر الساخن، تعلم هذه الجلسة من جلساته اليومية على المصطبة الأسمنتية التي أوجدها بجوار محله ومخازنه، النعناع كما أخبرني لاحقاً وعلمني أيضاً شربه يهدأ المعدة ويبعد عنها الانتفاخات التي تقض المضاجع، يأخذ طريقة إلى حجرة النوم، وهذا يعنى أنَّ عليَّ أيضاً أن أنام، تذهب بي إلى فراشي، تربت على

طويلا حتى يأخذني النعاس بين أحضانه، كانت حريصة على أن أرتدي دوماً أردية نظيفة على مدار اليوم، حتى حين ذهابي للعب ومعرفتها أني سأعود متسخ الثياب، إلا أن هذا لا يعنيها المهم لديها أن أكون مختلفًا، تجلس معي لعمل الواجبات المدرسية، كانت متعلمة وتجيد الانجليزية والفرنسية بطلاقة بالإضافة إلى اللغة اليونانية بالتأكيد، كانت هي من تتابع دروسي، حتى الدروس التي يأتي مدرسوها للبيت من أجلي، تجلس على مقربة تنصت جيداً، بعدها تسألني بموضوعات الدروس بشكل يفيد أن الدرس كان موجه لها أيضًا، كانت دائما متجددة، ما من لحظة إلا وكانت كاملة الأناقة، خفيضة الصوت لا يتذكر أن صوتها كان عاليا إلى أي حد يوما ما، كانت الرفاهية التي تميزه عن الآخرين سببًا كبيراً في أن صداقاته كانت محدودة ومع أبناء رجالات البلدة الكبار، وإن تقارب مع البعض من الآخرين إلى حد ليس بكبير، كل شيء كان يسير بهدوء ، إلى أن فوجئ وهو بحدود العاشرة بأبيه يحدث أمه ذات ليلة ويخبرها أنه اشترى بيتا بالإسكندرية وبعض المحلات والمخازن، تجارته اتسعت وما عادت القرية تناسبهما، وأنه بدأ بعرض ممتلكاته للبيع، في غضون شهور قليلة كان قد تخلص من كل ما يملك، بالطبع لم يفرط بها إلا بالسعر الذي يرضيه، كان يوماً

صعباً جداً عليه، أن يغادر بلدة عاش بها وله أصدقاء فيها، ودعهم بكل ألوان البكاء والنشيج، وبالطبع أصر على مصاحبة صديقة الأثير (محمود القفاص) رفيق رحلة عمله ومن أتى به للقرية، ظل أياماً حبيس حجرته الجديدة، رافضاً الخروج، رفض حديث الأب والأم، وأن الحياة رحلة بها طرق متعددة وأنها ليست أحادية المنهج، ظل لأكثر من أسبوع مصرا على عزلته، حتى أنه رفض الذهاب إلى مدرسته الجديدة، المدرسة الأجنبية التي اختارتها الأم من خلال مقترحات صديقاتها التي تثق بهم ثقة عمياء وتعرف أنهن من الطبقة المخملية الحريصة على وجود أبنائهن بمدارس ذائعة الصيت من أجل تعليم جيد مع هدف آخر غير معلن، وهو نوع من التباهي الاجتماعي، تصاعدت تجارة الأب بشكل غير متوقع، مارس كل صنوف التجارة، الأخشاب، السلع الغذائية، بل زاد أنه قام بعمل ما يشبه بورصة القطن، كل يوم كان يمر كان يغترف ثراءً، ولكن لأن الأمور لا تكتمل، وكما يقول أصدقاؤنا المصريون، لكل إنسان أنصبته المحددة من عند الرب، تجد النصيب الأكبر قد يكون ثراءً، وقد يكون صحة، وقد يكون أولادا ناجحين وبارين، الأب نال حظة ثروة وصيتا ذائعا، حتى صار محل حسد من الكثيرين، كانت الأقاويل المتداولة بين صغار التجار دوما جملة معتادة.

- جاور أو تعامل مع (ديموس) تأتيك رياح الربح بلا توقف.

كان كل شيء يسير بلا منغصات، ويبدو أن الأب مكتوب عليه أن يفقد الزوجة، وقد ورث منه هذه الصفة، عرفت أنه كان متزوجا غير أمي، وماتت بعد فترة صغيرة من الزواج، وكان يرفض الزواج بعدها، ولكن بضغوط من الطائفة اليونانية تزوج الأم، الأم أصيبت بلا مقدمات بمرض احتار به الأطباء، كثرت تشخيصاتهم، ما بين أن هناك تلفًا ببعض شرايين القلب، وبين أن هناك عطبًا بالكلى، وما أشبه ذلك من تشخيصات، أبي لم يترك طبيبًا شهيرًا إلا وذهب بها إليه، تضارب التفسيرات لحالتها أحدث بلبلة للأب، ترك عمله وتفرغ لها ولتمريضها، ممرضات لا يغادرن البيت الأربع وعشرين ساعة، كل يوم يمر تزداد حالتها سوءًا، لم يجد بُدًّا من السفر بها إلى لندن من خلال صديق له مقيم هناك أرسل له كل التقارير، ذهب بها، وكانت الصدمة أن الحالة متأخرة للغاية، وما تشكو منه كان ورمًا بالمخ، لم تمكث سوى أيام وذهبت روحها إلى عنان السماء، عاد الأب مرافقا جثمانها، أقام لها عزاءً كنيسيًا يليق بها، جاء للتعزية الجميع من كل الأديان، مسلمين ومسيحيين على كافة انتماءاتهم الكنيسية، وربما وجدت بعد الملل الدينية الأخرى، فكان الكل بينهم ألفة، الدين لله والوطن للجميع، الكل ينتمي لوطن واحد

يعيشون به، عندما وصل إلى هذا الحد من الذكريات طفرت دموعة، ونهنه بصوت مسموع، لم ينتبه إلى وجود الجميع يحيط به، أخذه (رضوان) بصدره يحتضنه بقوة، ولكنه لم يسأله عن أسباب بكائه، البكاء نحن كثيرًا ما نكون بحاجة إليه لغسل رواسب هموم وأحزان تسكن الحشايا، أخذ يروى له بعض المواقف المضحكة حدثت لهم أثناء الطفولة حتى استطاع أن يجعله يضحك حتى كاد يستلقى على قفاه، أتاهم صوت (فابيو) يدعوهم للطعام، نهضوا متشابكي الأيدي، المائدة مليئة بعديد من أصناف الأسماك، كلها أسماك وبعضًا من الأرز بالسمك أيضاً، عندما لمح دهشتهم تحدث.

- فكرت أن وجبتنا الأولى أسماك نظرًا لأني أعرف أن أسماك الإسكندرية لا يعلى عليها، أيضا معرفتي أن (جوزيف) ابن (فابيو) ووالد الشابين عمل سنوات بمطعم شيراتون بقبرص اليونانية وكان متميزا بوجبات الأسماك، مؤكد وَرَّثَ بعض خبرته بالطعام لولديه اللذين رفضا الإقامة مع الأب وصمما على وجودهم مع الجد، الذي يمنحهم حنانًا وحوارًا واهتمامًا يفوق عطاءات الأب بكثير، فقلت لحالي، نمنح أنفسنا فرصة لمعرفة خبرتهم، يا إما نمنحهم ثقتنا بقادم الأيام وإما ننزع عنهم رداءً لا يناسبهم، وتعالت ضحكاتهم جميعا.

بعد الانتهاء من الطعام وتناول الفاكهة والمشروبات، طلب منهم الاستعداد للخروج لجولة سيرا على الأقدام ببعض شوارع المدينة الساحرة، رفضت الزوجتان مشاركتهم هذه الجولة نظرًا لعدم قدرتهم على السير لوقت طويل، هذا ما أعلن ولكن الخفي كان رغبتهم بالانفراد بأنفسهم لحديث يجمع بينهن بكل أريحية بغية التعريف بهن.

قبل أن يغادرا مال (لوكا) عليه، هامسا له.

- لا تحدد خط سير لنا، لتأخذنا أقدامنا وتقودنا إلى حيث تريد، فهي أيضاً أكثر شوقا للكثير، ربت كل منهما على الآخر وأسرعا بالخروج.

ما إن خرجا، حتى نهضت الزوجة وجاءت ببعض أنواع المسليات، طلبت من (كرستينا) أن تستفيض بالحديث عنها وبأي لغة تريدها ما عدا اليونانية التي لا تجيدها، تبسمت كلتاهما، وبعد لحظة شرود بدأت تتكلم.

- أولًا: أحب أن أعترف أني أشعر بعدم غربة بيننا، من اللحظة الأولى تولد بي هذا الشعور، الله يؤلف الأرواح والقلوب حتى لو لم يلتقيا من قبل، كنت لا أعترف بهذه المقولة، لأن لابد من معرفة على

أرض الواقع ليتم هذا، ولكن من الواضح أني كنت مخطئة، أما عني بلا إطالة، أنا ابنة لرجل تستطيعين أن تطلقي عليه ما يسمى بالرجل العصامي، اسمه (أنطونيو بارباس)، ابنة ولِيَ شقيقة كبرى وأخوين أصغر منى، وُلِدْنَا جميعا في قبرص بالجزء اليوناني منها، بمدينة ربما سمعتي بها، (ليماسول) مدينة جميلة بطبيعتها وطيبة أهلها، أبى بدأ عاملاً بسيطًا بأحد مصانع صناعة الأجبان، عمل به لسنوات طويلة، كان قليل الكلام، شديد التركيز بعمله يريد معرفة كل التفاصيل لهدف وضعه نصب أعينه، لم يفصح مطلقًا لأحد عن هدفه وطموحه حتى لزوجته، ظل هذا حبيسًا داخله حتى جاء يومٌ وأعلن أنه سيترك العمل، يومها خبطت أمي صدرها بشده، وأظن أن هذا الفعل تتساوى به كل نساء الأرض، وتسمرت بموضع جلوسها، وعلت وجهها كل علامات الوجوم، قابلها ضحكة مجلجة من أبي زادت من دهشتها ووجومها، ونطق وجهها حينها بسيؤال، هل تعرض الزوج للوثة عقلية فجائية؟، لم يطل الأمر طويلا، فقد يحدث لها ما لا تحمد عقباه، قربها منه، ضمها إلى صدره وربت عليها بمنتهى الرقة، أشار إلينا أن نجلس محيطين بهما، كنت حينها بقرابة الثامنة عشرة من العمر، توزعنا بشكل عفوي حولهم،

ابن وابنة حول الأب والأم، احتوانا بذراعيه، يميل علينا يقبلنا، بعد هذا الطقس الدافئ والحنون أسريا تحدث.

– تعرفون أني بعملي هذا قرابة الربع قرن، من أول لحظة وأنا أضع برأسي أمرًا هو أن أكون يومًا صاحب عمل، وأن أكون مميزًا بما أختاره من عمل، عملت بهذه الشركة ولم أحدث جدلا أو مشكلة يوما، كنت أركز بعملي جدا وتفاصيله أود معرفه كل فنياته، نلت ثقة أصحابه ومن أعمل تحت إمرتهم، وهذا أتاح لي فرصة التنقل بين الحين والآخر بين العديد من الأقسام، كنت حريصًا أن أفهم كل التفاصيل الصغيرة قبل الكبيرة تحسبًا لتحقيق حلمي الرابض داخلي منذ أن وعيت وفهمت، وهناك أمر أخفيته عنكم أنني كنت أدخر جزءًا من مقابل عملي بشكل دائم لهذا الأمر، ومن قرابة الشهرين قمت باستئجار مبنى متسع محاط بمساحة فضاء، لن أقيم مصنعًا بالبداية، فهذا يحتاج وجود مال بشكل يفوق ما لدي حاليًا، سأبدأ بتجارة الجبن، وخطوة خطوة أؤسس لمصنع، وسوف أسعى لتعدد مصادر الأجبان، وبأمر الرب خطواتنا تسير بالاتجاه الصحيح، وهذا ما تم، أمي خرجت لمعاونته، ونظرًا لأمانته وصدقه وحرصه على تقديم الجيد فعليًا ذاعت شهرته، وراجت بضاعته، استعان ببعض الشباب لمعاونته، انتقاهم بعناية من الأهل

والأصدقاء، استمر هذا لقرابة الثلاث سنوات، بعدها جاء الوقت لوجود الحلم على أرض الواقع، بدأ بتنفيذ إنشاء المصنع على الأرض الفضاء الموجودة خلف المحل، بدأ به صغيرًا، هو من النوع الذي يؤمن بتحسس الخطوات لا التعجيل بها، الهدوء بصيرة وحنكة العقل، رويدًا رويدًا بدأ يتسع أكثر بأكثر، بدأ يزور المصانع الكبرى، يتعرف بملاكها يجرى معهم اتفاقات وبروتوكولات وعقود لحق توزيع منتجاتهم وأن يكون وكيلاً لهم، وهكذا دارت العجلة، المصنع صار عدة مصانع، بكل ربوع اليونان بشقيها، بل تجاوز حدودَها ببلدان أخرى مجاورة، عشنا رفاهية مطلقة، كل احتياجاتنا متوفرة قبل طلبها، بدل القصر أصبح لنا أكثر من قصر، وأماكن إقامة بأكثر من دولة ومدينة، عشنا بكل ما نصبوا إليه، تزوجت أختي الكبرى من شاب تعرفت به بإحدى حفلات المراقص، أحبته رغم الفارق الاجتماعي، أبى رجلٌ لا يعرف التَّزَمُّت، ويؤمن أن لكل إنسان خطواته المحددة سلفا، هذا راسخ بداخله، رغم أنه لا يرتاد الكنائس ولا يسمع العظات، ودوما يقول ضاحكًا، عندما نعود بصحبة والدتنا من الكنيسة أيام الآحاد.

– لماذا يوم الأحد تحديدًا، هو اليوم الأوحد لنكون بين يدي الله، ثم هل العظات التي تخرج من أفواههم شلالات بلا توقف يعملون

بها، كان يجب عليهم إيعاظ أنفسهم قبل أن يقذفوا بعظاتهم خارج أفواههم، والله كثرة الدعاة والوعاظ تثير قلقي، أغلبهم وعاظ ودعاة حسب مناخ البلد الذي يعيشون به، السياسات توجه كل شيء، ومن هنا تأتى المعضلات، الذي أعرفه أن الدين والعظات لابد وأن تخرج من الصدور بيقين تام من قائلها وليس ترديدها كعمل مقابل أجر. وفر لزوج اختي عملا لدية وأثبت كفاءته، وصارت أم وأنجبت طفلين منتهى الجمال، صارا هم الملاك الحقيقيون للأب والأم، أخواي مازال أكبرهم بالخامسة والعشرين ولم يرغب بالزواج بعد، أخذ كل صفات أبى من حب العمل والجدية، الأصغر هو من يعيش حياته طولا وعرضا غير آبه بشيء، ولكن للحقيقة يعود لرشده كلما جالسه الأب ويناقشه حتى يقنعه بصواب كلماته، أيام أو أسابيع ويعود لنزقه، أما أنا فقررت أن أدرس وأن تتصاعد خطواتي بمجال التعليم، من طفولتي وأنا أعشق الفن بكل روافده وجمالياته، أنا ما زلت أدرس للآن، أصريت على مواصلة التعلم، رغم محاولات (لوكا) بالاكتفاء بما درست، قال إننا لسنا بحاجة لشيء، قلت له قد لا نحتاج لطعام وشراب وملابس ورفاهية، ولكن أبدًا نظل بحاجة إلى التعليم، لأنه من يفتح أبصارنا ويجعلنا نقرأ جيداً مجريات الأمور، هذه حكايتي

قبل التعرف بزوجي (لوكا)، تناولتْ كوبًا من عصير المانجو المثلج وتجرعته دفعة واحدة، وكأنها تعيد إحياء وتنشيط أحبالها الصوتية، الصمت ران عليهما، (ناهد) كانت تنصت بشغف، (كريستينا) تحكى بعفوية كأنها تعرفها من سنوات، رغم الفارق العمري الكبير أشعرتها بالتقارب كأنها ابنة أو أخت صغرى، أكملت الحديث.

- أعرف انك متشوقة لمعرفة كيف تزوجت من (لوكا)، رغم الفارق العمري الكبير ، تتسألين كيف يقترن الربيع والخريف، لك حق فالفارق بيننا يتجاوز الثلاثة عقود، تعرفت به بحفل كان يقيمه أبي للشخصيات العامة والمؤثرة في كل قرارات الدولة، كان يعلن افتتاح إحدى شركاته الجديدة، التي كانت تتكاثر بل قولي تتوالد بشكل ملفت للنظر، أول مرة أراه بين حضور حفل لأبي، يجلس على مائدة تتوسط قاعة الحفل، أنيقًا للغاية، ينفث دخان سيجاره مستمتعًا، لاحظت أنه كثيراً ما يغمض عينيه، كأنه يهرب من شيء أو يستدعي مشهدًا معينًا، يجالسه صفوة رجالات الدولة، ما لفت نظري هذا الوقار الطاغي الذي سحب البساط من هذه الصفوة، شعرتُ كأنهم رعايا لديه، كلهم بحالة إصغاء تام له، يصمتون حينما يصمت، تتعالى ضحكاتهم لكلماته، عندما يخرج سيجارًا جديدًا،

يتسارع الكل بقدح زناد ولاعاتهم لكى ينالوا شرف هذا، تتمايل عليه الحسناوات وهو لا يعيرهم أي اهتمام، وكأنهم لا يتواجدون، أشبه بالضوء الذي يجذب الفراشات ولكنه يظل ضوءًا لا يتبدل ولا يتغير، بالحقيقة أحسست أن هذا الرجل هو ما كنت أبحث عنه وأنتظره، لا تسأليني كيف وأنا أراه للمرة الأولى؟، أؤمن بشيء هو أن الأشياء التي تأتي مصادفة ووليدة اللحظة تحمل بطياتها الكثير من السعادة، وخاصة الإحساس بالجاذبية والارتياح إن لم يأت بغته قد لا يكون صادقا بغالب الأحيان، صدقيني لو تعاملنا كبشر مع الأمور بعفوية لجننا أنفسنا من العناء الكثير، الانطباع الأول يعطيك إشارات جلية لتسير بطريق يأخذك لما تحلم به، أو يدفع بك الى ما لا ترغبه وتتمناه، أنت المسئول عن اختياراتك، وجدتني حينها أذهب إلى أبي الذي لا يجلس مطلقا إلا مجرد هنيهات ومع كل مائدة للترحيب، يظل رحالًا هنا وهناك، أقبلت عليه، أمسكت بيده، جذبته خارج إطار الدائرة المتواجد بها، أخذته بعيدًا عن الضجيج، وبلا مقدمات أو تلعثم رفعت يدى مشيرة إلى حيث يجلس، لم أكن أعرف اسمه، سالته.

– أبي، من هذا الرجل، لم أره من قبل، أرى أن حوله هالة كبيرة من الاهتمام والاحترام.

أجابني بضغطة على كفي، مطلقا ضحكة قصيرة، وضع يده على كتفي، حدثني أثناء السير.

– هذا هو المليونير (لوكا ديموس) إمبراطور السياحة، بل يمكنك القول من أباطرة السياحة بالعالم، كما أن لدية العديد من البازارات التي تبيع التحف والأنتيكات والوثائق التاريخية ببلدان كثيرة، وبعض التجارات الأخرى ، هل تودين التعرف إليه.

لم أجبه، وجدت قدماي تسير نحو مائدته، وأبي يلاحق خطواتي، كأن هناك قوة مغناطيسية لا أدريها تدفع بي إليه، أصبحنا قبالة مائدته، حيَّاه أبي، أشار إليَّ.

– هذه (كريستينا) ابنتى تود التعرف إليك.

وجدته ينهض مَادًا يده، أعطيته كفي، أُصْدِقكِ القول، شعرت بكهربائية تسري بكاملي، رفع يدي وقبلها مع إيماءة تحية من رأسه، خاطب أبي على الفور.

– كيف يا رجل يا عجوز لديك هذا الكنز من الجمال ولا تعرفنا به من لحظة الوصول، تخشى عليها عيون الحاسدين.

وأطلق بعدها ضحكة شديدة الصفاء اهتز لها جسده، وكأنه يمارس رقصة باليه، عاود الحديث.

– تسمح لي أن أسعد بتواجدها معي والاحتفاء بما يليق بجمالها.

أبي الذي زاد بريق عينيه لم ينطق بلسانه، نطق بإيماءة رأس مع ميل بالعنق، وتركني وانصرف، أشار إليَّ بالجلوس، فوجئت بالجميع ينصرف دون مطلب منه، البرودة احتلت جسدي، تناول كفى، أخذ يحدق بي، وأنا تائهة لا أكاد أشعر بأي شيء حولي، أخرجني من صمتي سائلاً على حين غره.

– جميلتي، بداية ماذا تأمرين من طعام أو مشروبات أو حلويات، حتى إن لم تكن متوافرة نأمر بإحضارها فورًا، كل ما هنا وهناك ملكك،

أصابني الذهول من لغته البسيطة المليئة حنوا وعذوبة، تمتمت بلا وعى.

– لا شيء سيدى يكفى شرف الجلوس بحضرتك.

وحتى يذهب عني الخجل والارتعاش سألني.

– تحدثي عنك من كل شيء، عن طفولتك، عن أحلامك وطموحاتك، لا تخفى شيء، سامح الله (أنطونيو) الذي أخفى عنا هذا الجمال، تكلمي كما تريدين لن أقاطعك، أود أن أسمع عزف كلماتك.

حقيقة شعرت أني بحضرة عازف يجيد انتقاء أحرفه، بالحقيقة حولني إلى شبيهة بمن تدخل الكنيسة بحالة صمت تام، تسمع فقط، أعاد طلبه أن أحكي له كل شيء، وبالفعل على مدار أكثر من ساعة، حكيت كل شيء، حتى الصغائر التي حدثت لي في سنين عمري حكيتها، وللآن لا أعرف تفسيرًا لهذا، كنت أتكلم وكأنني بحالة اعتراف لأحد الكهنة، لم أخجل من أي شيء، هو جالس صامت، ينصت مع توجيه نظراته إلى، هذا الرجل له كاريزما قلما توجد بالكثيرين، بعدما انتهيت أنهضني وأخذ يدي، توسطنا قاعة الحفل، أشار بإصبعه للعازفين إشارة غير مفهومة للجميع، ولكني فوجئت بعزف إحدى معزوفات اليوناني (نيكوس) الهادئة، التي جعلت الجميع بحالة من الصمت، كان يمسك بكلتا يدي، يتحرك جسده وقدماه مع إيقاع الموسيقى، لحوالي العشر دقائق كان العزف، بعدها وبإشارة أخرى وبحركة مغايرة، كانت موسيقى راقصة عالية الصخب، خاصرني كلاعبي بالية، وأخذ يراقصني، الحضور صنع دائرة حولنا، جثا البعض على ركبتيه، كان غاية بالرشاقة حتى أنا لم أستطع مجاراته، كلما انتهت المعزوفة طلب تكرارها، أُصْدقك القول أُنْهِكت تمامًا، وهو كأنه عاد ببدايات العمر، بعدها وبإشارة أخرى أنهى الأمر، وكأنه متفق مع الفرقة على مغزى هذه الإشارات، تبطأ

ذراعي وسار بي إلى أبي، أخذ يدَ أبي وجعلها تحيط بخصري، قائلاً بضحك صاخب.

- (أنطونيو) أعدت إليك جوهرتك، إحذر أن تتعرض لحظة لذرات الغبار، هي من الآن تحت رعايتي، وأولانا ظهره وخرج مغادرًا، تاركًا لنا جميعًا الآلاف من علامات الدهشة والتساؤلات، مضت أيام لا أعرف شيئًا عنه وإن كنت أفكر به كل اللحظات، ولكنى لم أجرؤ لحظة أن أسأل عنه، بيوم فوجئنا برنين جرس القصر، سارع أحد العاملين بفتحه، وجد من يحمل صندوقًا من القطيفة الفخمة يطلب تسليمها إلى الآنسة (كريستينا)، وسط خطوات متعثرة تكاد قدماي تلتف حول بعضها ذهبت لأخذ الصندوق، كان ثقيلاً لحد ما، وقعت بالاستلام وعدت كل النظرات موجهة إلي، الأب والأم والأخوة، اليوم كان إجازة أسبوعية، جلست بينهم، نظراتهم كانت تنادى بسرعة فتح الصندوق، فتحته بهدوء، وكانت المفاجأة، كان هذا العقد الذي يزين صدري من لحظتها لا يغادرني إلا بساعات نومى، وأول لحظات صحوي أول شيء أنظر إليه هو هذا العقد، وبتلقائية داعبت العقد، أكملت، كان العقد كما ترين تحفه فعلا مكون من حبات متشابهة فيروزية اللون، كل حبه تحمل حرفا من اسمى،

بدون إرادة صرخت فرحة، المفاجأة أكبر من خيالي، وجدنا مظروفا بالصندوق مغلف بأقصى درجات الفخامة، تناوله أبي، فتحه مجرد أسطر.

- (أنطونيو) صديقي العجوز، ما أخبار وصيتي التي حملتك أمانتها، لعلك عملت بالوصية، هل تأذن لي بمصاحبتها بسهرة تكون هي ضيفة شرفها، الساعة الثامنة سوف آتي لمصاحبتها إن أتت موافقتكم تحياتي، مزيلة بتوقيعه (لوكا ديموس).

لم نكن نعرف أن حامل الصندوق مازال قابعًا أمام الباب إلا بعدما دق الباب، وجدناه قال على الفور.

- سيدى ينتظر الرد.

تنقلت أبصارنا بين وجوهنا دهشة، ما هذا الرجل، وما تفكيره؟، أبي كتب كلمتان على الورق، نرحب دوما برغباتك.

عند الثامنة تمامًا أو قبلها بقليل جاء بسيارته المكشوفة والتي علمت فيما بعد أنها من بين ثلاث سيارات فقط بالدولة، قمة بالأناقة، رائحة برفانه ملأت القصر بعبقها، كانت أمي قد نهضت من لحظة قراءة الخطاب، تنتقى لي ثوبا يبرز جمالي ومناسبًا للمناسبة، وأشرفت يومها على حمامي وكأنني عدت طفلة صغيرة، أشعرتني كأني مقبلة

على ليلة زفاف، رغم الفرحة إلا أن القلق كان يمزقني، لماذا أنا؟ رجل مثله له وجود قوي بالحياة لماذا اختارني وباستطاعته الحصول على من هي أكثر جمالًا، استقبلني على آخر درجات السلم الهابط من الدور الأعلى من القصر والمخصص حجرات نوم، تناول يدي وقبلها، اشتعلت دمائي ، سار بي والكل يودعه بأطيب الكلمات، اكتفى بإشارة من أصابعه مودعًا، سارت بنا السيارة بسرعة رهيبة، لف بي كل شوارع المدينة الرئيسية والفرعية، صارحني فيما بعد أنه أراد أن يشهد المدينة على حبه لي بل قال إنه فكر أن يصيح ويعلن حبه، ذهب بي إلى حفل ضخم بأرقى فنادق المدينة، سرنا بين صفين من مدعويه الأصدقاء وزوجاتهم، رقصنا وضحكنا بما لم أفعله من قبل، للحقيقة لا أعرف تفسيرًا لهذا للآن، هذه الليلة لا تغيب عني، كلما تذكرتها رغم مرور ما يقرب من الخمس سنوات هي عمر زواجنا تعيدني إلى طفلة صغيرة مدللة للغاية، أحسست كأني أحلم، أو أعيش عصر الحكايات التي رويت لي من جداتي وأمي، نصف ساعة لم تزد، جذبني من يدي، هرول بي خارجًا، بل فعل شيئًا مجنونًا، حملني بين ذراعيه، ووضعني على مقعد السيارة، أسرع بنا إلى الشاطئ، اختار مقهى يقع على يابسة داخل البحر، المكان يعج بالعديد من الناس، اختار ركنًا قصيًا هادئًا وبعيدًا عن الضوضاء،

جلسنا أشار إلى أحد العاملين، مال عليه هامسًا بأذنه، قليل من الوقت وأتى بطابقين من الشيكولاته، مع عصائر مختلفة، ما لفت نظري يومها أنه لم يطلب مشروبات روحية مطلقًا، أمسك يدى بين كفيه، أخذ وقتًا طويلاً يحملق بي بلا حديث، أشعرني كأني بمشهد من مشاهد السينما الراقية، تعرفي تخيلته لحظتها (كلارك جيبل)، ظل ساهمًا طويلاً، اكتفى بالنظر إلى وجهى، تحدث.

– مثلما فتحت كتابك لي، سأفتح كتابي أمامك، قبلها سوف أخبرك أمرًا أنا مندهش به، لماذا أفتح كتابي الآن ولك أنت، رغم أني من أنصار أن لكل إنسان صندوقًا خاصًا يجب ألا يظهر لأحد على الإطلاق مهما كانت الصلة بينه وبين الآخرين، ولكنى أجد نفسي مندفعًا لأن أفتح كل شيء لك، ولا أعرف سببًا سوى أني أريد هذا وبشده.

ليلتها تحدث عن كل شيء، ولا أظنه أخفى شيئًا، كانت جملته التي افتتح بها حديث، ما زلت أذكرها للآن، أنا مصري أرتدي زيًا يونانيًا، المصريون يقولون أن من يشرب من النيل لابد وأن يعود إليها، وأنا أزيد على هذا، أن مصر روحًا تسكن من يولد على أرضها ولا تغادر أبدًا، وأنا أحيا بهذه الروح، خطواتي تسير وفقها، ثم تكلم عن الأب وزوجته الأولى، وهجرته للمدينة وعيشه بالريف،

وتجارته ونموها، والزواج بوالدته، والسنوات التي عاشها بالريف، وأصدقائه وزوجك أولهم دومًا يكون مذكورًا بأي نقاش وآخرين، والانتقال للإسكندرية، عن وفاة أمه. عن هجرته، عن زواجه الأول من (إيلينا) أم ولديه التي توفت بعد خمسة عشر عامًا من الزواج ، عن(جون ، مارك) ولديه اللذان ذهب كل منهما في طريق بعيدًا عن الآخر، رفضًا تمامًا أن يظل تحت رداء الأب وثروته، طلبا أن يشقا طريقهما وحدهما وأظن هذه سمه دائمة الوجود لدى أبناء اليونان، حب المغامرة وإثبات الذات، يتابع أخبارهم عن طريق علاقاته بمقار إقاماتهم، وزيارات لأيام لا تعد ومكالمات هاتفية، وصور لأحفاده، رفض الزواج ثانية خشية أن يكون شبيها بأبيه، بصراحة سكب ذاته أمامي، كنت أفرح حينما تنفرج شفتاه عن ابتسامة، وامتعض عند رؤيتي تغضُّنَ قسماته بنوع من الأسى، لم نشعر إلا ببزوغ فجر اليوم التالي دون أن نشعر بالوقت، أعادني للقصر، دخلت إلى حجرتي ارتميت على فراشي بكامل ملابسي، وذهبت بنوم لم أعرفه من قبل، صحوت نشطة جدًا جدًا، للمرة الأولى في حياتي أجلس وسط الأسرة على مائدة الطعام، وأتناوله بشهية وبلا تحفظ، أنا بطبيعتي حريصة على رشاقتي، كل شيء بحساب تام، طال غيابه ولم أحاول أن أسأل أبي عنه، كنت نهبًا

للقلق، لما لا يتصل أو يأتي، حاولت تناسيه، رجل مر ورحل، ولكن كل غيابه كان يخفي الأمر الكبير، بلا مقدمات ذات مساء أتتنا دقات الجرس، ما إن فتح إلا وشاهدناه واقفا ومن خلفة ثلاثة شباب، يحمل كل منهم بعض الصناديق، أقسم أني عرفت أنه هو من عطره، ما إن رآه أبي إلا ونهض مهرولًا مصاحبًا معه كل ألوان الترحيب من كلمات وإشارات، لم ينتظر الدعوة للدخول، دخل والغريب أن أبي كان بأعقابه، أشار للشباب أن يضعوا ما يحملون على أقرب مكان، سار إلى حيث تجلس أمي، تناول يدها طبع قبلة على يدها محنيًا رأسه، برنسيسًا تمامًا، أشار أبي له بالجلوس، اختار أن يجلس متوسطًا الجميع، وبلا مقدمات وبأسلوب منمق هادئ وبصوت غاية بالخفوت قال.

(أنطونيو) العزيز، بلا تمهيدات أرى لا داعى لها أود زواج ابنتك (كريستينا).

الجميع حينها ألجمت المفاجأة لسانه وكامل محيط الوجه، أنا وجدت نفسى أنهض وأهرول إلى حجرتى، تابعنى بكلمات.

– أنتظر الرد قلا تغيبي عنى به.

أتصور أنه لم ينتظر الرد طويلا، أنا ألقيت نفسى على الفراش، مشتتة الفكر، تتناقض الأمور بداخلي، هل هو مناسب لي؟ وماذا عن رد أبي؟، وكثيرًا من التساؤلات، أفقت على صوتِ أخٍ لي يدعوني للحضور، وجدت نفسى كمن يسير مثل المنوم مغناطيسيًا، أشار لي أبي بالجلوس، ما كدت أجلس حتى بادرني بالسؤال.

- (لوكا) يطلبك للزواج، ومصرّ يسمع الرد منك أنت قبل ردنا نحن، قال إن هذا ما تعلمه من مصر بغالبية العائلات المصرية، ولكنه يكون على نحو آخر، أن الأب يطلب وقتًا للرد، يتناقش مع كامل الأسرة، ويأخذ رأى العروس، هو يريد رد العروس أيًا كان، حتى لو كانت خجلى، كانت كل النظرات مصوبة إليّ، والشفاه تنادى رُدِّى، أنا جمعت بين النقيضين بحال واحد، بسمة شفاه وإشراقة وجه، مع تساقط بعض دمعات، فهموا الجواب، تعانق هو وأبي، رجل المفاجآت مازال في جعبته الكثير، كان طول الوقت يضع على ساقه، صندوقًا مغلف بغلاف بنفسجي حريري، بعد المعانقة والتهنئات، أشار لنا بالهدوء قليلاً، بدأ بفك أشرطة رباط الصندوق بهدوء تام، يرفع عينيه ويرسل ابتسامة إليّ، فتح الصندوق وأخرج علبة قطيفية شديدة الفخامة، مرسوم عليها طفلين صغيرين متعانقين، فتح العلبة على سعتها، ندت عن الجميع آهات

وصيحات فرح، فكانت مجموعة من المجوهرات فوق التخيل، عقود تتناسق مع بعضها، خواتم وأساور، قدمها إليَّ، تناولتها بأيدٍ مرتعشة، لم يعطني الفرصة، تناول العقود وأخذ يطوق عنقي بها، كانت مجموعة تكمل بعضها على شكل طبقات، جلس بعد أن قبل جبيني مما أصابني برعشة شديدة انتفض لها جسدي، تحدث بعد تناول مشروبًا مثلجًا.

– أنا لو لم ألمح ارتياحًا لحد كبير من (كريستينا)، وهذا ليس غرورًا بل هو ما تعلمته من سنواتي، الارتياح بداية الأشياء الجميلة، أنا هكذا، أسير حسب ارتياحي والحمد لله لم يخذلني للآن، لذا أقدمت على هذا الطلب دون تمهيد، لست متمتعًا بعادات الغرب رغم عيشي به كل عمرى، أنا فعلت ما رأيته بحياتي في مصر، ولا تندهشوا أني مازلتُ متذكرًا لأساليب حياتهم، دومًا يقولون ادخلوا البيوت من أبوابها، وليس قفزًا من نوافذها، لذا أنا جئت دون أن تعرف أو تتوقع. أظنك سيد (أنطونيو) تعرف عنى الكثير، أنا ما أريد إضافته، أني لن أجعلها أو أجعلكم نادمين، كونوا على ثقة تامة من هذا، كانت ليلة بهيجة، كان قد قام قبل حضوره بترتيب حفل بقاعة راقية وكأنه كان على ثقة من طلبه، طلب أن يكون الزفاف بغضون شهور قليلة لحين إعدادَ قصرٍ خاص لم ولن تدخله امرأة

أخرى مطلقا، وقد كان، لم يتغير هو متجدد حتى بمشاعره ، لم يحدث يومًا أن تسبب لي بأي إيذاء نفسي أو بدني على الإطلاق، جبت معه العالم، كل لحظة أزداد تعلقا به، فقط أغار دومًا من دوام حديثه عن مصر، أغار ولكنني لا أنكر أنني ازددت شوقًا لها، والآن عرفت السبب، رغم مرور يومان فقط إلا أنني أشعر أنني أعرفها، ها هي حكايتي، ما يؤرقني عدم إنجابي منه، كم أحلم بهذا، فاجأتها بسؤال.

– هل للرجل وقت تتوقف به قدرته على الإنجاب ؟

أجابتها بضحكات عالية، أخذتها بحضنها وأجابت.

– لا يا حبيبتي، هذا أمر يخص النساء فقط، الرجل يظل قادرًا على مدار عمره، أعرف أحد أقربائي أنجب وهو بالثمانين من العمر من ثالث زوجاته التي كانت تصغره بأكثر من أربعين عامًا، فلا تقلقي لكل شيء وقته المحدد سابقًا.

حدثتها عن قصة زواجها التقليدي أو ما يسمونه زواج صالونات، صارحتها وقالت أن هذا تقوله للمرة الأولى، أنها كانت كثيرة التخوف من مثل هذا الزواج، وكانت تسمع دومًا مقولة أن الحب يأتي بعد الزواج، ولكن ما سمعته من حكايات وهى بسنها الصغير

أن هذا قول ليس صحيحًا إلا بحالات نادرة، فالغالب أن الزوجة تتحول بكثير من الأحايين إلى مجرد ديكور حياتي، أو إحدى مكونات منزل الزوجية، ولكن وبكل الأحوال هناك لكل قاعدة استثناء، وتحمد الله أنها حظيت بهذا الاستثناء، (رضوان) كان على مستوى حلمها وأكثر، بل كل يوم يزيدها وَلَهًا وعشقًا له. وأخذتها بصدرها وأنامتها على ساقها، تداعب خصلات شعرها وكأنها ابنتها التي لم تنجبها، غفت وهي على هذا الحال.

..١١..

خرجا من البيت كل يضع ذراعه على كتف الآخر، يسيران كما كانا يسيران وهم صغار، خطوات متراقصة، تناسيا سنوات العمر الملقاة على كواهلهم، كان (لوكا) يعاود إطلاق صفيره المنغم، غريب هذا الرجل، لم ينس شيء من الأمس، أخبره أنه ببداية الجولة يريد الجلوس على إحدى مقاهي الحوارى، وعندما وجد علامات تساؤل، باغته برد.

- إن أردت أن تعرف كيف تسير الأمور وتعرف الشعوب على طبيعتها وبلا رتوش اقترب من الشرائح الكادحة، هم العنوان الحقيقي دون أي محاولات تجميل أو مكياجات، لا تأخذ الحقائق من السيارات الفارهة، والثياب الفاخرة، أو الشوارع المتسعة والبنايات العالية، ادخل الأزقة والشوارع الضيقة التي لا يمكن أن يمر بها أكثر من شخصان، المليئة بالحفر والمياه الراكدة، بالرجال الجالسين على مقاعد بها عرج وتشوهات من آثار الزمن، يدخنون السجائر بشكل يشبه الهستيريا، السيجارة تعقبها أخرى، سلسلة لا تتوقف، مع الإرجيلات، ينفثون الدخان، لكل منهم طريقته في نفث دخانه، لا تستهن بأي تفصيلة أو حركة من حركات هؤلاء البسطاء، ألا يقولون: خذ الحكمة من أفواه المجانين، وأنا أضيف،

اعرف سير الحياة بأي وطن من الوجوه المعروقة المتنافرة والمعفرة دوما.

– لك حق هذه حقائق لا يمكن تجاهلها، البنايات الفخمة والسيارات الفارهة والبذلات شديدة الفخامة، تعطى تقاريرًا ليست حقيقية على الإطلاق ،تقاريرًا أشبه بالتقارير التي يعدها المسئولون للقيادات تحمل كلمة دائمة، كل الأمور على ما يرام، والحياة تسير وفق ما نريد، رسالة دائمة الترديد، وللأسف يدفع ثمن زيفها الشريحة الكبرى من المجتمع، وللأسف أيضًا نجيد دومًا التصفيق لكل ألوان الزيف وغير الحقيقي.

جلسا على مقهى بحارة لا منافذ لها، مغلقة من نهايتها، فاجأه أن يطلب كركديه مثلج، كان يتنقل بعينيه بين الوجوه المحيطة بهم، وآذانه تلتقط حكاياتهم، رغم غربته الطويلة، لم يفقد قدرته على التعامل باللغة العربية، يشارك من يضحك ضحكاته، يدخل بنقاش بأمر عام مثار، لفت الأنظار بلكنته المزيج بين العربية والأجنبية، ظلا لما يقرب من الساعة، ثم نهضا للسير بحارات مجاورة، هو مُصِرٌّ على رؤية الوجه الحقيقي لما لا تريد السلطات إبرازه، رغم أن الوقت ليلا إلا أنهم وجدوا النسوة يجلسن على العتبات ومداخل البيوت، يلتففن حول بعضهن، يتناوبن الحكايات، تخرج

الضحكات من الصدور مجلجلة رغم علامات الأسى وشظف العيش الذي يبدو من قسماتهن، كان يشير إلى التجمعات قائلا.

– هؤلاء يا عزيزي هم الحقيقة، هم العنوان، اسأل نفسك، لماذا هم يعيشون اليوم بيومه؛ لأن لديهم قناعة ورضى، وهذان يجلبان البركة، بالطبع لست مؤيدًا لهذا الخنوع، لابد من السعي لتغيير الواقع، ولكن أؤيدهم ببساطتهم، البساطة تطيل الأعمار، مؤكد تقول ما هذا التناقض، مؤيد وغير مؤيد، ولكن ماذا يفعلون وظروف الحياة لا تمنحهم فرصة السعي للتغير.

ظلا يسيران بلا هدى، لا يريد تغيير وجهات قدميه، السير بالمناطق الشعبية والعشوائية محبب له، هو افتقد هذا الجانب المعتم من الحياة، ظل حبيس حياة كلها أضواء شديدة تبهر العيون، تخفى الكثير والكثير من الحقائق، حبيس مجتمع لا يجيد إلا فن المجاملات المعلبة سابقة الإعداد، يرددونها كببغاوات، للحصول على هبات ومصالح ومكاسب من كل صنوفها، لا يعينهم مطلقاً إراقة ماء الوجه. الآلاف وملايين المرات، الحياة التي تسير كما رسم لها، أشبه بمسرح كل يعرفه دوره المرسوم وخطواته أين ومتى تتحرك وكيف، هو دومًا يقول إن هذا المجتمع لا يجد أوكسجينًا ينعش مسامه، بل هو أدمن ثاني أوكسيد الكربون، فكل شيء بهذا العالم

الآلي لا يضخ ولا يسمح بمرور هواء نقي، كم اشتاق لهذا العالم البسيط، عندما كان يخلو إلى نفسه كان شريط طفولته هو دائم المرور أمام عينيه، الطفولة بالقرية تحرر، عفوية مطلقة، لا يمر منتجها الحياتي واليومي على مكسبات الطعم وتغليفها بما لا يتناسب مع طبيعتهم، آه آه، لماذا نهرول وراء المصطنع والمفتعل والمعلب؟!، أصبحنا ننساق للنداهات المستحدثة، التي اخترقت الكثير من أحلامنا البريئة والنقية، أصبحنا نستمرأ ونبيح لأنفسنا كل المحظورات لإشباع شهوة المال والسلطة والهيمنة والسيطرة والإمساك بتلابيب عموم البشر، أقدامهم قادتهم للشاطئ، جلسوا على صخور ناتئة، فتح أزرار قميصه للنهاية، قلده هو الآخر، يشعر أنهم يعيشون لحظات صعلكة تمنياها من زمن بعيد، الإنسان دوما به حنين للطفولة، لفعل أشياء لا يستطيع إتيانها وهو بهذا العمر، طالت ساعات صعلكتهم، وعندما شعرا أن الوقت قد طال بهم، وأنه لا يمكن فعل الأشياء المرجوة دفعة واحدة، عادا مثلما ذهبا، الأيدي تحيط كتف كل منهما، خطوات موحدة، متناغمة ذات إيقاع واحد، دخلا إلى البيت، طالعهم نوم (كريستينا) على ساق (ناهد) وتداعب وجهها بحنان بالغ، الدهشة أخذتهم وتبادلا النظرات الباسمة، لم يريدا أن يزعجا هذه اللحظة، اكتفوا بإيماءة رأس قليلة،

ودلفا بهدوء إلى الشرفة، كل منهم جلس على كرسي هزاز، يتمايلان يمنه ويسره، أغمضوا العيون إستدعاءً لذكريات تاهت في خضم الحياة، ولكن النعاس أخذ منهما وهما على هذه فلبيا مطلبه، لم يستيقظا إلا على أصوات الآذان تأتى من كل الجنبات، وقف (لوكا) على السور لمشاهدة الهرولات من كل الأعمار إلى المساجد، والجلباب الأبيض يسود الملابس، تبسم لوحة إلهية عفوية استجابة لأمر المولى عز وجل، ما أجمل أن نهرول بكامل قناعاتنا وإرادتنا.

جاءهم اتصال هاتفي من (عبدالله التحيوي) يخبرهم أنه وصل القاهرة وسوف يمضى يومان لإنهاء بعض الأمور الخاصة، وعليهم أن يتجهزوا للذهاب إلى الغردقة، وعليهم استئجار مينى باص للسفر، هو لا يرحب بالسفر بسياراتهم ولا يتحمل القيادة لوقت طويل، تبادلا الحديث معه بمداعبات لبعض الوقت، ذكراه باسمه (عبودة)، القرية بكاملها كبيرها وصغيرها، من يعرفه حتى من لا يعرفه كان يناديه به، حتى أباه ينادونه (أبو عبودة) رغم أنه ليس الابن الأكبر، هذا الاسم الذي ظل مرادفًا له حتى سئم منه وفر منه هاربًا إلى بلدان شتى، حتى استقراره من قرابة الربع قرن بالعاصمة الفرنسية، وإن كان يتنقل بين بلدان شتى، اختار عالم العطور مجالا لعمله، منذ صغره ووجد به ميلاً لعالم الروائح والعطور، ربما لعمله

منذ أن كان بالعام العاشر أو أكبر قليلا بأحد محال العطور بالمنصورة، يملكه أحد أبناء القرية التي هجرها وأقام تجارته والتي بدأها موزعًا متجولًا يوزع إنتاج العطور على محال متناثرة، وأحيانا بمدن مجاورة، حتى استطاع بسنوات قليلة أن يكون له محله الخاص، ومع السنوات ازدادت خطوات نجاحه، حتى وصل إلى أن يكون الموزع الأوحد بالمحافظة، وهكذا دارت العجلة حتى صار موزع لكبريات الشركات العالمية الكبرى، عمل معه كل فترات الإجازات الصيفية، من باب تعود وتحمل المسئولية، مع الخبرة الحياتية من خلال التعامل مع أنماط متعددة ومختلفة من البشر، والأهم من هذا هو نزع عباءة الاسم المرفوض منه، فلا أحد يعرفه بالمدينة، لذا عشق المدينة والمدن، ظل يعمل طوال سنواته حتى انتهى من دراسته الجامعية، كان قد فهم كل ما هو يخص هذا العمل، التركيبات والنسب بدقه، كيفية التسويق، وضع هدفاً أن يعمل بهذا المجال وأن يصل إلى مصاف الكبار، كان يراقب عن كثب الفنيين الذين يقومون بتركيبات العطور، كان أيضًا كثير التساؤل، ألم بالكثير من المعلومات، في سنوات تالية بحث عن كتب تتناول هذه الصناعة، انغمس بها تمامًا، أصبحت هوسه الأول، طلب ذات يوم من صاحب العمل أن يمنحه بعضًا من المنتجات،

يقوم بتوزيعها لحسابه الخاص دون أن يؤثر هذا على عمله، الكل كان يشيد به وبالذكاء الذي يغلف تصرفاته، كان يفصل بين حياته بالمدينة وحياته بالقرية، القرية أسرة واحدة الكل مترابط مع الكل، الوجع واحد، الفرح واحد، تشعرك الحياة بها أنك دوما تحت الأبصار ومجهرها، كل خطوة وكل التفافة وكل تصرف وكلمة رهن التدقيق والفحص، أنت دوماً محاصر، لك خط ومنهج لا يحق لك أن تخرج عنه أو تتمرد عليه، وإن أعلنت تمردًا أصبحت عاقًا خارج عن تغريد السرب، المدينة براح واسع بلا حدود، كل مشغول بذاته، لا رقيب عليك إلا ربك وضميرك وعملك، حرية منفتحة، قد تكون بلا حدود وبالتالي افعل ما شئت شريطة أن لا تتعدى على حريات الآخرين، وقد تكون مقننة ومقيدة لها أيضًا خطوطًا مرسومة ومحددة، ولكن بلا أن تكون تحت أعين الجميع، الحياة بلا حرية مثل الجسد بلا روح، آمن بهذا القول ويسير عليه حتى الآن، كان يعيش العالمين بمنتهى الإتقان، يوم أجازته يخرج كل تمرده المكتوم والمقموع، يمارسه بكل ما به، يلتقى بأصدقاء الحى والقرية والمدرسة، يحكى لهم عن الأيام الماضية، يتباهى بأنه قد تمكن من فهم جزئيات عمله، يحكى لهم عن المدينة وشوارعها وبناياتها، عن نساءها وعن أماكن اللهو وما بها من سبل الترف، الكل ينصت له

وبه حنين أن يرى هذا فعليا، يلعبون الكرة حينا، يذهبون لصيد السمك حينا آخر، يلعبون لعبة الريف السائدة فى هذا الحين (السيجة) الشبيهة بلعبة الدومينو الفارق أن الأولى أدواتها حجارة، يمارسون الهيولات والمداعبات، يعودون إلى منازلهم وقد نالوا حصة كبرى من السعادة والحرية، وعندما انتهى من دراسته الجامعية كان قد قرر السفر إلى أوروبا، كانت نداهة الغرب قد تملكت منه، كان كثيرًا ما تأتيه فرصة سماع بعض قصص أبناء بلدته الذين سافروا من سنوات وعاشوا حياتهم ونالوا قسطًا كبيرًا من النجاحات، بلدته وغالبية بلدان محافظته معروف عنها دوام هجرة الأبناء إلى أوروبا، الوجهة الأولى والهدف الرئيسي هي فرنسا، يعملون بمهن متعددة أغلبها أعمال المعمار وتجارة الخضروات والفاكهة، قريته لا تختلف عن قرى كثيرة، السفر منح أهلها القدرة على أن يخرجوا خارج إطار القرية التقليدي، الزراعة وبعض نشاطات محدودة، أصبحت بها مشروعات تجارية متعددة، وبنايات على كل الطرازات المعمارية، وسيارات فارهة، حياة قاربت إلى حد كبير حياة المدن، رغم أنها أيضا أسيرة الإطار الريفي بكل طقوسه، بباريس عاصمة النور كما يسمونها، عمل بكل ما يخطر على البال ولا يخطر على البال، كان مؤمنا أن مزاولة أي عمل له ناتج يفيده

بحياته، الأعمال حتى لو لم تجمع بينها أي شراكة هي بالتأكيد متكاملة، سلسلة متشابكة، إلى أن توصل إلى إحدى الشركات المتخصصة في صناعة العطور، التقى بمسئوليها وتحدث معهم، بالتركيبات العطرية ونسب كل جزء منها، وأضاف إليهم بعض تركيبات مصرية لم يكن لديهم علم بها، حاوروه لساعات، ذهبوا إلى معلوماته شرقا وغربا وبكل الاتجاهات، وجدوا منه ثباتًا فكريًا وانفعاليًا، رحبوا به، ألحقوه بالقسم الفني وقالوا له أنه تحت الاختبار لشهر وبعدها يقيمون عمله، الغرب دوماً يفكر لخطوات واسعة ممتدة، قبل العمل لقاء مع متخصص سيكولوجي ومتخصص بطبيعة العمل، يحللون كل جوانب المتقدم للعمل، يتفهمون سلبياته وإيجابياته، وسلوكياته لكل أمر لديهم قانونه، أخذ عهدًا على نفسه من اليوم الأول أن يحقق ذاته وأن يكون بمكانة مميزة وبخلال وقت قصير، كان متفاني جدًا بالعمل، كان يعمل بصمت، مع رؤية لكل حدث باهتمام، كان يتابع فنيات التركيبات، حتى جاء وقت أخذ يفكر بجدية بابتكارات جديدة لعطور بشكل مغاير ومميز، اختمرت الفكرة برأسه، جلس ليالٍ مع حاله ممسكًا قلمًا يخط به ما يشبه المعادلات الكيميائية، توصل إلى بعض النتائج، قرر أن يجازف ويطلب تجربة أفكاره، المجازفة أمر ضروري لتحقيق

الذات، إن تخوفت من خطوة حبيسة بصدرك لن تحقق بنسبة كبيرة أحلامك، ذهب إلى صاحب المصانع وجلس معه، طلب منه أن يمنحه فرصة لإجراء تجارب عملية لبعض أفكاره، إن نجحت فقد حقق نجاحاً للشركة، وإن أخطأ هو مستعد لتحمل التكلفة طواعية، ربت على يده بمنتهى درجات الحنان، طمأنه أنه سوف يوفر له الخامات لإجراء تجاربه، وأيا كانت النتائج نحن ندعمك، أي تجارب تخضع للنجاح والفشل، وإن لم نتقبل الحالتين لن ننجح، لك كل ما تريد ولدى ثقة تامة من نجاح تجاربك، نحن أعيننا عليك من البداية، وجدنا منك طموحًا وإصرارًا، والهدوء يسود عملك، بدأ بإجراء تجاربه، طال الوقت، لم يستسلم للمحاولات الفاشلة، زاد إصراره، صاحب العمل كلما التقاه، يشير له بعلامة النصر تحفيزا له، لم يسأله مرة عن أي شيء، بعد أكثر من شهرين توصل لنوع من العطور تيقن أنه جديد، وله رائحة غير اعتيادية، لم يتهلل على الفور، رأى ضرورة التمهل حتى يطمئن على النجاح التام، جرب مرة واثنان وثلاث، تأكد من نجاح تجربته تمامًا، فرك يديه فرحا، ذهب إلى صاحب العمل، حاملاً القارورة التي تحمل نتاج تجربته، صاحب العمل ما إن رآه ورأى أسارير وجهه، فهم الرسالة على الفور، نهض من فورة، عانقه وقبله وأجلسه أمامه،

طلب منه الهدوء، كان صدره يعلو ويهبط بشده، كأنه كان بسباق مارثون طويل جدًا، التقط أنفاسه وتناول كوب الماء الموجود على المكتب، تجرعه دفعة واحدة، لم يبالي لتساقط معظم الماء على صدره، مد يده بالقارورة إليه طالبًا منه أن يستنشق رائحتها ويمنحه رأيه، فتح القارورة ووضع قطرات قليلة على ظهر يده، قربها من أنفه مرات، كل مرة تزداد انفراجة أساريره وتلونها بالدهشة مقرونة بسعادة، أخيرا صاح وهو ينهض عن مكتبة.

– عظيم، عظيم، ما هذا الإنجاز، كنت واثقا أنك ستصل لنتيجة مبهرة، صدقت أنت فعلا عبقري، بداية نذهب بأقرب وقت لتسجيله باسمك، ولكن لابد من تحديد اسم لهذا العطر، فكر باسم يليق به. فهو سيكون مفاجأة كبيرة لكل العاملين بمجال العطور، بالغد سيكون هناك عقد محرر يمنحك نسبة خمسة عشر بالمئة من حصيلة توزيع المنتج، وهذا أكبر نسبة منحتها لأحد، وانا بانتظار الجديد، فكر باسم.

أخذ يقدح زناد فكرة يبحث عن اسم جديد وغير متداول، بعد وقت طال بعض الشيء، مشمولًا بنظرات دائمة من صاحب الشركة، أخيرًا ضرب كفيه صائحًا.

– لنسميه (روح الفؤاد).

-واو، اسم رائع وغير مستهلك، أحييك، ليكن.

لحظتها لم يعرف سببًا لاختيار هذا الاسم تحديدا، لا يدرى طرأ على رأسه اسم الفتاة التي عرفها على مدار سنوات، كان ببدايات الدراسة الثانوية، يسافر إلى المدينة حيث مدرسته، تصادف وجودهما وسط الكثيرين بانتظار سيارات الركوب، جاورته مرات، تبادلا النظرات لأيام عديدة، الخجل منعه حتى من إلقاء تحية الصباح، تلتقى نظرات العيون الباسمة لمرات، العيون تحمل من الرسائل الشديدة البلاغة أكتر مما تقوله الشفاه، ظل الأمر على هذا لوقت طويل، ذهابًا وإيابًا، حتى أتى يوم وجاورته بالجلوس، تبادلا النظرات الأكثر تعبيرًا، ألقى عليها بالتحية خافت الصوت، ردت تحيته، تشجع وسألها عن اسمها.

- روح الفؤاد.

ردد الاسم منبهرا، هذا اسم لا يوجد بين بنات قريته وربما محافظته.

أبدى إعجابه بالاسم، اكتفوا بتبادل البسمات طوال الطريق، تقاربا كانت لا تجلس إلا بجواره، الإحساس بالأمان أهم دافع للعلاقات الجيدة، هو حرص من جانبه على الإسراع إلى الصعود إلى السيارة وحجز مقعد لها حتى لو ظل بلا جلوس، بدأ يسير معها بشوارع

المدينة حتى تصل إلى مدرستها، وأيضا بالعودة، عرف أنها من أسرة هاجرت مدينتها (بورسعيد) إبان حرب السبعة والستين، من أكثر من عشرين عامًا، أسرة كانت تضم رجل بالخمسين من العمر وزوجته وولدان بعمر الشباب أكبرهم تجاوز الثلاثين بسنوات وهذا كان أبوها، والآخر بالتاسعة عشر وابنة وحيدة بالرابعة عشر، جاء توزيعهم بهذه القرية، عاشا بأحد فصول المدرسة الابتدائية لشهور وسط عديد الأسر، الأب أو الجد ارتأى أنه من الضروري أن يكون لهم سكن مستقل، بحث طويلاً حتى استطاع الحصول على سكن على أطراف القرية، الجد كان تاجرًا للملابس الرجالي والحريمي بمدينته قبل الهجرة، عاوده الحنين إلى تجارته التي عرفها، فتح إحدى الحجرات وخصصها محلاً، بدأ بالنزول إلى المدينة لجلب البضائع، استطاع على مدار سنوات قليلة أن يكتسب ثقة التجار الكبار، يمنحونه البضائع دون تحديد موعد للسداد، وأيضًا العملاء لثقتهم أنه يأتي بأجود الأصناف ولا يغالى بالأسعار، تزوج الابن الأكبر والدها (محمود فخر المؤمني) من إحدى فتيات القرية، كانت هي الثمرة الأولى للزواج، الجد ابتنى بيتًا كبيرًا، جمع به كل أولاده، حتى ابنته زوجها لابن أخيه الذي أتى من (بورسعيد) للعمل مع عمه، منحهما شقة بالبيت، حرصًا منه على وجود ود

وعلاقة دائمة بين الأحفاد، حاليًا وبعد وصول الجد إلى عمر السبعين، اكتفى بالجلوس أمام المحلات، يتابع ويعطى رأيه ببعض الأعمال، يتولى كل شيء الولدان وزوج الابنة، كانت هذه قصتها، حكى لها عن أحلامه وطموحاته، وعن أصدقائه وعمله الصيفي، تقاربا وأصبحا يلتقيان لبعض الوقت بعد انتهاء اليوم الدراسي، تبادلا المشاعر بنقاء، سارت بهم الأيام على هذه الشاكلة، إلى أن جاء يوم مازال يوجعه، بعامها الأول بمعهد التمريض، الذي التحقت به لضمان العمل على الفور، تمت خطبتها لابن إحدى عائلات القرية، أصبح اللقاء لهما مستحيلاً وهو قرر لعق ألمه والبعد حرصا عليها، كان كثيرًا ما يبكى حينما ينفرد بنفسه، عام واحد وعادت الأسرة بكاملها إلى مدينتهم الأصلية، باعوا كل الممتلكات، يوم الرحيل مازال داخله، وقف على البعد بعد الفجر يراقب السيارات وهى تنقل الأثاث، ثم الرحيل بمينى باص يضم الجميع كبارًا وصغارًا، ظل يجرى وراء السيارة يشير. بكلتا يديه غير مبالٍ بأي نظرات توجه له، بكى كثيرًا، كان كثيراً لأكثر من عام يلف ويدور حول المنزل، حتى أن أصدقاءه كانوا يشاكسونه ببيت الشعر الشهير (أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار... وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار)، لم تغب عن باله،

تابع أخبارها من مصادر شتى، من صديقاتها وفتيات عائلته اللاتي تعرفن بها، عرف أن (نبيل الصعيدي) ابن القرية والذي خطبها قبل عودتهم إلى مدينتهم، نقل عمله إلى مدينتها، تزوجها بعد انتهاء دراستها، عملت بإحدى مستشفيات (بورسعيد)، أنجبت ابنتان يفصل بينهم ثلاثة أعوام، زياراتهم للقرية كانت على فترات متباعدة، لم يرها ربما مرة أو اثنتان صدفة، مع الأيام وهرولته مع الزمن لتحقيق أهدافه ثم سفره للخارج تناسى كل شيء، فقط بإحدى زياراته جاءت له الأخبار أن (نبيل) زوجها توفى بعد خمسة عشر عامًا من الزواج تاركا الابنتان بعمر بين الثالثة عشرة والعاشرة، يودهم أهل أبيهم على فترات، حقيقة لا يدرى لماذا جاء الاسم بخاطره واختاره اسما لأول منتجاته؟، حقا مهما تباعدت بيننا المسافات والأزمان تظل الكثير من ذكريات الأمس رابضة داخلنا بحلوها ومرها، العطر الجديد شهد رواجًا كبيرًا وهذا عاد إليه بالربح الوفير، خصص الكثير من وقته للوصول لتركيبات عطرية جديدة، كان الحظ حليفة واستمرت نجاحاته، مما جعل لاسمه دويا، صاحب العمل كان يدفع به إلى المنصات الكبرى، جعله ممثلاً له وللشركة بكل شئونها، كان يقدمه بكل مؤتمر للإعلان عن الجديد، تصاعد نجمه وأتت له عروض بمبالغ تفوق ما يحصل

عليه من مرتبات ونسب، ولكنه رفض لأنه تعلم الوفاء وأن الخروج إلى مكان آخر يحتاج ترتيبات قد تؤدى إلى خسارات متنوعة. بعد سنوات تصل إلى الخمس، ونجاحات مستمرة قرر أن يكون له مشروعة الخاص، كان يقدم قدمًا ويعود إلى الوراء أقدام، ولكن بالنهاية قرر الجلوس مع صاحب العمل، الرجل الذي منحه الفرص لإثبات جدارته وذاته، ووصل به إلى قمة الهرم العملي ، كان يأخذ بيده يصعد به إلى أن يكون قائدًا لفريق عمل، وأن يجعله مميزًا من جوانب عده، وبالنهاية لابد من المجازفة وعرض أمر المغادرة بحب واحترام عليه، ما إن دخل وألقى التحية حتى وجد ابتسامة كبيرة تعلو شفتي مسيو (روبير)، الذي أشار إليه بالجلوس، الابتسامة تزداد مما جعله أسيرًا للدهشة والتساؤلات الداخلية التي تروح وتجئ داخله، أراد الحديث رفع المسيو يده بإشارة أن لا يتكلم، مد يده وتناول كفه، ربت عليه مرات، تحدث.

- لا تندهش أعرف سبب حضورك الآن، الحياة علمتني قراءة الآخر، وانا من فترة منتظر هذه اللحظة، أنت جئت لتطلب أن تستقل بذاتك، صح؟.

اومأ براسه موافقًا، أكمل حديثه.

– وأنا موافق، ولكن بشكل آخر لا تتوقعه، منذ أن جئت وأنا أرى بك تشابهًا كبيرًا معي، الطموح والهدف الموضوع أمام عينيك ويسير مع خطواتك، وأعرف جيدًا من اللحظة الأولى أن هناك يوم تعلن فيه حاجتك لأن تكون صاحب عمل مستقل، لن أطيل انا أعرض أمرًا قد يزيد دهشتك، انا أعرض عليك الدخول معي بشراكة بنسبة تحدد حسب قدرتك، ما رأيك؟

من المؤكد أن بهذه اللحظة تملكته كل الدهشة بشتى صورها، ما يستطع النطق، عصته الكلمات وتوقفت على أبواب شفتيه، ازداد تشبثًا بمقعده خشية أن يصاب بنوع من فقد التوازن، فما يسمعه فاق ما كان يتوقعه، أفاق على صوته .

– مؤكد لديك سؤال ولماذا أنا تحديدًا رغم المئات الذين عملوا معي على مدار عقود، أجيبك بصدق، كنت أتابعك من كل زواياك، عملك وسلوكياتك وتعاملك مع الزملاء والرؤساء، رغم تميزك في صناعة العطور والابتكارات المميزة التي أثنى عليها الجميع، المنافسين قبل أي من الآخرين الموالين لنا، لم ألمح بك غرورًا، لم تترك هذا المكان رغم علمي أن هناك عروضًا أكبر من هنا بكثير، لم تفكر بتركنا أو بيع أفكارك للآخرين، ثم أمر هام هو بصدق ولا أجاملك إني رأيت بك نفسى، لأني كنت مثلك ألتمس الخطوات

والطريق، لذا أنا مصر على وجودك واستمرارك، ثم أنا قد نالت منى الشيخوخة، ولن أجد أمينا مثلك، هل أوضحت؟

لم يحظ بأي رد، فقد وجد أمامه فمًا فاغرًا على سعته، وعينان ثابتتان، وبريق غير متناه به تساؤلات عدة وعدم تصديق، صدرت ضحكة عالية منه، وأعاد احتواء كفه ضاغطًا عليه لحد ما، خاطبه.

- لا تندهش ولا تستغرب، ولا تفكر أني أدفعك لمشاهدة مشهد من مشاهد أفلامكم العربية، الشاب الذي يغترب ويتزوج ابنة صاحب العمل، ليس لي بنات، هو ابن وحيد لا أعرف عنه شيئًا غادرنا منذ أن كان بالعشرين من العمر، لا نراه إلا كل كم عام، ولكنى اعتبرك ابنا لي، على فكرة أنا مغرم مشاهدة أفلام من شتى البلدان، إن أردت معرفة شعب اعرفه من ثقافته، والسينما إحدى روافد الثقافة، أنا أتكلم جد، وعرضي فعلى، وصدقني انا الرابح، لأني واثق من أنك عندما تكون شريكي سوف تتحمل مسئولية إنجاح الشركة أكثر وأكثر، أفق ولنبدأ الخطوات الفعلية. سوف نستدعى مثمن ليحدد قيمة الشركة بكل أصولها، ثم لنرى ما نسبتك حسب قدرتك المالية التي أثق أنها جيدة تمنحك نسبة معقولة تزاد مع السنوات، ومن اللحظة وقبل توقيع العقود أنت شريكي، نهض عن مكتبه، أنهضه وهو مازال كل أردية الدهشة، هو

غير مصدق أن الرجل قرأه بهذا الشكل، نهض متثاقلا يشعر كأنه ازداد سمنة، أخذه بين أحضانه، بادله العناق والاحتضان، وجد بعض دمعات ساخنة تداعب وجهه، دموع الرجل الذي أشعره بهذه اللحظة أنه ابنه.

بخلال أيام قليلة تمت الإجراءات بكل الهدوء والسلاسة، أخذ على نفسه عهدًا أن يجعل الشركة أكثر تميزًا وأن لا يجعل الرجل يندم على شراكته بنسبة الثلاثين بالمئة التي ناسبت إمكانياته المالية، كان يتواجد بالشركة من اللحظات الأولى للصباح حتى وقت متأخر من الليل، يتابع الصغيرة والكبيرة، يقدح أفكاره بشكل دائم لابتكار التركيبات المميزة والتي لا تتشابه مع أي منتج، كانت مساحة السعادة تتصاعد داخله، لم ينس يومًا أهله، كان دائم التواصل معهم بالوسائل المتاحة للتواصل، كان يرسل الأموال بشكل يضمن لأبيه إعداد أخواته البنات الثلاث بشكل يتباهى به أمام أصهاره، تم شراء أراض، وإعادة بناء البيت وزيادة مساحته على طراز معماري كان هو قد جعل مكتب هندسي شهير بباريس يعده، طراز لم تعرفه بلدته وربما دولته، مكون من عدد من الأدوار كل دور أشبه بفيلا مكونه من بهو متسع مع ما يلزمه من حمامات ومطابخ وحجرة مكتب ومكتبة وسلم داخلي يؤدى إلى حجرات النوم، كل حجرة

ملحق بها حمامان، وشرفة كبيرة تلتف حول كامل البيت، تحولت حياة أسرته، رغم غيابه لأعوام طويلة بالبداية وصلت إلى قرابة الخمس سنوات إلا أنه لم يتبدل ولم يغير من طقوسه، يعود ينزع الزى الرسمي ورباط العنق، يسرع بل يهرول إلى ارتداء الجلباب الريفي واسع فتحة الصدر، بل كثيرًا ما كان يقلد أبيه وأعمامه وأخواله يرتدى صديريًا حريريًا مقلم تحت الجلباب، وينتعل الحذاء الريفي الشائع بغالب الريف المصري، ما يسمى لديهم (البلغة)، ولا يخجل إن ذهب إلى الحقل، يجتث الحشائش ويمهد الأرض، ويفتح القنوات لوصول المياه إلى كامل الأرض، وكثيرًا ما كان يصر على جر الماشية حين أوبتهم من الحقل، يخرج فجرًا وسط أبيه وإخوته بهم ما يشبه الهرولة للصلاة بالمسجد، يسير بشوارع القرية وأزقتها راغبًا احتضانها داخله ونيسًا له بغربته، يلعب مع أبناء بلدته كل الألعاب بأريحية، يتعابث معهم بلا أي حواجز، يعيش طفولته كاملة، كان دومًا رهن طلب تردده أمه مثلها كل الأمهات أن يتزوج، كان يجيب.

– يا أمي لكل منا مكتوبه وقدره، لم يحن الوقت بعد.

كانت تخطره أنها لا تريد له الزواج بمن لا تعرف طباعنا ولغتنا وحياتنا، يضاحكها قائلا.

– يا أمي نريد تحسين النسل، أطفال شقر وبعيون ملونه، كفاية هذا اللون الخمري المُصِرُّ على أن يظل واضعا بصمته علينا.

تضربه على صدره بحنان تعلو ضحكاتها

– اللون الخمري لون الرجولة، لوننا الذي يولد معنا، ولكن ماذا أقول الله أعلم بمن تكون من نصيبك، يا رب تكون بنت حلال وأصل يا رب.

واصل العمل الدؤوب ليل نهار، النجاحات تأتى مرافقة للجهد، المسيو (روبير) وكأنه أدى رسالته، ألقى بغالب المسئولية عليه، لا يتدخل إلا ببعض الأمور التي يرى أنها تحتاج لخبراته المتراكمة، تجاوز الثلاثين ومازال أعزب، هو كان مترسخ به أن لكل إنسان قدره بكل شيء، حتى كان اليوم التي جاءته شابة تمثل إحدى الشركات بهولندا، جاءت لتبرم اتفاقيات للحصول على إنتاج الشركة من العطور، من الوهلة الأولى وجد نفسه ينتفض مدهوشًا، غير معقول، ملامحها مألوفة لديه، رآها من قبل، بها تشابها كبير من (روح الفؤاد)، يا الله، أحس بأن تيارًا كهربائيًا قد مسه وأربكه، بعد فترة وجوم طالت بعض الشيء، أشار إليها بالجلوس، جلست وبداخلها دهشة من هذه النظرات التي تتفرس بها بشكل يثير التساؤل، سألته بغته.

– ماذا هناك مسيو (عبد الله)؟، هل بي شيء لا يريحك؟، أراك منذ أتيت نظراتك لم تغادر وجهى.

– لا أبدًا، كل ما هنالك أني رأيت ملامح لإنسانة كنت أعرفها من زمن بعيد، الشبه كبير، آسف إن كانت نظراتي أزعجتك.

– لا عليك، الأمر بسيط

جلسا للتفاوض، تباسط معها إلى حد كبير، لا يعرف سببًا هو يتعامل مع الجميع بحيادية وبأسلوب واحد، كل فترة ينظر إلى زجاج الحجرة المجاورة له، حيث يوجد المسيو (روبير)، يجده يبتسم وتتسع ابتسامته أحيانًا، وأحيانًا يغمز له بعينيه أو يومئ برأسه، رحب بها ووجد نفسه يطلب منها أن تكون مسئولة عن منتجات الشركة ببلدان أخرى مجاورة لبلدها، ردت عليه.

– دعني أفكر وأدرس الأمر جيدًا، انا ممن يدرسون أمورهم جيدًا حتى لا تتخبط خطواتي، ولكن مبدئيًا أرحب ، سآتي إليك المرة القادمة حاملة دراسة شاملة لمجريات الأسواق بعدة دول.

شكرها وانتهى التفاوض معها بشكل جعل أسارير وجهها تنفرج بشكل كبير، أعطاها بطاقته الشخصية، وفعلت ذات الشيء، ودعها حتى سياراتها.

بهذا اليوم ظل شاردًا لحدٍ كبير، على نحو لم يعتده طوال عمره، معروف عنه أنه يجيد الفصل بين الأمور الخاصة والعملية، ما الذي اعتراه ؟، لا يملك تفسيرًا، فسره وقتها ربما تذكر بها (روح الفؤاد)، والأمر سينتهي بعد ساعات، ولكنه كان خاطئًا، فقد زادت مساحات الشرود والتفكير بها، صورتها تخايله مرات كثيرة، كثيرًا ما يفيق على يد المسيو (روبير) توضع على كتفه وابتسامة عميقة متسعة تملأ صفحة وجهه، حاول مرات إبعاد رأسه عن التفكير بها، بالنهاية لم يجد بدًا سوى الاتصال تحت مبرر السؤال عن كيفية استقبال الأسواق الهولندية لمنتجاتهم، عندما سمع صوتها شعر بنبرة فرح بصوتها وكأنها كانت تنتظر، المرأة على الدوام تريد أن تشعر بأنها هي المرغوبة وأنها تحت الاهتمام، تحدثا بشأن العمل بعض الوقت، أخبرته أنها انتهت من أيام من دراستها لعدد من أسواق دول مجاورة، وبأقرب وقت سوف تأتى للنقاش حول كل شيء، رحب بها، بالأيام التالية تحول إلى شعلة حيوية، شعر كأن الزمن عاد به بمعية الصبا، قرر أن يطرق الحديد وهو ساخن غير عابئ أن يوصف منها أنه متسرع في إبداء مشاعره، المشاعر لابد أن تسكب على الفور، هي لا يجب أن تنتظر، التروي بالمشاعر خطأ كبير كثيرًا ما ندفع ثمنه باهظًا، حلاوة المشاعر أن تخرج خارج

الصدور والأفئدة لحظتها، أتت بعد أسبوع من المهاتفة، دخلت إلى مكتبة يسبقها عطرها الذي ميزه بها، أنه أول ابتكاراته (روح الفؤاد)، يا الله حتى العطر هو عطرها، لما رأت أنه سوف يعود لدهشته باغتته بالحديث.

- ممكن مسيو (عبد الله)، قبل أي حديث، أعرف ما سبب دهشتك بالمرة الماضية وبكل صراحة؟.

ضحك وبصوت عال مما زاد من دهشتها، أشار إليها بالجلوس، جلست على مضض، وجهها كله تساؤلات.

- بصراحة وبلا مبالغة بك تشابها يكاد يكون تطابق لقريبة لي، نفس الطول، نفس الملامح، قسمات وجهك، الاختلاف الوحيد هو شعرك الطويل المسترسل والأشقر، وإحقاقًا للحق انا لم أر شعرها، النساء بقريتنا يغطين رؤوسهن بشكل كامل، ولكني لمحت بعضه من تحت الغطاء أسود، هذا هو السبب، أنا لا أعرف شيئًا عنها منذ أن تزوجت وتركت القرية، هذا هو السبب.

- غريبة، ما تقول أن يصل بيننا الشبه لهذه الدرجة، سامحك الله لقد أمضيت الأيام السابقة نهبًا للبحث عن تفسيرات، وما خطر ببالي هذا مطلقا.

- أقول لك أمرًا، اليوم زاد الأمر إنك تتعطرين بذات العطر المسمى (روح الفؤاد) المسمى على اسمها.

- واضح أنها كانت قريبة منك جدًا.

- هي كانت ابنة عمومتي، تربينا سويًا (لا يعرف حتى الآن لماذا كذب؟).

آثر الكذب درأ لفتح جدال تساؤلي، قفز بها إلى الحديث بنطاق العمل، شرحت له كل شيء بالتفاصيل الدقيقة، واضح أنها مرتبة الأفكار والعقل، وضعت بين يديه دراسة وافية بمتطلبات البلدان ووجهة نظرها للتواجد بهذه الأسواق، أخذا وقتًا طويلاً لم يشعرا بالوقت الذي مر، كان (روبير) يراقب من وراء الزجاج، يبتسم ويحرك يديه بحركات دالة على الارتياح، نهضت تريد الانصراف إلى فندقها، أصر على تناولهم الغذاء سويًا، مازحها.

- حتى أذهب عنك وجع التساؤلات والقلق الذي سببته لك من جراء دهشتي.

ضحكت وصاحبته بسيارته إلى مطعم فخم يشاهد من خلال الجلسة به سريان مياه السين، امتدت جلستهم والأحاديث المتبادلة وسط ابتسامات وضحكات لساعات طويلة، ذابت الحواجز

وسقطت لحد كبير، حكت له حياتها بكل وضوح، قالت أن اسمها (مرجريت هانز) ويدللونها (مرجريتا) من أسرة بسيطة الأب يعمل بإحدى مزارع تربية الماشية وتصنيع الألبان والأجبان والزبد المشهورة به دولتها، والأم تعمل مديرة بمنزل أحد الأثرياء، لديها شقيقان وأخت، هي الكبرى، خرجت للعمل وهى بالعام الجامعي الأول بكلية الفنون، هي تعشق الرسم وكل لحظات الفراغ ترسم وترسم كل ما تراه أو تتخيله، لم ترتبط بأي علاقة لا من قريب أو بعيد مع أحد، فهي مؤمنة على خلاف أبناء الغرب، أن الأنثى يجب أن تكون لرجل واحد، حدثته عن حلمها، أن ترتقى بسلم العمل وأن تكون قادرة على تولى مسئولية شركة كبرى، هي مازالت بالسنة الثالثة من الدراسة، مصرة على إكمال دراستها إلى مرحلة كبيرة، وهو حكى لها عن قريته وعن الأب والأم وعن مشاكسات الطفولة، كانت الضحكات تخرج من الصدور صافية معبرة عن دواخلهم بنقاء، حكى لها عن رحلته مع العمل منذ أن كان يعمل بالمدينة وهو صغير، حدثها عن أحلامه، تطابقت الرؤى والأحلام، غادرا وللمرة الأولى تقدم ووضع ذراعها بذراعه يسيران ويكاد رأسها على كتفه، تعددت اللقاءات والتقارب، كان يفرغ مكنونه للمسيو (روبير) الذي كان يبدى سعادته باحتضانه وتساقط بعض من

الدمعات الحارة معبرة عن سعادته وأبوته، بعد قرابة الست أشهر من تقاربهم وتحقق كل منهما بالتوافق مع الآخر، قرر مصارحتها برغبته بزواجها، فعلتها للمرة الأولى منذ عرفته، تعلقت برقبته، وقبلت ورأسه، أومأت له بالموافقة شريطة طلبها من أسرتها قائلة.

– ألا تفعلون هذا ببلادكم، هذا أمر يشعر أي إنسانة بالفخر لأنها مرغوبة وإعلان ذلك أمام عائلتها.

وافقها وقال لها من الغد نعد رحلة الذهاب إلى عائلتك لطلبك ونعود ونحن زوجان بأمر الله.

– أريد منك أمرًا، لكل منا احترام ديانة الآخر، ربما بعد مرور وقت أتحول إلى الإسلام، امنحني وقتًا ليكون ذلك عن كامل إرادتي وقناعتي.

وعدها هذا أمر مفروغ منه، لها مطلق الحرية، لابد لكلينا أن يحترم تفكير ورغبات الآخر.

أعدا العدة للسفر إلى مدينة (اوترخت) الهولندية، طلب من (روبير) المغيب لبضعة أيام، الرجل كانت تغمره السعادة وكأنه ابنا له، سافرا على متن الطائرة اختصارا للوقت رغم إصرارها على محاولة السفر بسيارتها، هي تعشق هذه الرحلة الطويلة، لمشاهداتها

مظاهر الجمال المتعددة من زروع وأشجار نادرة، وطرق ومبان، وصلا إلى مقر إقامة أسرتها، بيت صغير يتوسط حديقة، كان الأب والأم والأخوة بالانتظار، كانوا على علم مسبق بالزيارة، الاستقبال كان حافلاً مليئًا بكل ألوان الترحاب الصادق، تحدثا بموضوعات شتى، أعاد على أسماعهم التعريف به من زواياه، وتحدثا عن موضوعات عامة تطفو على سطح الأحداث اليومية، تباسطا وكأنهم تعارفوا سابقًا، تناولا طعامًا خفيفًا، بعدها عرض عليهم أنه راغب بالزواج من (مرجريت)، بعد أن لمحوا أمارات الفرح على وجه ابنتهم أعلنوا ترحيبهم، طلب منهم السماح بالحضور إلى باريس لتوثيق الزواج وإعلانه بالسفارة المصرية بها، اتفقا على أن يتم هذا خلال أسبوعين، غادر على وعد باللقاء قريبًا وسوف يعد العدة لاحتفال يليق بها، أرسل من فوره رسالة إلى الأهل يخبرهم به بقرب زواجه، ابتسم وهو يتخيل والدته بعد معرفتها، مؤكد سوف تضرب صدرها بقول وتقول.

– يا خبر الولد ندهته النداهة وأخذته من أهله وناسه.

قرر بأقرب وقت يرسل لهم صورًا لها، حتى تعرف مدى جمالها وتطمئن، بل قرر على حين فجأة أن يرسل بطلب حضور الأب والأم ليحضروا حفل زفافه، وهو ما فعله لحظة وصوله، أن توجه

للجهة المختصة بتوجيه الدعوات من خلال الخارجية الفرنسية، أعطوه تصريح زيارة لأسبوع، هلل لأن هذه ليلة تكريم لأهله.

عاد إلى العمل بروح وثابة جديدة، المسيو (روبير) يتابعه ويشاركه الحوار ويدلى بدلوه بالشئون الفنية ثم يربت عليه ويرميه بنظرات الامتنان، ويعود إلى مكتبه، يجلس يغفو حينا ويستيقظ حينا، السعادة تدفع بقدميه للوثوب عاليًا، بذات الوقت ذهب إلى السفارة المصرية، وأعلنهم بموعد حضورهم لتوثيق الزواج، كان ذهب سابقًا للمركز الإسلامي وأخبرهم برغبته بعقد الزواج على الطريقة المصرية الإسلامية وبعدها يوثقه، هرولاته زادت بين أمور عده، ولكنه لم يصب بأي إعياء أو تذمر، كان عندما يتذكر وقع زواجه على والدته، تعتريه نوبات ضحك عارمة، الجميل بالغرب أنه لا يقحم نفسه بخصوصيات أحد، خلاف كل الشرق يعشقون هذا بشكل شبيه بالإدمان، يبحثون عن سبل لحشر أنوفهم في كل ما لا يعنيهم!

كان يتعجل الأيام، صار يومه مشحونا يتنقل بين العمل وبين ترتيبات حفل الزفاف الذي اختار له مكانًا جميلاً على السين، واشترى منزلًا فخمًا بمكان هادئ، بمنطقة الأوبرا الباريسية، وجهزه بالأثاثات الفاخرة والديكورات المريحة للأعين، وعند اليوم

المحدد انتظرهم، جاءوا بكرفان صغير، بذات اليوم استقبل أباه وأمه، جاءا بملابسهم التي اعتادوا عليها بالمناسبات، لا يدري لماذا جاءت برأسه هذه الصورة المتخيلة، أنه ربما يكون أحد الصحفيين الفرنسيين متربصًا بإحدى الزوايا باحثًا عن سبقٍ صحفي، ورأى الأب والأم بأزيائهم غير المألوفة، تخيله يضع عنوانًا كبيرًا بالصفحة الأولى (فاطمة عقيل) الفلاحة المصرية تغزو فرنسا!! كتم ضحكاته داخله، الأب والأم أصابهما الذهول مما يرونه من بنايات عالية نظيفة كأنها بنيت من ساعات، والشوارع التي لا تلمح بها ولو قصاصة ورق صغيرة، والنظام لا ضجيج ولا أصوات أبواق أو أصوات بشر عالية، اكتفوا باتساع حدقاتهم وفغر أفواههم على سعتها، ألصقا وجهيهما بالزجاج متشبهين بالأطفال الصغار يستقبلون المشاهدات بوجههم، تم تعريف الأسرتان ببعضهم، أخذ (مرجريت) من يدها، قدمها إلى أمه وأبيه، الأم كأنما أصابها مس كهربائي، الدهشة احتلت كاملها، اعتراها الصمت لوقت طال بالتحديق بها، وبالنهاية أخذتها بين أحضانها وانثالت عليها لثمًا، وبعدما أطلقتها من بين ذراعيها، همست لولدها.

- وقعت واقف يا ابن (فاطمة عقيل)، كنت أسمع أن نساء الغرب جلد على عظم، باردات، ولكن هذه لا والف لا، الجمال خلق لها، ورغم أنها لم تتكلم لأنني لن أفهم كلامها أشعر أنها خفيفة الروح.

ضحك وألقى نفسه بين أحضانها وأخذ يقبل جبينها ويديها، استدار إلى (مرجريت) ترجم لها حديث الأم، علت ضحكاتها بشكل لم تعتاده أسرتها، ارتمت في حضن الأم وأخذت تقبلها قبلات محمومة وكأنها أمها وعادت إليها بعد غياب، توسط الجلوس بين الأسرتين يقوم بعمل المترجم بينهم، ألفه سريعة تمت بينهم، تبادلا الحكايات والضحكات، بظهيرة اليوم التالي خرجوا إلى المركز الإسلامي، تمت كل أمور عقد القرآن بيسر وسط أجزاء احتفالية هادئة بين الجميع، تبادلا العناق، أخذوا خطابًا موجهًا للسفارة المصرية يفيد أنه تم عقد القرآن حتى يتم التوثيق الرسمي، بعد انتهاء الإجراءات انتحى به الأب جانبًا.

- لي طلب عندك، ممكن تأجل حفل الزفاف ليتم بين أهلنا وناسنا ببلدك، تحمل ونفذ رغبتي، وما لمسته من عائلة عروسك فلن يرفضون.

- أكيد الأمر أمرك، وهذا شيء يسعدني أن أحتفل بأيام زواجي الأولى بقريتي، سوف أخبرهم بهذا عندما نعود إلى البيت. ولكن

لنقم بالحفل الذي أعددنا له من قبل ، تم عرض الأمر على أسرة العروس، وافقوا على الفور خاصة لأمنية تعيش داخلهم من سنوات طويلة، وهى زيارة مصر، وعدهم بحضورهم قبل الموعد بأسبوع وإعداد بروجرام سياحي ممتاز لهم، عاشا لحظات احتفالية بهيجة من رقص وغناء وفرحة متصاعدة من الجميع، عادت الأسرتان كل إلى موطنها على موعد بتحديد موعد للزفاف والسفر إلى مصر، الأيام تمر بطيئة عليه، جعل من ذاته أسيرًا للعمل، كان على تواصل دائم مع إخوته لتجهيزات الزفاف، طلب منه أخيه (رفيق) الذي يليه بترتيب إخوته أن لا يحدد موعد الحفل إلا بعد أن يخبره بانتهاء كل الترتيبات، من إكمال تجهيزات الدور المخصص له بالبيت على أحسن وجه، وقال له إن كنت تريد وقتا مع أسرة العروس بالقاهرة، خذ وقتك بجولاتك السياحية والترفيهية معهم، فقط حين نخبرك بتمام الأمر تكون على أهبة الاستعداد، اتفقت مع أحد الأصدقاء يعمل بمجال التصوير السينمائي بتصوير رحلتكم من القاهرة حتى القرية والحفل ليكون لديكم ذكرى دائمة، وافقه الرأي، أصر إصرارًا كبيرًا على حضور المسيو (روبير) بل وزاد على الأمر بأن اخذ عنوان ابنه وأرسل إليه دعوة لمرافقة الأب وفرصة ليلتقي بأبيه الذي لم يره من قرابة الخمسة أعوام، استمر انتظاره

قرابة الشهرين، كان على تواصل دائم مع (مرجريت) يخبرها بكل جديد، أتت إلى باريس مرتان زيارات عمل، أخبره (رفيق) بأن كل شيء أصبح على ما يرام وعليه تحديد موعد الحفل لتوجيه الدعوات وإعداد السرادق للحفل، طلب منه أن يمنحه ساعات ويرد عليه بعد النقاش مع العروس

لم يمر من الوقت إلا حوالى ساعة، أخبر أخيه أنه تم تحديد الموعد بخلال عشرين يومًا من هذا التاريخ، سوف يحضر مع أسرة عروسه إلى القاهرة بعد أسبوعان يمضون بعد الأيام بها، للتجوال بهم في متاحفها وشوارعها، اتفقا على كل شيء، قام بحجز الطيران للعدد الذي سيصاحبهم، تناقش مع مساعديه بالعمل لفترات طويلة عن العمل وكيف يدار خلال فترة غيابه التي قد تتجاوز الشهر، منبهًا على استمرار سير العمل على نفس منهاج السياسة الخاصة به، رتب كل الشئون الخاصة به بباريس، أتوا من هولندا قبل السفر بيوم، أمضوه بالتنزه سيرًا على الأقدام، عند الساعة المحددة كانوا بالمطار، تحركت الطائرة بموعدها المحدد دون تأخير ولو ثانية واحدة، هكذا الأمور لدى المجتمعات الغربية، كل يعرف ما عليه وما له، لا تجاوز الكبير متساو مع الصغير، العدالة سبيل للوصول لأكبر محطات التحضر، كان قد قام بالحجز بفندق (الشيراتون) جناحًا

كاملاً لهم، وحجرتان حجرة له وأخرى للمسيو (روبير) وولده، الذي يبلغ من العمر ما يتجاوز الأربعين بثلاث سنوات أو أكثر، رشيق القوام متناسق البنية الجسدية، صاحب بشرة بيضاء كلها دموية، عرف من خلال جلسة جمعته بالأب والابن أنه سافر إلى أمريكا وهو بعمر العشرين، مثله مثل كل أبناء الأرض يرون أن أمريكا هي الحرية وهى الأرض الوحيدة التي يستطيعون تحقيق أحلامهم بها، هو كان واحدًا منهم، المغناطيس الأمريكي له قوة جذب تفوق كل الحدود، مغناطيس يجعل من يقيم على أرضه يتحول بقدرة قادرة إلى لاعب يؤدى الدور الذي يوجه له دون أدنى تفكير أو جدال، هو هاجر وراء هذا الجذب متخليا عن الرفاهية وبحبوحة العيش التي يوفرها له الأب الذي رفض الزواج بعد وفاة الأم ليتفرغ له ويوفر له كل أحلامه، هجر أباه وهجر ثروته وسافر قائلاً، أريد أن أحقق ذاتي بعيد أي شيء، تزوج من أمريكية من أصل لاتيني، تعمل بإحدى كبريات شركات التأمين، لها دخل كبير، لكل منهم ذمته المالية الخاصة به، ولكل مسئولياته المحددة باتفاق مسبق، كل شيء بالحياة محدد، أحيانًا النمطية والخطوط المحددة سلفًا والتي تجعل من بعض أمور الحياة قريبة الشبه من العمل الوظيفي أمرًا جيدًا لا يوجد إلى حد ما المنغصات المعتادة

بكل زواج، أنجب منها ابنتان، لم يرهم الجد إلا مرات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة، أخذهم عشية وصولهم إلى جولة على النيل، ساروا طويلاً ولم يشكوا من التعب أو الإجهاد، بعد هذه المسيرة اخذهم إلى باخرة نيلية تمخر بهم عباب النيل، وسط موسيقى هادئة تنبعث من كل أرجاء الباخرة، وبوفيه مفتوح به كل الأطعمة الشرقية والغربية، أمضوا سهرة أشبعتهم سعادة، عادوا إلى الفندق، ألقوا بأنفسهم على الأسرة وذهبوا فى سبات عميق، بالأيام التالية خطط لزيارة الأماكن التاريخية والأثرية، أخذهم إلى الأهرامات، حضروا الصوت والضوء، استمتعوا برؤية غروب الشمس، ركبوا الجياد والجمال، تناولوا وجبات الطعام على مدار اليوم تحت سفح الأهرامات وبوجود مميز لأبى الهول، أخذهم إلى الأحياء الشعبية، الجمالية، بيت الشعرية، عماد الدين هذا الشارع الذي كان محل تنافس بين الفرق والعروض المسرحية، شهد (داود حسني ، سلامة حجازي، عبده الحامولي، منيرة المهدية، الريحاني والكسار وجورج أبيض ، وروزا اليوسف وبديعة مصابني) وكثيرين ممن كان ميلادهم الفني من هذا الشارع، ذهب بهم إلى شارع محمد علي، شارع أرباب الحرف والآلاتيه من الموسيقيين، شاهدوا بعض المحلات القديمة التي تزين جدرانها آلة العود والكمان وآلات

أخرى، صحبهم إلى جامع عمرو بن العاص، اول مسجد بنى بمصر، شاهدوا وهم مأخوذين من المشهد هرولة الناس من كل الأعمار للصلاة حال ارتفاع نداء المساجد، كان يقفز بهم ويتنقل بهم من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، يأخذهم لقمة الأرستقراطية والفخامة والعالم المليء والمشحون بكل ما هو بذخ وترف وثراء، يعيشون لحظات حالمة بين صدح الموسيقات الغربية، وعالم السيجار والمشروبات التي تحمل أسماء متعددة الجنسيات، لمنتجات الدول احتلال للشعوب من خلال منتجاتها المبهرة والتي يسيل لها اللعاب، يعود بهم للجلوس على مقهاة شديدة الشعبية، يجلسون بين الحرفيين البسطاء الذين يحكون أيامهم مع رشفات الشاي ونفثات دخان السجائر، يمارسون ألعاب الورق والطاولة والدومينو، أعجبهم انصهار جميع رواد المقاهي الشعبية مع بعضهم، هناك تسقط الحواجز الطبقية، واللونية والفكرية، تجد العامل والمزارع والبائع المتجول والموظف البسيط والوافدين للمدينة يبحثون عن أقارب لهم وعن سبل عيش جديدة، والفارين من شظف العيش إلى شطف آخر أخف وطأة، تخرج نكاتهم وضحكاتهم من صدورهم صافية وكأنهم يوجهون لظروفهم المعيشية الصعبة آلاف اللطمات والركلات، يتعمد السير بهم بالحوارى والأزقة، يخبرهم أن لكل

مكان حكاياته وتاريخه، أخذهم لمطاعم الفنادق ذات النجوم ما فوق الخمسة، وأيضًا إلى مطاعم العوام، أكلوا الفول والكشري وأكل المسامط، كانوا يتلذذون أكثر بالأكل الشعبي، والجلوس بين البسطاء، خاطبه المسيو (روبير) وهم يتناولون الكوارع بأحد مسامط وسط البلد،

-لكى تستطيع معرفة شعب عن قرب لابد لك معرفته من كل زواياه، جميلها وسيئها، وأنت خالفت قاعدة التجميل السائدة، نحن قد تعودنا عند قدوم ضيوف أن نضع أمام أبصارهم كل ما هو جميل، ونضع ستائر تخفى كل ما هو مشوه رغم أنهما يكملان اللوحة، ولكن كل العالم إعتاد إخفاء الجوانب المعتمة لتجميل الصورة، رغم أن إظهار العتمة يساعد على محاولات إضاءاتها، لا يدركون أن وجود عتمات أشبه بديناميت متوقع تفجيره بأي وقت فينسف الإضاءات قبل مناطق العتمة.

وافقه على تحليله، وتعاهد مع ذاته أن يجعل إخوته يتجولون بهم بين الحقول والترع والمصارف، يجلسونهم على المصاطب ليسمعوا العفوية والتلقائية عندما تغادر عقال الألسنة.

اتصل به أخوه وأخبره أن كل شيء جاهز على وجه أقرب للكمال، أخبره أنهم سيأتون مباشرة على حفل الزفاف بعد الغد، أخوه طلب

منه أن لا يغادر محل إقامتهم إلا بعد وصوله إليهم بصحبة عربة التصوير، اتفقا على الرابعة عصرًا بعد الغد يتحركون من أمام الفندق، الطريق يكون لأكثر من ثلاث ساعات سفر،

بعصر اليوم المحدد للزفاف، اصطف عددًا من السيارات بالمكان المخصص للسيارات أمام الفندق، من بينها سيارة مكشوفة بيضاء فارهة من أحدث الطرازات، مزينة بباقات وورود على شكل وقلوب، مكتوب عليها اسما العروسين، يحيط بها أربع سيارات مزينة أيضًا، غادرا الفندق تتأبط ذراعه، ترتدى فستانا وردى اللون جاءت به من أكبر بيوتات الأزياء الباريسية، صنع خصيصا لها مع مجوهرات تتناسب مع اللون، حتى المكياج قام به متخصص مكياج له اسم كبير بهذا العالم، ممن يتعامل مع نجمات السينما ونساء الطبقة المخملية بالفندق، والذي جاء للمرة الأولى في حياته منذ اللحظات الأولى بالنهار، قضى ساعات طويلة في تجهيزها، ركبا السيارة المكشوفة، سارت السيارات كأنها سيارات جهة سيادية تقطع الشوارع، تسير أمامهم على مهل شديد سيارة مكشوفة أيضًا بها عددًا من المصورين المحترفين الذين يقومون بالتصوير من نقطة الانطلاق حتى وصولهم إلى سرادق العرس، لفت الموكب أنظار المارة خاصة وهو يمر في وضح النهار، بعض المارة أخذ يصفق

وبعض النساء اللاتي تصادف مرورهن أخذن يطلقن الزغاريد المدوية، تتصاعد أغاني الأفراح بوقت واحد بالأغنيات المختارة، وعلى رأسها أغنية (مها صبرى) الشهيرة.

– ما تزوقيني يا ماما.. قوام يا ماما.

تقترب السيارات وتكاد تلتصق بالسيارة، يقذفونهم بالورود متعددة الألوان والرائحة، وسط الضحكات التي تجلجل وتكاد تصل عنان السماء، قطعوا الطريق المفترض أن لا يتجاوز زمنًا الساعتين أو أكثر قليلاً، استغرق الوقت لأكثر من أربع ساعات، على مشارف القرية كان هناك حشد كبير من أبناء القرية تتوسطهم فرقة عزف بالمزمار وراقص للتنورة، وخيل يرقص، أنزلوهم من السيارة، أحاطوا بهم وسط دائرة العازفين وراقصي الخيل، التصفيق الحاد يتصاعد من كل المتواجدين، طال الوقت بعض الشيء، دخل إلى الدائرة أحد إخوته ، أخذ بيديهم يقودهم إلى خارج الجمع المحتشد، عادا إلى السيارة، سارت بهم الهوينا نظرًا للحشود الكبيرة المتواجدة، وصلا إلى حيث السرادق، توقفت السيارة تمامًا أمام منصة العروسين، فرق الرقص الشعبي، والغناء والزغاريد وكل ألوان البهجة كانت هي غلاف الليلة التي استمرت حتى الساعات الأولى من الصباح .قضوا أسبوعًا بالقرية، كانت السعادة تغمرها، صرحت كثيرًا فيما بعد، أنها

للمرة الأولى بحياتها تفهم معنى الدفء العائلي، بقية الأهل كانوا يتجولون بصحبة إخوته بين كل شبر بالقرية، تألفوا مع أهلها رغم الفاصل اللغوي بينهم، الألفة تذيب أي فوارق، عادوا إلى باريس، لتبدأ رحلة استمرت لأكثر من خمسة وعشرين عامًا، لم ينغصها إلا رحيل المسيو (روبير)، بعد مراسيم جنازته، جلس مع ابنه، وناقشه حول أن يظل شريكًا أو يبيع حصته، وافقه على بيع حصته، اتسعت مساحة أعماله بمعاونتها له على فتح أسواق ببلدان عديدة، كان حريصًا على شراء الأراضي الزراعية لإخوته وبناء المنازل التي تليق بهم، وشراء الفلل بالشواطئ، كان يستدعى أبناء إخوته للعمل بشركاته، فجع بعد حوالي خمسة سنوات بوفاة الأب وبعدها بشهور لحقت به الأم، ومن هنا زادت مساحات غيابة عن التواجد بمصر وبقريته، كان لا يبخل على قريته بإرسال المساعدات لبعض أهليها والتعاون ببعض مشروعاتها العامة، أنجب ابنة اتفق مع زوجته على تسميتها (روح الفؤاد) داعبته يومها قائلة.

- يبدو أنها قصة حب وليس كما قلت قريبة لك، عامةً أوافق لأن البرفان المسمى باسمها هو الأشهر بين منتجاتنا، والابن أسماه (أكرم)، أصر على تعليمهم بأفضل المؤسسات التعليمية، تعلما بالسوربون، الابنة اختارت الموسيقى، أثبتت براعتها وموهبتها،

أصبحت ضمن العازفين بالأوبرا الفرنسية، طافت معهم العديد من الدول، والابن عشق البرمجيات، نال العديد من الدورات التدريبية ببلدان عديدة، يتولى الشئون الخارجية لشركات الأب ومسئول الاتصال والربط بين الشركات التي تتعامل معهم، رغم غربته ومعيشته الطويلة بأوروبا لم ينس يومًا تقاليده الريفية، كان حريصًا على الصلاة وقراءة القرآن الكريم دومًا، منح زوجته مطلق الحرية في ممارسة طقوسها الدينية، لم يجادلها يومًا، الأبناء كان حريصًا على إدخالهم إلى الطقوس الدينية بالحوار وبالإقناع العقلي ونجح، صاروا يصلون ويقرأون القرآن الكريم ويصومون، وسلوكياتهم تسير بإطار الدين لم يحيدا عنه مطلقًا، كان على تواصل هاتفي مع صديقيه المقربين (رضوان أبو الحمد)، و(لوكا ديموس)، كان يلتقى (رضوان) على فترات متباعدة، ولكن كان يلتقى (لوكا) كثيرًا لكثرة تردده على قبرص.

أما عن تواصله مع (رضوان) بعد سنوات طويلة من عدم التواصل، تواصل معه ببدايات غربته، ولكن بتوالي الأعوام تقلصت مساحات التواصل، غابت أخبارهما عن بعضهما، مؤخرًا حصل على رقم هاتفه من (عبد الله التحيوى) باللقاء الأخير الذي أعلن خلاله زيارة مصر، تواصل معه، هو بغاية الاشتياق لصحبة

الأمس، آه لو يعود بنا زمن الطفولة، ولكن هيهات ما يمضى لا يعود، ولكنه بكل الأحوال هي مخزون رائع راسخ داخلنا، نعود ونجتره بين الحين والآخر.

تم الاتصال مع (حسين) لتعريفه بضرورة حضوره مع زوجته وابنته بعد الغد بمكان سكن(رضوان) قبل العاشرة صباحًا، أكد على حضوره بالموعد، اختطف التليفون من يد (رضوان) شاكسه ضاحكًا قائلا.

– لا تأتى مرتديا ثوب العقلانية والحكمة، انزعهم عندك ولا أقول لك احرقهم، سوف نعود مجانين طوال أيام الأجازة.

شاركه من الطرف الثاني ضاحكًا ومازحًا.

– تمر الأعوام بلا عدد وتظل مجنونًا كعهدنا بك، أعدك أحاول فقط محاولة لا تعاتبني إن ظللت على حالي.

طال الحديث بينهم مع التذكير ببعض المواقف القديمة، مغلقا بالضحكات العالية والخافتة.

طلب أن يذهبوا جميعًا إلى (بئر مسعود)، شاكسه (رضوان).

– هل مازالت لك أمنيات أخرى ؟

– الإنسان يا صديقي لابد أن يظل بحالة تمنى دائمة وإلا صار بلا طموح وتتوقف حياته عند حد معين لا يمكن تخطيه، وهنا يكون بحالة أقرب للركون والموات.

– صرت فيلسوفا.

– الأيام ومتغيراتها والناس وتحولاتها إن لم تعيها وتفهمها لن تستطيع ترويضها.

– لك حق.

أسرعوا بالنزول والذهاب إلى (بئر مسعود)، وقفوا حول البئر، الكثير من كل الأعمار يحيط بالبئر، الكل يقذف بعملات معدنية، يتمتم بهمس أو بصوت أقرب للخفوت، يبوح بأمنياته، الدهشة تعترى ملامح زوجة (لوكا)، لا تفهم أو تستوعب ما يحدث أمام عينيها، تتنقل عيونها بين الحشد الملتف حول البئر وزوجها، الذي بعدما لمح توهج دهشتها وكثرة علامات الاستفهام الواقفة على شرفات شفتيها وقسمات الوجه، رفع اليد بما ينبئ بطلب الإنصات إليه، امتثلوا لإشارته.

– بداية هذه اللحظة تذكرني بلحظة مماثلة من أكثر من سبع وعشرين عامًا، فقط كنت وحدي بلا وجود لحشود، ممكن

أشخاصًا لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة، كنا بعد منتصف الليل، بوقت اشتد فيه المرض على أبي، كنت أتعذب لألمه المكتوم والمعلن همسًا، ضاقت بي الدنيا، رغم أني كنت أدير العمل بمنتهى الدقة ويمكن أكثر من أبي، ولكن الهم الذي سكنني، ماذا بعد رحيل الأب وهذا كان جليًا للجميع طال الأجل أو قصر، صحيح يترك لي ثروة طائلة لا يشاركني بها أحد، ولكن أيضًا لا توجد لي ثروة عائلية، أقارب من بعيد لا أعرف سوى أسمائهم، لم أرهم أو يروننني، إذ هناك مسافات بعيدة، فكيف أشعر بالأمان، كان أبي بلحظات وعيه القليلة وساعات غيابه عن الوعي لا يفتر عن ترديد رغبته بأن يدفن باليونان، دومًا يردد بكلمات تخرج بصعوبة ومتقطعة من شفتيه.

- لكل إنسان موطنه الأصلي حتى لو لم يولد به أو يعيش على أرضه، بالنهاية هو يحمل الانتماء إلى موطنه.

يومها جثوت على ركبتي قريبًا جدًا من فتحة البئر، أخذت أقذف قطع النقود المالية بلا إدراك لكمها وقيمتها، تمنيت وأنا أكاد أصرخ.

- يا رب أعني على غربتي القادمة، أنا بالطريق إلى بلد لا أعرفه ولا يعرفني، لأعيش بين أناس لا يجمعني بهم إلا أننا نحمل انتماءً لوطن

واحد، أعني على قادم أيامي، على أن أحقق أحلامي بأن يكون لي نجاحات وقفزات متصاعدة، أعنِّي على أتعايش مع محيطي الجديد بما لا يخل بطقوس حياتي.

واليوم جئت لأقدم الشكر للرب وبذات المكان الذي تمنيت به، واليوم سوف أتمنى أمامكم أمرًا واحدًا، أن أكمل حياتي على هذه الأرض التي شهدت ميلادي وبدايتي رجل أعمال، وأن تظلوا معي كما كنا بأيامنا الأولى. وما نسيت أن أخبركم به هو أني ما زلت أحمل الجنسية المصرية التي أصر أبي أن أحصل عليها قبل مرضه بسنوات.

واستدار مرتميا لأحضان (رضوان)، يتبادلان حديث الدموع، عاود الحديث مختنق الصوت.

– آمنت أننا مهما تغربنا نظل مشدودين لمسقط رؤوسنا حتى لو كنا نحمل جنسيات أخرى ومزدوجة، أنا أصريت على وجود جنسيتي المصرية، أنا طفت العالم شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، لم أجد مثيلاً لهذا البلد، لا أجامل أو أبالغ، هذا البلد تذوب بين ناسها بأسرع وقت ممكن، يشعرونك أنك واحدًا منهم، كلهم أحاسيس تظهر ولا تخفى، تصدقوا لو قلت إني كنت عندما ألتقي بأي مصري أو مصرية بأي بلد كنت أهرول لمصافحته، كنت أستمد منه دفئها،

وكم من مواقف دهشة تعرضت لها لقيامي بهذه الهرولات والمصافحات، ما كان يعنيني هو تلقي رسائلها من مصافحة ناسها، يااااه كم أحب هذا البلد، واليوم أشهدكم على قرار أخذته وهو أن يكون المقر الرئيسي لشركاتي وأعمالي هنا، ورحلاتي هي للفروع، من هنا تدار كل أعمالي.

طلب من كل منهم أن يتمنى أمرًا.(كريستينا) قذفت قطعة النقود بمرح وصاحت.

– أتمنى أن أظل أعيش هذه السعادة مع حبيبي زوجي.

أما (ناهد) فتمنت.

– أتمنى أن أعيش ما بقى من العمر بين زوجي وأولادي وأحفادي.

(رضوان) تمنى.

– أن أعيش يومي في طاعة الله وأن نعود كما كنا مجموعة أصدقاء مقربين بلا فراق.

أخذوا يتأملون المحيطين بالبئر، شاب وشابة يتمنيان أن يكملا الطريق سويًا، وأخرى تتمنى أن يمن الله عليها بالذرية، وأخرى تتمنى أن يعود الزوج إلى صوابه، ومن يتمنى أن يوسع الله برزقه،

أخذوا طريق العودة، لنوال بعض الراحة، بالغد العودة إلى القاهرة وإعداد عدة السفر إلى الغردقة، وانتظار حضور (حسين) وعائلته.

..١٢..

بهذه الليلة نام الجميع نوماً عميقاً، كل منهم بكامل الهدوء النفسي، لم يؤرق نومهم أيا من أنواع الأرق، هذا أخذهم إلى النوم حتى ظهيرة اليوم التالي، حينما تجمعوا على مائدة الإفطار كانوا يتبادلون النظرات الحبلى بتساؤل وحيد، ماذا حدث للنوم كل هذا الوقت؟ على مدار حياتهم لم يحدثْ لهم هذا مطلقاً، فهم من حمل رؤوس دائماً بحالة يقظة، تفكر حتى وهي نائمة، هم دائمو التفكير بالأمس واليوم والغد، يستدعون الأمس، يفكرون في نسلهم من أولاد وأحفاد، هم من جيل خلق لتحمل مسؤولياته من البداية إلى النهاية، خرجا سويا لشراء بعض حاجيات ومتطلبات السفر، مع محاولات عدة من (رضوان) لإقناعه بأن كل شيء متوفر بالغردقة ولا ضرورة لهذا، قال له مرات.

– نحن ذاهبون إلى مدينة سياحية بالدرجة الأولى، وبالضرورة توافر كل شيء لها، نحن لسنا ذاهبون إلى صحراء جرداء.

لكنه أبى وأصر على ما يريد، صاحبه على مضض غير قانع عن هذه الرغبة، تركا الزوجتين تعدان حقائب السفر وما يلزم لفترة الإقامة، تجولا كثيراً بالمحال، أصر (لوكا) على شراء ملابس بحر (لرضوان)، حاول الرفض كثيراً وهدد بالعودة وحيداً وتركه يفعل

ما يريد، فهو لم يعتدْ النزول إلى البحر مطلقاً، يكتفى بالجلوس على مقعد قريب من البحر، عارِ القدمين، يعشق أن تداعب المياه قدمية مداً وجزراً، والتأمل بمن يرتادون الشاطئ، ولكن أن يرتدى ثياب البحر لا وألف لا، هو لا يتخيل نفسه مرتدياً مياه عارِ الساقين وعارِ الجزء الأعلى منه، ويحيط به جمع من البشر ، نساء ورجال، شباب وشابات يمارسون العبث بكل ألوانه، شاميه قائلا.

– أعرف تماماً سبب رفضك، هل تظن أنى نسيت يوم ذهابنا طابورا برفقة معلمة الفصل إلى الوحدة الصحية لأخذ حقن (الطرطير) للقضاء على البلهارسيا المتفشية بهذا الوقت، يومها كنت انت رافض الذهاب وحاولت كثيراً الفرار من الطابور، ولكنهم أحكموا السيطرة عليك، طول المسافة من المدرسة إلى الوحدة الصحية وأنت تبكي مر البكاء وتصرخ بعلو الصوت، كتفوك وأنت تتناول الحقنة، وأخذت بالعويل بلا انقطاع لدرجة أنهم ذهبوا بك إلى البيت، يومها قابلك أبيك بنظرة لوم عنيفة صارخاً بك.

– هل أنت صغير لتبكي؟ يا حبيبي هذا بحر وليس ترعة ولا توجد حقن(الطرطير)، لا تقلق سوف أكون بجوارك حتى لا يقترب منك أي جنس بشرى، ولو أردت أن أصنع حاجزا وأكتب لافته، ممنوع

الدخول الى هذه المنطقة، منطقة محظورة، يوجد بها (رضوان ابو الحمد)، أفعل وأطلق ضحكاته عالية غير مبال برواد المحال، بالنهاية لم يكن أمامه إلا الامتثال.

طلب منه أن يذهبا إلى مقهى (الفيشاوي) القريب من (محطة سيدي جابر للسكك الحديدية)، سأله.

- هل المقهى شبيه تماماً بمقهى القاهرة؟

- مؤكد هناك فارق، مقهى القاهرة تؤمه جنسيات شتى وأصحاب قلم بشتى فروع الإبداع، أما هنا مجرد مقهى عادى وإن كان يؤمه أحياناً حسبما سمعت بعض كتاب الإسكندرية وضيوفهم.

جلسا بحدود النصف ساعة على المقهى، تناولا الشاي، (لوكا) كان شغله الشاغل هو متابعة الخارجين والداخلين إلى المحطة، كل يحمل بطياته الكثير.، هناك من يحمل وجعاً، وهناك من يحمل أحلاماً، وهناك من يحمل شوقاً طال انتظاره ليلتقي بحبيبة أو زوجة، وهناك وهناك ، لم يطل بهم المكوث طويلاً، عرجا وهم بالطريق على أحد محلات الأسماك الشهيرة، طلبا أسماك مشوية ومقلية مع أرز السمك وما يلزم من مشهيات، عادا إلى البيت يحملان حبوراً، فور دخولهم

نادى على(فابيو) الذي أتى مهرولاً رغم كهولته، ولكنه وهذا ما يثير تساؤلات فابيو انه مازال رشيقاً يشعرك أنه بمقتبل العمر.

خاطبه قائلاَ: – –أعد نفسك انت وأحفادك سوف تأتون معنا، لا تتأخر بتجهيز ما يلزمك، على فكرة أحضرت لك ملابس بحر لأعرف صدق حكاياتك عن كونك كنت سباحاً كبيراً.

– والله كنت سابحاً وكنت أمثل بلددي بالمسابقات الدولية ورشحت فترة لعبور المانش، ولكن سامح الله أبيك قدس الله روحه اختطفني بحبه وإنسانيته ومنعني من التتويج العالمي وأن تحتل صوري كل الصحف والمجلات، ولكن الحق كسبت أباك وكسبتك أنت.

تعالت ضحكاتهم الرنانة تخرق هدوء المكان، مردداً بكره نرى المياه تكذب الغطاس، بعدها اكتفى الرجل بإيماءة من رأسه وأخذ طريقة للانصراف. ما إن دخلا حتى طلبا من الزوجات إعداد الطعام لحين الانتهاء من اغتسالهم ،وبعدها مؤكد سوف يخلد الجميع للنوم إلى ما شاء الله، أمامهم سفر طويل إلى القاهرة، يسافرون بهداة الليل، ثم أن وجبة السمك تسبب كثيراً بعضاً من الوخم الذى يستدعى

النوم، بعد الغذاء دخلا كل إلى حجرته وذهبا في نوم عميق، لم يستيقظوا إلا عند الثامنة مساءً، نفضوا غبار النوم بحمامات دافئة منعشة، طلب(لوكا) مكتب السيارات طالبا سيارة لتأخذهم إلى القاهرة بعد ساعة على الأكثر، تأكدوا من جاهزية كل الحقائب، جاءهم من يخبرهم أن السيارة بالانتظار، استقلوها طلبوا من السائق عدم الإسراع، الأحاديث المتبادلة القليلة تتم بينهم، ثم أخذا كل منهم بالشرود قليلاً، كل منهم يتذكر لحظة لقائِهم الأول، كانا يلعبان الكرة كل منهم بفريق، كل منهم يرى الآخر للمرة الأولى، كانا بحوالي السابعة أو الثامنة من العمر، كان كل منهم يلعب منافساً للآخر حسب مركزه بالملعب، وكان لابد لهم من المواجهات المباشرة لمرات عديدة، في إحدى هذه المرات اصطدم (لوكا) بعنف (لرضوان) الذى صرخ متألماً ولكنه نهض ولطم (لوكا) أكثر من مرة، أخذ الذهول منه بعض الوقت ولكنه أسرع بالإمساك (برضوان) طارحاً له أرضاً وأخذ يكيل له اللطماتِ واللكمات، والصراخ يتعالى حتى فرقوا بينهم، وهرول كل منهم مليئاً بآثار الضرب، دخل كل منهم إلى حجرته مغلقاً بابها عليه، مرتمياً على الفراش ملتحفاً بغطاء ،رغم أن الوقت كان صيفاً ولا يستدع الأغطية، يدّعي كل منهم النوم، تخيلوا أن الأمر لن يعلم به

أحد، ولكنه لم يكن حقيقياً، عند طعام العشاء افتقدت كل أسرة طفلها، ذهبت كل أم إلى حجرة ولدها لتدعوه للعشاء، فوجئت الأمهات أن كل منهم مغطى تماماً بالغطاء السميك، الدهشة اعترت كل منهم، رفعتا الغطاء وفوجئتا بالخدوش والدماء المتجلطة على الوجوه، نادت كل منهما على زوجها، جلس كل أب بجوار ابنه متسائلاً عن السبب، بين البكاء والكلمات التي تخرج أشبه بالكلمات المتقاطعة حكى كل منهما ما حدث، طلب كل أب من ابنه أن يغسل وجهه ويرتدى ثياباً نظيفة لمصاحبته، خرج كل منهما وربما بذات التوقيت، كل يجر طفله جراً، ومن المصادفات التي لا تحدث إلا نادراً ونادراً جداً أن يلتقيا في منتصف الطريق بين منزل كل منهما، بادر الحاج(الحسيني) (ديموس) بالقول دون أن يعطيه فرصة البدء.

– أنا جئت به لنعتذر لكما، ولكن العذر أنهم أطفال لا يعوون ما يفعلون، شقاوة عيال.

ضحك (ديموس) بل قهقه لوقت طويل، وتكلم تخرج الكلمات تتخللها الضحكات المتتالية، مما أصاب (الحسيني) بالدهشة، نظراته مصوبه تتساءل، لم ينتظر طويلا جاءته الإجابة.

– معذرة يا حاج انا أضحك على أن كل منا جاء وهو يحمل اعتذرا للآخر، سبحان الله على توارد الخاطر والفكرة، فعلا هم أطفال وليسامح كل منهما الآخر.

وأشار إلى ولده طالبا منه احتضان(رضوان) وتقبيل رأسه والاعتذار له، وهو ذات ما طلبه الحاج من ولده، ارتمى كل منهما بأحضان الآخر، تبادلا العناق والقبلات، من هذه اللحظة لم يفترقا وصارا متلازمين دوماً، تجدهم دائماً معاً، آفاق كل منهما من شروده الوقتي، تبادلا النظرات، اعتلت بسمة عريضة وجه كل منهما، بادرة (رضوان) بالقول.

– ألم تكن تفكر بما أفكر به أنا؟، أجزم أنك كنت تستعيد معرفتنا الأولى.

لم يجب، بل ارتمى بأحضان صديقه يربتان على بعضهما، يضحكان بصوت عال، مما أصاب الزوجتان ومن معهم بالدهشة، حكيا الموقف لهم، تشارك الجميع بالضحك، عقب (لوكا).

– عرفت الآن أن التشابه موجود، حتى بالأفكار، وعرفت أننا جميعاً ندور بدائرة كبيرة تضيق احيانا وتتسع أحياناً، ولكن بالنهاية لابد لنا للعودة لنقطة البدء، سبحانك يا رب.

طلبوا من السائق أن يفتح المذياع وبصوت عال درأ للنوم عن أعينهم. أخذ كل منهم طريقه إلى حجرته وكذا خصصت حجرة (لفابيو) وحفيداه، لم يمض وقت طويل حتى كان الجميع بحالة نوم عميق، استيقظ (رضوان) على رنين الهاتف، (حسين) يخبره أنه بخلال نصف ساعة يكون أمام البيت، وأن لديه خبراً ساراً بشأن أرض السرايا، وأنه توصل لأرقام (صلاح وكارم أولاد الباشا حسن الفراهيدي)، حينها تهللت أسارير (لوكا) وصرخ فرحاً، بل إنه وقف على ساق واحدة ورقص رقصة فرح، وبذات الوقت اتصل (عبد الله) يخبرهم أنه على الظهر يكون متواجداً، وتأكد من وجود السيارة التي تقلهم جميعاً، بالموعد المحدد وصل الجميع، أخذوا بانتظار السيارة، صعد الجميع للأماكن المخصصة لهم وهم بحالة إشراق واضح يرتسم بكل صوره على القسمات، انطلقت بهم السيارة على مهل حسبما طلب (لوكا) فهو لا يحب أن تمر المشاهدات التي يمرون بها بشكل لا يمنح فرصة للتأمل، المقارنة بين ما كان وما هو واقع أمر هام لديه، يرسم له خريطة التغيير من كل الزوايا، الاجتماعية والثقافية والمعمارية والسلوكية، مؤشرات لصعود أو هبوط، هو يجيد هذا التحليل من خلال عمله ورحلاته المتعددة، بكل رحلة يقوم بها حتى ولو كان الفاصل الزمنى ليس

كبيراً يوجب التغيير، ما كان يثير دهشته هو التغيير التام بمفردات اللغة والسلوكيات، كثيراً ما كان يرى جنوحاً حاداً للتمرد على إطار حياة ظلت سائدة لقرون، يتبادل الحديث بينهم ثم يعود إلى حالته الأولى من التأمل، جميعهم يعرفون هذا عنه منذ الصغر ، ما كان يفلت شيء يراه دون أن يتناوله بتفسيراته الخاصة وتحليلاته، لكل إنسان طباعاً يمارسها ويعيشها مهما أصابتها رياح المتغيرات، بعد مسيرة ساعاتٍ وصلوا إلى حيث قصرٍ منيفا وليس فيلا كما كان يقول دائماً(عبد الله)، وقفوا لدقائق يتأملونه من الخارج، شاهق الارتفاع مكون من أكثر من طابق، تلتف به الأشجار من كل جوانبه، إلا من جانب الشرفات التي تطل على الطريق، بُنى على طراز معماري يجمع بين الإسلامي والبيزنطي، ألوانه فريدة تجمع بين بانوراما برع من عملها، أشار إليهم بالدخول، طلب منهم ترك حقائبهم أمام المدخل طالبا أن يصاحبونه بجوله تعريفيه بالمكان، كلما سارت خطواتهم بعضاً منها حتى تزداد مساحات الدهشة، أركان للجلوس معده بأشكال متباينة تختلف كل منها عن الأخرى، من زوايا الشكل والطراز ولكن بالأخير يجمع بينها تناسق جمالي، أكثر من ثلاثة حمامات سباحه، إحداها محاط بما يشبه السور قال لهم أنه مخصص للسيدات، واخبرهم أن بأحد الجوانب، حمامان

چاكوزى مقسمان للرجال والنساء، كل خطوة تتصاعد معها آهات الدهشة، يكتفى (لوكا ورضوان) بالربت عليه إبداءً عن إعجابهم بما يرون، طالت جولتهم لأكثر من نصف الساعة، ولم تنتهِ كامل المشاهدة، طلبوا منه تأجيل البقية لوقت آخر هم بحاجة إلى الراحة، دخلوا إلى بهو واسع شديد الفخامة والديكورات الرائعة وعدد من الصالونات بين المودرن والكلاسيك تتناثر بأرجاء المكان، اتسعت حدقاتهم وتبادلوا النظرات ، على أحد درج البهو القريب من سلم الصعود وجدوا سيدة لا يمكن وصف جمالها ورشاقتها، من جمالها اشتق الجمال، أشار إليها (عبدالله) وقدمها لهم.

- (مدام سميرة) مديرة المكان.

طالبها بإعداد الطعام بخلال ساعتين بعد نومهم لبعض الوقت، اكتفت بابتسامة قصيرة علت الشفتين.

رحب بها الجميع بإيماءات من الرؤوس، أخذوا طريقهم إلى الصعود، كل منهم حسب اختيار مكان إقامته، (رضوان) اختار الدور الأخير لعشقه للأدوار العليا، والثالث اختاره (حسين)، وكان الثاني من نصيب(لوكا)، وهو كان من نصيبه الأول، داعبه (لوكا) .- عليك حراسة المكان وسكانه.

الطابق ليس مجرد طابق يعلو آخر، بل قل قصراً يعلو قصراً، مظاهر الرفاهية تسود المكان، ديكورات على أعلى مستوى، تحف وأنتيكات تملأ جنبات المكان، الصالة تنبعث من جنباته تلاوة القرآن الكريم بصوت خافت، كل حجرة تنبعث موسيقى ناعمه هادئة شديدة الهدوء مما يساعد إلى نوم هادئ، تضم سريران وحمام مستقل حسبما قال المياه به تصنع ما يشبه المساج المائي وبأكثر من مستوى بين البارد والدافئ، وبكل حجرة يوجد تليفون داخلي، تمتم كل منهما داخليا.

- زده يا رب العالمين، وضع الله أمامه فوضعه الله في معينه.

ألقى كل منهم نفسه على فراشه وذهبوا جميعاً برحلة نوم عميق مليئة بكل ارتياح وهدوء نفسى، كل ما يتذكرونه أن ذاكرتهم صارت صفحاتها بيضاء تماماً لا تحمل بها أي شيء، لا يعرفون مساحة الزمن الذى مر عليهم وهم نيام، صحوا بوقت يكاد يكون واحداً، على صوت رنين الهاتف المجاور لكل فراش، يخبرهم أن عليهم الحضور الطعام جاهز، تدافعوا لإزالة آثار النوم عن أعينهم ونزلوا، المائدة تتوسط البهو مليئة بكل صنوف الطعام، وأطباق الفاكهة وقوارير المشروبات، أشار إليهم بالجلوس، وأشار أيضا إلى (فابيو) وحفيديه، وأيضا إلى (سميرة)، حاولوا الرفض أصر قائلاً لا

فرق بيننا، أنا ضد الطبقية وأعقبها بضحكات عالية ملأت أرجاء المكان ضجيجاً مرحباً به، الطعام تتخلله أحاديث وحكايا تدعو للضحكات، انتهوا وسارعوا بالجلوس بالشرفة المطلة على الطريق والقريبة من البحر، النسيم يأتيهم ينعشهم، تناولوا العديد من المشروبات، النساء يجلسن بركن قصي يحكين عن بعض مواقف مرت بهن تجمع النقيضين المؤلم والمفرح، عند إعلان مغيب الشمس طالبهم (عبدالله) بالنهوض والذهاب إلى الشاطئ الخاص به، حتى يستمتعوا بلحظة أوبة الشمس إلى مكان راحتها الليلية، أماكن جلوس معده جيداً تظللها مظلات مصنوعه من أعواد البوص وأجزاء من النخيل، السؤال الأول الذي فاجأ به (لوكا) حسين.

- ماذا عن موضوع السرايا، هل أعلنتهم عن رغبتي للشراء؟

- بالحقيقة أخبرتهم أن هناك من يريد الشراء بجدية ولم أعلمهم عن هويتك، تاركاً الأمر برمته لحين اللقاء معهم، هم بانتظارك بعد أسبوع من الآن بنادي الإعلاميين بشارع البحر الأعظم لقربه من سكنهم، وعليك تحديد الزمان، مع أرقامهم.

- إذاً اتصل بهم الآن وأخبرهم بأننا سنلتقي بهم مثل هذا اليوم الثامنة مساءاً، وعليهم الحضور مع محاميهم وكافة أوراق السرايا، وأنا سوف من خلال (رضوان) نرى محامياً يصاحبنا.

أخذ (حسين) جانباً وأجرى الاتصال المطلوب وتم التوافق على الموعد.

(مارجريتا) وجدت نفسها مشدودة إلى (ثريا) بعد عديد من النقاشات التي جمعت بين مجموعة النسوة، انتحت بها جانباً وأخذا يتناولان أطراف الحديث، حتى أن (ثريا) أخبرتها عن تجربتها الزوجية، بل تركا الجلسة وأمسكا كل بيد الأخرى وساروا على الشاطئ، شعرتا بأن هناك ما يجمعهم رغم الفارق العمري، فكرت بأمر بأن تزوج ابنها (أكرم) الذي قارب الثامنة والعشرين والرافض للزواج منها، همست لنفسها، سوف أرتب للأمر مع (عبد الله)، ضمتها إلى صدرها وقبلتها كثيراً على رأسها.

طالت بهم جلسة البحر والتي تتخللها الحكايا وتناول بعض المسليات، النساء شعرن بالبرد فطلبن الانصراف، فما كان عليهم سوى الانصياع لطلبات الزوجات، الكل ينصاع للنوم، انتظاراً ليوم جديد قرروا أن ينزلوا للبحر بعد الفجر مباشرة، وتسليم أنفسهم للبحر يقذف بهم يمنه ويسره ،النساء اكتفين بالجلوس على حافة الشاطئ، يداعبن المياه بأقدامهن، يتأملن عبث الرجال الذين تحولوا إلى صبيه صغار يقذفن بالمياه عليهم ويتسابقون سباحة ويهرولون وراء البعض، الضحكات تعلو خارج الصدور لا

يصاحبها أي وجع أو هم، ما أجمل أن نستعيد طفولتنا التي نتناسها بخضم هرولتنا نحو الحياة، الطفولة الحياة بلا أي تحمل المسئولية وانعكاسات الأحداث عليهم، يخرجون من البحر، يلقون أنفسهم على الرمال، ينتظرون سياط الشمس تلسعهم تعطيهم مساحات من الدفء والحيوية، الذهاب هرولة إلى مائدة الإفطار الجاهزة تماماً من كل الصنوف، تزداد شهيتهم وشهيتهن بعد هذا الماراثون اليومي، الأيام الجميلة تمر سريعاً، أربع ليال مضت، كأنها ساعات أو لحظات، التقارب كان سريعاً وإلى حد غير متخيل بين النساء، (مارجريتا) ذات ليلة حدثت زوجها بوضوح عن محاولة ترتيب زواج ابنهما (أكرم) من (ثريا)، أثنت عليها كثيراً قائلة.

- البنت متزنة، عاقلة، مثقفة، من الواضح أن لديها قدرة على التحمل.

- هذا أعرفه لأني أعرف (حسين) وكيفية تربية أولاده، المشكلة ليست هنا، المشكلة ابنك الذي يرفض، ولكن لنحاول ربما يكون قد جاء قرار الله، أمامنا متسع من الوقت، عندما نعود نتناقش وندبر لهم لقاءا، يا ميسر يا رب.

في عشية الليلة الأخيرة تجمع الرجال على الشاطئ ورغم لسعات البرد- إلى حد ما- إلا أن الدفء غمرهم عندما بدأوا بالحكي والنبش بمكنون الحكايات المختزنة داخلهم، زعق (لوكا) صارخاً.

- لتكن هذه ليلة الأمس البعيد، وليسامحنا الله على بعض النميمة.

أشاروا إلى (حسين) بأن يكون صاحب السبق، وضع سبابته أسفل ذقنه، وأخذ يمرجح رأسه يميناً ويساراً كأنه يزيح عنها ثلوج الأيام.

- ما أتذكره دوماً هذا العام الذى تعرضت به البلدة لسيول لا مثيل لها، كل السماء فتحت صنابيرها بلا حدود، كم من البيوت تهدمت، ومنسوب المياه يغطى قامة طفل بالعاشرة، الصراخ والعويل يسود القرية، الرجال أخذوا بشق مصارف بين شوارع القرية والترعة وتركيب ماكينات المياه على رأس كل شارع، وشفط المياه لصبها بالقنوات التي تصل إلى الترعة، الصراع محتدم بين السيول وبين الرجال، والنسوة كل ما كان عليهم الحرص على الأولاد وإعداد الطعام للرجال، الذين استمروا لثلاثة أيام متصلة، حتى سكتت السماء وأرسلت السماء بعضاً من أشعة الشمس، الكل سعى لبناء ما تهدم من بيوت، ولكن من جراء هذه المعاناة سقط الكثير مرضى واسلم الروح قرابة العشرة أشخاص، هذه لا تغيب عن ذاكرتي رغم أنى كنت بحدود السابعة أو الثامنة من العمر، أمر آخر

وغريب أن هناك عام أسميته أنا عام الجثث، كل شهر تقريباً تربض بحواف شاطئ الترعة جثة من الجثث، يندفع أهل القرية للمشاهدة، والخفراء تأتيهم أوامر شيخهم الزاعق على الدوام، أبعدوها عن زمامنا، ينزولون بقطع من الشجر يدفعون بالجثة إلى تيار المياه ليأخذها نحو بلده أخرى ومؤكد ينم ذات الحال، القرية تقف عن بكره أبيها كل يفسر ويحلل ويؤلف حكايات ولكن الحكاية الحقيقة تظل مجهولة إلى أن تستقر عند قرية وتقوم الشرطة بالمعاينة والتحري، لكل جثة حكاية منها هذه الجثة التي أبت كل محاولات الخفراء دفعها بعيداً ولم يكن هناك بد من إبلاغ الشرطة التي جاءت وعاينت وسألت ووجهت اللوم للعمدة ورجالة لمحاولاتهم تغبير وجهه الجثة، بالتحري الذى استمر أياماً اتضح أن الجثة لأحد التجار كان له وسيطاً من القرية يدله على بضاعته، تقاربا والتاجر كثرت زياراته للقرية ولمنزل الوسيط تحت استار الليل، توطدت العلاقة بينهم وزادت هداياه، أبهر الزوجة الذى خاطبها بالنظرات ثم بالمداعبات اللفظية، ثم دبرا أمر لقاءتهم الخاصة، طال الأمر حتى كان يوم تم ضبطهم متلبسين، فأتى الوسيط بسكين وإنهال عليه طعناً بل وأمر زوجته العشيقة أن تشاركه الطعن حتى أسلم الروح، حملته ليلاً على حمارهم وقذفوا به

بعيدا بحوالي أكثر من ما يقرب من كيلو بالقرب من قرية مجاورة، ولكن الجثة أبت إلا أن تعود إلى قريتنا وتم إماطة اللثام عن الجريمة، دخل الوسيط السجن، والعشيقة لم يُعرف لها مكان للآن وكانت بلا أولاد.

تناول منه خيوط الحديث (عبد الله).

- لن أذهب بكم كما ذهب (حسين) إلى ماض بعيد، سوف أحدثكم عن أمس قريب ربما لم يمر عليه إلا عشرة أعوام أو أكثر أو أقل ، هل تتذكرون (حازم عطوان)، هذا الولد المكتنز الوجنتين من صغره وكأن زيادة عمره مؤشرها زيادة وجنتيه، وجنتيه اللتين كانتا دوماً كثيرة التعرض للصفع من قرناء فصوله التعليمية، من صغره وعرف عنه أنه دائم النظر لما يملك الآخرين، حسود وغيور، لازمه هذا حتى وصل إلى كلية العلوم، بعدها عمل بأحد معامل التحاليل الطبية بإحدى المستشفيات، تعرف على أحد العاملين بمجال الصحافة الإقليمية، استطاع بأسلوبه المعتاد التقرب لمصادر الأخبار بكل الطرق، عرف أماكن سهراتهم، قام بتجنيد بعض الفتيات اللاتي يحلمن بعالم الصحافة، دفع بهم إلى الأقسام الشرطية يتقربن لمن يتلقون أخبار الجريمة على تنوعها، بخلال شهور زاد توزيع الجريدة وزادت مواردها الإعلانية، بمواسم الانتخابات

على اختلاف وتنوع مسمياتها يضع خطة محكمة جلباً لإعلانات كل المرشحين وفبركة قصص ذاتية عنهم لا تمت للواقع بصلة، ولكنها تضعهم بمصاف أصحاب الخوارق، بخلال عامين أقنع صاحب الجريدة أن يتحول الى شريكاً له، تقرب بفترة من عالم الكتاب والمثقفين بالمحافظة، سعى للحصول على عضوية نقابة الصحفيين، ولا تعرف كيف حصل عليها رغم أن الصحيفة غير رسمية، وسعى إلى الحصول على عضوية نادى أدب المدينة، وبأساليبه بعد فترة استطاع الوصول إلى رئاسته، والى رئاسة نادي الأدب المركزي للمحافظة،

قطع حديثة بضحكة عالية أثارت دهشة الجميع، لم يتركهم طويلاً نهبا لها، أكمل.

– تذكرت حين هاتفني يوماً وكنت على صلة قريبة منه إلى حد ما، أخبرني أنه يدعوني لحضور مناقشة رواية له أسماها(أبى الذى مات)، يومها ولا إرادياً خرجت كلمات ساخرة منى، قلت له كنت سميها (أبى السقا مات)، وبطبيعة الحال لم أذهب فلا طاقة لي بتحمل لقاء كله مجاملات و شعارات وكلمات مكررة معتادة تقال بمثل هذه الفاعليات، فوجئت بعد فترة بتواجده ضمن الكتاب بصحيفة كان لها مسمى ذائع بهذا التوقيت، وبعدها بشهور أطل

علينا من خلال برنامج تلفزيوني بإحدى القنوات الخاصة، لم أعد أهتم بمتابعته ربما لتوقعي نجاحاته التي لا تعتمد إلا على الفهلوة ومعرفة من أين تؤكل الكتف، وأساليب المداهنة وارتكاب الموجات المتتالية، غابت عنى أخباره ولم أهتم بمتابعته مطلقاً، حتى كنت يوماً جالساً بأحد كازينوهات جزيرة رودس بانتظار بعض رجال الأعمال لإبرام بعض الصفقات، وقعت عيّناي على شخص جالس بأحد الأركان وحده، ثياب شديدة الفخامة، يرتدى نظارة شمسية من النوع الفاخر، أخذت أتأمله مرات حتى أتحقق من أنه نفس الشخص، نهضت ذاهباً إليه، لم ينتبه إلىّ، وضعت يدي على كتفه، نظر إلىّ وبوغت للحظة ولكنه نهض محتضناً لي، دعوته على مشروب سألته عن سبب وجوده، قال إنه بانتظار بعض الأصدقاء لإنهاء بعض الأمور ، فترة قليلة أتى إليه ثلاثة رجال لم تعجبني سماتهم، تركتهم له، وغادرت، عدت إلى مائدتي، أتابعه عن كثب، طال بهم الوقت بين نقاشات يبدو أنها كانت على المقابل، علمت فيما بعد بسؤال النادل عن هؤلاء الرجال قال إنهم يقومون بتوفير رخص لصحف، فهمت كل شيء، ولم أعرف عنه أي شيء بعدها، أظن (حسين) ممكن أن يكمل، استكمل الحديث (حسين).

– بالحقيقة لم يتغير مساره كثيراً، صفقات مريبة تعود عليه ببعض الأموال، بفترة تالية أطاح بصاحب الجريدة، واستمر بالرقص على كل الأحبال، يلتصق تماماً بالكفة العليا، وكلما تغيرت ظروف الأمور يقفز بسرعة للكفة الرابحة، حتى جاءت ثورة يناير واختلط الحابل بالنابل، ركب موجة الإخوان، التصق بهم تماماً، لم يعد يغادر من مقر الإرشاد، يدس أنفه بقرارتهم، شارك برابعة والنهضة ويشارك بخطط التنكيل بالأفراد والشرطيين والجيش، تصاعد نجمه، تجده يطل من كل النوافذ الإعلامية، حتى قيل وقتاً ما أنه رُشح وزيراً للإعلام، ولكن لم ينل هذه الحظوة، ثورة يونيو قطعت حبال أهدافه ورغباته، اختفى لم نعد نسمع عنه شيء، حتى فوجئنا به يطل علينا من منابر تركيا التي خصصت للهجوم على مصر وقيادتها، مات أباه ولم يستطع حضور جنازته، إخوته أصبحوا يتبرأون منه، ومازال يعيش هناك يقال إنه يمتلك فيلا فاخرة بحي تقسيم التركي وأنه يتقاضى مقابلاً كبيراً بالدولار مقابل كل حلقة، ما زاد عليه كلما طل علينا أنه زاد بحجم وجنتيه. بكل اختصار أراه نسخة كربونية من شخصية (محفوظ عجب) التي برع بتصويرها (مصطفى أمين) بروايته (صاحبة الجلالة. هناك أمر آخر أريد الحديث عنه إن أذنتم، أتته موافقة الجميع.

– سوف يلفت نظركم قبل دخولكم إلى طريق القرية أو للأمانة كل طرق القرى المجاورة وبعض مدن المحافظات شلالات من الدعاية المكثفة، مجموعة شركات العادلي للاستيراد والتصدير، تجد منها شركات للسيارات على كل نوعياتها ومراكز صيانة، استيراد مواد غذائية، حديد تسليح، أسمنت ، وغيرها لسنا ضد الثراء لأى إنسان، ولكن الثراء المقنن الذى جاء نظير جهد سنوات ولكن أن يولد وبهذا الشكل بين يوم وليلة فهذا المدهش والمثير للتساؤل، كلنا نعرف (محمود العادلي) رأس هذه الشركات، أنه كان عاملاً بشركة سماد طلخا مثله مثل المئات من أبناء القرية الذين يعملون بها، إنسان بسيط قطعة أرض ودخله من عمله يعيش مستوراً مثل الكثيرين، ما جد عليه بسنواته الأخيرة، كان يذهب كل يوم جمعه إلى قرى مجاورة تشتهر بعسل النحل ويعود محملاً بكميات كبيره منه، عبارة عن عبوات متعددة الأشكال والأوزان، وكل يوم بالصباح أثناء ذهابه للعمل يحمل بحدود العشرة كيلوات من عبوات العسل، هذا الحال ظل لعامين أو ثلاثة على الأكثر ، تقاعد من العمل ولكنه استمر بالذهاب بحمولته اليومية، وبغته وبلا سابق أي مؤشرات، فوجئت القرية بمحل كبير، والمكان مميز يحمل اسم العادلي لمنتجات العسل، ممتلئ عن آخره بكل منتجات العسل،

بديكورات مميزة وإعلانات تملأ الطريق، المار بالقرية تماماً، وبسرعة بل لنقل بهرولة شديدة وجدنا فروعاً ومخازن، وعلى المسافة منذ الخروج من القاهرة حتى تصل إلى بلدتنا تجد عشرات من معارض السيارات على تعدد استخداماتها-، ركوب، نقل ثقيل، نقل خفيف، نصف نقل، باصات، مينى باصات-، وهبطت على القرية كل نوافذ الإعلام بكل صوره وبكل نجومه الكبار يأتون بكاميراتهم يجرون اللقاءات، حتى أتى وقت أن تنقلت بين القنوات تجدهم يطلون عليك من كل البرامج المدفوعة الأجر بالتأكيد، حتى تندر أهل القرية بأنه من الممكن أنك عندما تفتح صنابير المياه مؤكد تجد لهم وجوداً، إضافة إلى نجوم الفن والرياضة مصريين ومحترفين، صارت بلدتنا مكان يحج إليه المشاهير طوال العام، انتقل النشاط إلى أنشطة أخرى وبذات الهرولة، حار الناس بالتفسير بهذا الثراء الفاحش، منهم من قال إنه عثر ببيته أو بقطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكها على خبيئة أثرية، وأنه. وضعها بأجولة وأخفاها لبعض الوقت، وبحث عن من يسوقها، وهناك الكثيرين المعلومين والمستترين بهذا العالم، لديهم استعداد بلا أي تورع لبيع بلدانهم وتاريخها، وصل لأحدهم ساعده بتصريف هذه الخبيئة مقابل نسبة كبيرة، وهناك من قال إنها عملية توظيف أموال أو

تمويلات خارجية أو غسيل أموال لصالح كبار أصحاب الحيثية الذين يحبون الاختباء وراء آخرين، كل هذا قيل ويقال وسيقال ودون أدلة، دوماً تجده يجمل شوارع القرية، يدفع مصروفات الدراسة للكثيرين، يتكفل بالعديد من الأسر التي تعانى، يضئ الشوارع، وأشياء أخرى، هذا كله أيضاً لا يمر مرور الكرام على الجميع، يفسرون أنها ستاراً لما خفى والعلم عند الله، وبالفعل مازال كل يوم تجد قفزة كبيرة بأنشطته، الحاج (محمود العادلي) ازداد صحه وكأن الثراء يضيف عافية ويزيد من إعادة الخلايا إلى حالتها الأولى، يجلس على كرسيه أمام المحل الأول، يحيط به عدداً كبيراً من الوجهاء ومن أصحاب عضوية المجالس النيابية، حتى أن شباب القرية تندر بأن طلبات الإحاطة وسن قوانين تصدر عن مطبخه الخاص، وأقول لكم الحق أن مطبخه أيضاً متكفل بكل شئون القرية، وأيضاً تجد صفين من رجالات القرية الذين لا يعملون، يجلسون بانتظار بعض تعليماته بأي عمل أو بانتظار النفحات، ولكن هل تعرفون من أكثر التصاقا به من بدايات إلى نهايات اليوم وحسب التوقيت الذى يعلنه الحاج(محمود)، (فتحي المأذون) هذا المتلون حزبياً والدائم البحث عن عباءة حزبية يخوض بها الانتخابات التي خاضها كثيراً وعلى كل مستوياتها وفشل بها

جميعاً ، ولكنه صار مدمناً لها، تنقل بين كل الأحزاب المصرية المشهور منها والمجهول ملتصق به تماماً حتى تندروا أنه يكاد العباءة التي يرتديها الحاج، تأتى به سيارة وتعود به سيارة أخرى من رهط السيارات الكبير الذى يملكه، الوجبات تأتيهم من أكبر مطاعم المدينة، بنى لكل من أولاده بيتاً على أحدث طراز أما هو مازال يقيم ببيته القديم وعلى حالته،التي لكى تصل إليه لابد من السير بالجنب، هو بحارة شارعها لا يصل الى المتر، ومازالت التساؤلات مثارة بلا إجابات.

تبادلوا النظرات وضرب البعض كفا بكف، عقب (لوكا).

– على فكره هذه ظاهرة عالمية، هناك منظمات وعصابات كبرى تدير مثل هذه الأمور يسمونها مافيا، والأغرب أنها بالغرب تأخذ سمه الشرعية وتدفع الضرائب رغم أن كل أعمالها مشبوهة، ولكن العالم كله تبدل، دول تهيمن وتسيطر وتحرك الخيوط كما تريد وبما يتوافق مع ضروریاتهم، فلا غرابة أن تحد لهم أذناب بكل بلد وفى كل مجتمع، هذه المجتمعات تغمض أعينها مادامت تضيف إلى مواردها ولتذهب كل الأخلاقيات والمشروعيات إلى الجحيم.

نظروا إلى (رضوان) يحثونه على الحديث، طلب منهم هدنة للتهدئة وتناول بعض المشروبات لتزيح جفاف الحلوق مما قيل، وبعد أن تناول مشروبا مثلجا. تحدث.

- لعلى هنا أتكلم عن ظاهرة سادت وتسود من عقود، ظاهرة أشبهها بالسوس الذى ينخر في أوصال الوطن، وهذه نماذج لا تؤثر بأي حال من الأحوال ولا تلوث الثوب الأزهري حامل لواء الإسلام الوسطى ، التسربل بالدين وبثياب غير الثياب الحقيقية للبعض، سوف أحدثكم وربنا يسامحنا لأن أحدهم وهو (فتوح حماد) بين يدى الله، ولا تجوز عليه إلا الرحمة، والله هو صاحب الحساب، عرفناه جميعاً وإن كان يكبرنا بعقد أو يزيد ، ابناً وحيداً ومعه أخت واحده، الأب يمتلك عدد من الأفدنة، نال من الدلال ما لا يمكن وصفه- حتى عماته الثلاث اللاتي لم ينجبن رغم زواج كل منهن أكثر من مرة دون تحقيق حلم الإنجاب، والغريب أن كلا منهن كن يتحولن إلى أرامل ويرثن ثروات كبيرة،- كانت كل طلباته مجابه دون نقاشات، كان شديد الشغب مع الجميع يثير المشاكل، يغازل بنات القرية دون أي رادع، ألحقه أباه بالتعليم الأزهري بحثاً عن بعضٍ من التهذيب السلوكي، ولكنه ازداد شغباً ما من يوم إلا مشاجرة بينه وبين آخرين سواء من القرية أو من

قرى أخرى، كون له فريقاً ينصاع لأوامره للحصول على بعض المال منه، عندما نال الشهادة الثانوية الأزهرية قام الأب بالتوسط لدى قريب له -أحد أعضاء الجمعية الزراعية- للعمل، وبالفعل عمل أمين مخازن، إلى جانب دراسته بكليته الأزهرية، دراسته لم تكن تسير سيرها المفترض، طالت فترة دراسته، حتى إنه استمر بدراسته الجامعية حتى تجاوز الثلاثين، الغريب رغم الثراء الفاحش الذى يعيش به إلا أنه خلال توليه أمر مخازن الجمعية تعرضت للسرقة مرتان، والمثير للتساؤل هو أن من يسرق كان يسرق الأصناف غالية الثمن ولا يقرب للأصناف الأخرى، وهذا ألمح وأشار إليه دوماً، ولكن كانت تمر مرور الكرام وتقيد ضد معرفة الفعل، ولكن بعد عديد السنوات إحدى قريباته وهى على فراش الموت، اعترفت للجالسين حول فراشها وهى تعانى سكرات الموت أنها كانت تخفى المسروقات حتى تنتهى هوجه التحريات ، وتقوم ببيعها لأحد تجار الأسمدة والمبيدات بقرية مجاورة كان يطلقون عليه نظراً لقصر قامته وطريقة سيره الغريبة (الأرنب)، وطلبت من أولادها أن لا يسير بجنازتها أو يحضر عزائها ويا حبذا لو منع من دخول بيتها، لم يبوحوا بالسر ولكن أحد الحاضرين لحظة البوح أشاعه، تغيرت نظرة الناس إليه، أنهى دراسته وتزوج

ممن كانت الشغل الشاغل لكل شباب القرية، هي تزوجته لما يمتلكه وما سوف يمتلكه من ميراث عماته، بحث عن سفر للخارج حتى يتخلص من نظرات أهل القرية، بالفعل نال السفر للسعودية إماماً لأحد مساجدها، كان يتمتع بقدره فذه للخطابة فذاع صيته ووصل أسماع الكبار بالمملكة فطلبوه لأحد كبرى المساجد، دوماً المسجد مكتظ، أصبح له ركن خاص للفتوى وابداء الرأي بالمسائل الفقهية، زادت ثروته بوفاة الأب والعمات وما يحصل عليه من رواتب ومقابل فتاويه، إلى حد ما نست القرية ما كان، عاد إلى القرية بعد ما يقرب من عشرين عاماً، عام واحد وطلب من دولة الكويت، لا نراه إلا أسابيع كل عام، أنجب من زوجته ثلاثة أبناء وابنتان، عاد بعد أن أصيب بمرض حار به الأطباء، أنفق الكثير على رحلة علاجه، ظل طريح الفراش لقرابه العامين، كان القول الشائع أن علاجه قد طال لتطهير أمواله، مات ذات صباح، خرجت القرية تشيعه تبكيه وتدعو الله أن يغفر له. رحمه الله.

الآخر يكاد لا يختلف كثيراً، يذهب صباحا الى معهده الديني بالمدينة حاملاً مطواه داخل قفطانه، كثير الشغب وكأنه خلق للشغب، مارس رياضة الكاراتيه التي كان يسير بشوارع القرية تراه يقوم بحركة من ألعابها ضد أي أحد من المارين به، تدبر عم له

يعمل بعمل هام بالسعودية لعمل له بعد انتهاء التعليم الجامعي، ظل لأكثر من عشر سنوات هناك، أنجب أولاده بها، عاد وسعى لأن يكون المأذون الشرعي وحصل عليها بعد وساطات عديدة، كل هذا جميل، ولكن عندما توفى عمه وزوجته وكانا بلا أولاد نسى شرع الله وقال أن عمه كتب له كل شيء وأظهر أوراقاً تشير لهذا، ثار إخوته وطعنوا بالتزوير، استمر الأمر سنوات ما بين تأجيلات وطعون واستشكالات وغيرها من حيل المحامين، طوال هذه الفترة كان قد استولى على قطعة أرض أملاك دولة وأقام سوراً حولها، بعد مداولات لسنوات بأروقه المحاكم ثبت تزويره ونال حكماً بالسجن لخمس سنوات، خرج بعدها لا يستطيع الخروج من بيته لشهور، ولكن خرج وعاد إلى عمله كمأذون ولا نعرف كيف عاد، أظنكم عرفتموه (عماد الميرغني)، ما أردت أن أقوله أن هناك كثير من المتسربلين تسللوا لحياتنا على حقائق مغايرة لحقيقتهم، قس على هذا الكثيرين بكل مفاصل الدولة، هم يتوالدون ويتزايدون بشكل مخيف، ولكن ربك بالمرصاد، ولكن العظة هنا أن الله يمهل ولا يهمل،. والسؤال الدائم هنا، لماذا القانون لا يطبق بحذافيره ودون تروى أو منح فرصة للدفاع إلا على الفقراء الذين تلفق لهم التهم وتلصق بهم لمجرد أنهم حاولوا مقارعة رؤوس الكبار حتى لو من

على مسافات طويلة وبعيدة، ولا يعرف الطريق مطلقاً ولحقب زمنية طويلة تتعاقب خلالها الأجيال وتتبدل أماكن إلى الفاسدين المعروفين لكل الناس، بالفعل تساؤل يسكن حشايا الكثيرين، ولكن يبدو أن لا جواب، وسيظل القانون يسن وينفذ على الكادحين والمعدمين ومن لا يملكون حق الدفاع عن أنفسهم الا إذا انصاعوا وأذعنوا وجثوا على ركبهم وبهم استعداد لتنفيذ أي أمر حتى لو قاموا بفعل القردة، عجين الفلاحة وما شابه؟!، وهل من الضروري أن نرى البقع السوداء على الثوب الحياتي الأبيض ولماذا؟ وهل من الحتمي أن يطال ثوب الحياة الكثير من الرتوق والبقع السوداء، تعرفوا ما مشكلة البشرية؟ المشكلة أن الجميع ينتظر أن تأتيه كل الأيام والليالي الجميلة دون سعى أو جهد منه، الجمال لا يأتي وحده لابد من السعي له، لو فعلنا هذا من الممكن أن نبعد أي بقع وأي رتوقات بثياب الحياة، شاركه الجميع هذه التساؤلات التي لا يوجد لها إجابات أو من المحتمل إيجاد أي إجابات لها!

أمّن الجميع على قوله ونهضوا للنوم.

.. ١٣..

عند انبثاق فجر اليوم التالي، كانت السيارة تقف أمام القصر، توالى نزولهم كل يحمل حقائبه، كانوا قد اتفقوا على الذهاب إلى القاهرة وانتظار لقاء (صلاح وكارم) لشراء السرايا، (لوكا) قال أنه حجز بفندق، (وعبدالله) أفاد أن له شقه بالتجمع، (حسين)، وأسرته سوف يقضيان اليومان عند (رضوان)، كان قد تم الاتصال بالمحامي (فكرى الخياط) ليكون على أهبه الاستعداد للحضور إليهم حال طلبه، بليلة الأمس تحدث (عبد الله) مع زوجته حول ما اقترحته بشأن ارتباط ولدهما (أكرم) بثريا، اتفقا على أن يطلبها من أبيها وأن تكمل دراستها العليا بجامعة (السوربون)، وتكون تحت رعايته وهو يتكفل بكل شيء نظراً لعلاقاتهم القديمة وأنها مثل ابنته (روح الفؤاد)، من المؤكد سيرفض كثيراً ولكنه واثق من قدرته بمعاونه (رضوان) على إقناعه، وبعدها سوف تسير الأمور سيرها الطبيعي، وتم التوافق أن يكون هذا بعد إنهاء أمر أرض السرايا، السيارة تنهب لهم الطريق والكل أسلم قيادة لنعاس هادئ ربما يتخلله بعض الذكريات، تم إيصال (لوكا) إلى الفندق مودعاً لهم ومؤكداً على (حسين) تأكيد الموعد مع أصحاب السرايا، ضاحكاً.

– قبل أن يفكر بها (محمود العادلي) من مثله تتمدد عباءته كل لحظة.

ثم أيضا إيصال (عبد الله) وزوجته إلى فيلته بالتجمع الخامس، أشار إلى (حسين).

– ليلا بيننا حديث تليفوني مطول، لدى أمر أود عرضه عليك.

ثم كانت نهاية المطاف بيت(رضوان)، الجميع أخذ طريقه الى حجرات النوم راغباً بالاسترخاء والإمساك بتلابيب كل اللحظات والتي عاشوها بين الأمس واليوم، الكل أخذ طريقه الى حجرات النوم مهرولاً طلبا للاسترخاء والإمساك بتلابيب النوم محتضنين أيام عاشوها بين الأمس واليوم، لم يصدق كل منهم أنهم استغرقوا كل هذا الوقت بالنوم، الساعات بمعاصمهم تشير إلى قرابة العاشرة مساءً، يا الله أكثر من سبع ساعات من النوم العميق، اتصل (لوكا) طالبا من (حسين) الاتصال حالا (بصلاح وكارم) والتأكيد على لقاء الغد، بالثامنة مساءً بنادي الإعلاميين، وسوف يأتي ليصطحبه هو (ورضوان) الذى عليه التأكيد على المحامي، وأنه سيتواصل مع (عبدالله)، كلهم شركاء له بالأمر، قام بعمل ما طلب منه، طال بهم السهر كل بمكان إقامته الخاصة، بعد صلاة الفجر، أسلم كل منهم قياده للنوم من جديد. اليقظة كانت قرب العصر ، صلوا ما فاتهم من صلوات، جلسوا لتناول الغذاء، النساء صممن على

الخروج لبعض الوقت، زوجة (حسين) بها رغبة لزيارة المسجد الزينبى وبعض مساجد آل البيت إن سمح الوقت، وافقوهم على أن يكونوا بغاية الانتباه على حالهم، وإن عادوا بعد مغادرتهم لا يقلقون سينهون مشوار (لوكا) مع أصحاب السرايا ويعودون بلا تأخير، جلس كل منهم بزاوية من زوايا الشرفة ممسكاً بكتاب الله، يقرأون بخشوع تام، لا يشغل بالهم وفكرهم شئ مطلقاً، فالله هو الأمان الوحيد فى فوضى الأرض الدائمة، استمر بهم الأمر بلا مدى، لم يخرجوا من القراءة الا على رنين الهاتف الخاص(برضوان)، أتاه صوت (عبدالله) يخبره أنه أسفل البيت ومعه (لوكا)، التقيا معا حالاً وأنهم بالانتظار، كان رده ربع ساعة ونأتي إليكما، اسرع كل منهم بتبديل ملابسه، هبطوا الدرج على مهل، كل منهم ركب سيارته، ساروا أشبه بموكب خلف بعضهم، ساعة وكانوا يقفون أمام أبواب نادى الإعلاميين بشارع البحر الأعظم، ترجلوا ودخلوا صحبه واحده، ما إن دخلوا فوجئوا (بلوكا) يسبقهم إلى أحد الأركان، ويقف أمامه ساهماً شارداً، تبادلوا النظرات المتسائلة والدهشة، تدور أعينهم بمحاجرها، لم يطل بهم الأمر كثيراً، اجلسهم حول مائدة بذات الركن، أشار إليهم بالإنصات له.

- لا تندهشوا هذا الركن تحديداً يذكرني بحدث من أكثر من ربع قرن، يومها أخذنى صديق لى ينتمى للجالية اليونانية وكان له بعض محاولات كتابات الشعر، سافرنا من الإسكندرية إلى القاهرة، وصلنا بحدود الثامنة مساءً، وجدنا بهذا الركن تحديداً رجلا يتوسط مجموعة من الناس، توليفة من أنماط بشرية مختلفة، تجد الحرفي والصنايعي والفلاح والمثقف والأرستقراطي شديد الثراء وعطورهم المختلفة ما بين الرخيص المصنع محليا ويدويا والغالي الوارد من بيوت العطور العالمية، والثياب المختلفة، الكل يجلس دائرة حوله بل أن البعض يجلس أرضا، همس لي صديقي باسمه (محمود السعدني)، الاسم لم يكن غريباً عن مسامعي، تذكرت أنه يسمى (الولد الشقي)، جلسنا بين الجالسين، نسمع له وحمدا لله أننا جئنا قبل بداية حديثه، قبل الحديث يشاكس هذا وذاك، يلقى بصفات ذات طابع ساخر على البعض، وبعد إفراغ جرابه من نكاته ومسمياته، يستند تماماً إلى مقعده، يتحدث ولا تسمع أي همس، حتى يخيل إليك أنهم فقدوا أنفاسهم وأسلموها لملك الصمت، يتحدث.

- بداية معرفتي بعالم المثقفين والصحفيين كان عن طريق صديقي الرسام الكاريكاتيري الكبير (طوغان)، طلب منى مصاحبته إلى

حي الجيزة، دخل بي إلى حوارى وأزقة مليئة بالحفر والمياه والراكدة والآسنة والأطفال الذين هم عنوان لكل ألوان البؤس، أسير بجواره وأنا أنظر إليه مراراً متسائلاً إلى أين يأخذني هذا (الطوفان)، كان قد أخبرني أننا بالطريق لتجمع مثقفين من زبده المجتمع الثقافي والصحافي، كلما زاد سيرنا كلما التساؤل يأكل داخلي، كيف يكون هناك أي مثقف بمثل هذا المكان، ولكن تمتمت ربما سخطاً لم أظهره، ربما الثقافة لا تثمر إلا بمثل هذه البيئات البائسة، وصلنا الى بيت أسفله محل للسمين (حشايا الحيوانات) من كبده وكوارع ومخ وممبار وخلافه، رائحتها تأتينا من على مسافات بعيدة، صعدنا إلى الدور الثاني، طرق الباب، فتح الباب عملاق حافي القدمين، قادنا إلى حجرة جانبية وأجلسنا على حصير مهترئ، وقدم لنا الشاي، كل هذا وأنا لا أعرف من يكون، نفذ صبري، زغدت (طوغان) بصدره موجهاً بصرى بحده، فهم مغزاها، مال على هامسا (زكريا الحجاوي)، الاسم جعلني أجد نفسى جالساً على ركبتي أتبادل النظر بين(طوغان) ومن قال إنه (زكريا الحجاوي) غير مصدق، (زكريا الحجاوي) كان شهيرا جداً بالفن الشعبي، جاب كل البلاد بحثا عن التراث الشعبي، وكم من أسماء قدمها لهذا الفن (خضره محمد خضر) و(محمد طه) و(أبو دراع) وغيرهم، بعد استيعاب

الحدث وتباعاته من الدهشة، غادرنا الأخ (زكريا) للحظات وعاد مرتديا زيا إفرنجياً شديد الفخامة، حينها أيقنت أنه هو (زكريا الحجاوي)،قطع حديثه بضحكات صاخبه، وكأن الثياب توثيق ولأصحابها، صاحبنا إلى مقهى (عبد الله) بميدان الجيزة، مقهى يجلس به صباحا تجار القطن، وبعض من أتى لحضور جلسات بمحكمة الجيزة، وبعد الظهر يجلس إليها المثقفين والكتاب على تنوع أجناسهم الإبداعية والفكرية، صحبنا إليها ووجدنا العديد من الأسماء التي كنت أحلم أن أقترب منها وأراها بعيوني، وجدت (أحمد رشدي صالح) أحد كبار كتاب الفن الشعبي، (أنور المعداوى)، و(سيد قطب) و المحامي الشرعي الشهير حينها (عبد الحميد قطامش) وآخرين، بالفعل هم زبدة المجتمع، من هنا بدأت علاقتي بهذا المكان الذى لن أكون مبالغا وان قلت أننى سكنت به كل أوقاتي، به كانت انطلاقاتي وله تعرفت على (الخميسي)، صاحب المقولة الشهيرة لتعريف نفسه (أنا مثل الكرة كلما قذفت لأعلى عاودت الرجوع الى الأرض بأقصى سرعة)، وصاحب التنوع ما بين مؤلف وموسيقى وشاعر ومخرج وممثل، من منا لا يذكر له أوبريت (وداد الغازية)، وأيضا دوره بفيلم (الأرض)، وفيلمه الشهير (حسن ونعيمة)، وتعرفت (بمحمد التابعى) و (أحمد

الصاوى محمد) وغيرهم، بصراحة هذا المكان كان فأل حسن عليه، وذكرت هذا بغالبية كتاباتي، بعد هذا الحكي عنه تطرق عن علاقته بالسادات، مدحه كثيراً وذمه كثيراً، قال إن (الحجاوي) أيضاً كان هو بداية معرفته به، حكى بطريقته التمثيلية الساخرة التي يعبر بها بحركات مصاحبه، أنه ذات صباح ذهب إلى بيت (الحجاوي) وطرق باب الشقة، فتح له الباب قاذفا إليه بسؤال.

– هل معك فلوس؟

– أي فلوس، المليون فلوس والقرش وفلوس.

ضحك.

– أقصد الفلوس من هذا الصنف(القرش).

قلت له.

– نعم معي.

– تعرف السني بتاع الفول احضر لنا فولاً وبصلاً وباذنجان مخلل ودفع إلى بصحن.

هرولت إلى السنى وعدت ادخلني حجرة يجلس بها شاب رياضي مفتول العضلات يتكلم بطريقه خاصه به، وكان ودوداً وعندما يضحك يعود بظهره يلصقه بالمقعد الجالس عليه ويرفع قدماه دون

إرادة إلى أعلى كأنهما يسبحان بالفضاء، عرفني به أنه (اليوزباشي أنور السادات) وكان وقتها مفصولا من الخدمة، وكان (الحجاوي) قد أخفاه عند هروبه ببلدته بالمنزلة، ومن اللحظة الأولى حدث ود وألفه كبيرة بيننا، اختلفنا كثيراً، وتوافقنا قليلا، ودخلت السجن مرات بعهده، وغادرت مصر الى عده بلاد في عهده، ولكنه دون قصد فتح لي معارف وعلاقات مع رؤساء وأمراء دول ذهبت إليها، ولكن إحقاقا للحق كان رجلاً طيبا ودود، ولا أحمل نحوه أي ضغينة، حديثه يتشعب إلى مناطق عده، شيق يجعل الكل على رؤوسهم الطير، والوقت يمر بلا أي إحساس بمساحته أو مسافته، انتبه صديقي لماذا جاء؟، تقدم بقدمين مرتعشتين تهتزان كأنها عودان من البوص تطيح بهما رياح عاتيه، مد إليه يده بورقه مكتوب بها إحدى قصائده، قرأها بتمعن، ثم وضع يده على كتفه، قائلا بصوت جهوري.

– غداً أنتظرك بقهوة (عبدالله) بميدان الجيزة، هي معروفه لن تتوه عنها، ربما تكون أنا، وربما أكون أنا (الحجاوي الجديد) ، داعب وجنتيه.

انصرفنا وصديقي كأنه يمشى بالفضاء يدندن ويصفر ويصفق ويرقص غير مبال بمن يمر بنا، عدت ليلتها إلى الإسكندرية تاركاً

إياه، بعدها علمت أنه أصبح ضمن العاملين بروزا اليوسف تنشر له قصائد قصيره يجاورها رسم كاركتورية معبرا عنها، غادرت مصر ولم أعد اعرف عنه شيء، هل عرفت سر ذهابي لهذا الركن.

أخذنا الطريق إلى مائدة قريبة من المدخل نراقب المدخل بانتظار وصول (صلاح وكارم)، وصلوا بعد وصولنا بما يقرب من الساعة معتذرين عن تأخرهم بسبب حضور صديق لهم إلى زيارته، جلسوا آلة المائدة وبينهم المحامين، تناقشوا طويلاً، قالوا إن أرض السرايا وصية أمهم، وما كانوا يريدون التخلي عنها ولولا أن ظروف الحياة غالبة، طال التفاوض لوقت طويل بين شد وجذب حول السعر، وبالنهاية وافقوا مع ابتسامة (لوكا) التي تنبئ عن سعادته بانتهاء التفاوض بالسعر الذى قد حدده من قبل، اتفق المحاميان على القيام بكل الإجراءات بموجب التوكيلات التي حصلوا عليها من الطرفين، أعطاهم (لوكا) شيكاً بأكثر من نصف الثمن، وتم الاتفاق على الذهاب غدا لتسليم الأرض إليه، تبادلوا الأحاديث الجانبية عن أمور شتى، مال(رضوان) على(حسين) هامسا.

- منذ أن وعيت وأنا لا أرى (كارم) إلا مرتدياً هذا الزي، نفس اللون، نفس الطراز، أليس غريباً هذا؟

ضحك (حسين) محاولاً إخفاء ضحكته.

- رغم هذا الثراء إلا أنه تحديداً على خلاف أخيه شديد البخل.

نهض الجميع للانصراف، قال (صلاح) لهم.

- أنا واخى وافقنا على عرضكم لسبب هام أننا نأبى أن نبيع لأصحاب سطوة مالية لا ندرى من أين هبطت ثرواتهم، وأنتم مؤكد تعرفين مقصد كلامي.

اومأوا جميعاً بالفهم، ودعوا بعضهم على وعد بالسفر باكراً إلى القرية، اتفق (لوكا) على مصاحبة الأخوين معه، أتفق الجميع على اللقاء بميدان التحرير صباحاً بالعاشرة، وعاد الكل إلى مسكنه.

عند العاشرة تماماً كان الجميع متواجداً بسيارته، بانتظار حضور (صلاح وكارم)، بعد حضورهم انطلقوا على الفور إلى القرية، ما إن خرجوا من نطاق القرية وأصبحوا على الطريق الزراعي الا واجهتهم العديد من معارض السيارات تحمل لافته (مجموعة شركات العادلي للتجارة)، والإعلانات تحتل كل شبر من الطريق، الدهشة تنتاب الجميع والسؤال الذى يموج داخلهم، هل المال صار احتلالاً من نوع جديد؟، مؤكد السطوة المالية صارت تتحكم بكل شيء، بداية من أصغر بقعة على الأرض إلى أكبر الدول، هناك صراع قائم لمن يستحوذ على مقدرات الشعوب وتسيرها حسب

منهجهم الخاص، إذا أردت أن ترى الحقيقة شاهدها من أصغر بقعة تعطيك الإجابة عن أحداث العالم وما يفكر فيه، والإجابة الوحيدة هي علينا أن ننتظر من يفوز ، المال أو ميراث الشعوب والأفراد من تاريخ وإرادة، وصلوا بعد قرابة الساعتين، ذهبوا بالنساء إلى منزل (حسين) ليتفرغوا لإكمال إجراءات قياسات الأرض ومطابقتها على المستندات، أتوا بدلال المساحة الذى أجرى كل القياسات والأبعاد من كل الجهات وتم التحقق من سلامة كل شيء، تم الاتصال بالمحامين من الطرفين لتعريفهم بصحة كل شيء والمطالبة بإنهاء كافة الإجراءات بخلال وقت قصير، أبلغ (لوكا) الأخوين أن باقي مستحقاتهم سوف تكون لديهم بخلال أيام قلائل، طلب من (رضوان) إرسال أبعاد الأرض إلى ولده (إسلام) ومطالبته برسم معماري مغاير تماماً لأى نمط سائد وتمنى منه أن تغلب عليه العمارة الأندلسية، هو منذ زاد أسبانيا وهو مولع بطرازاتها المعمارية، وأن يحيط بالمبنى مساحات خضراء من كل جانب، وان يتكون المبنى من خمسة طوابق، بالإضافة إلى رووف كبير على كامل المساحة يعد كمكان للسهر وقضاء المناسبات، والطابق الأرضى بهو كبير بها المرافق وحجرات للمكتب والمكتبة، وأن يتم هذا بخلال أسهر قليلة وعليه وترشيح شركة لها اسم كبير بالتنفيذ، وأن عليه المتابعة

بصفه دورية، قبل المغادرة أتى بمن حفر عمقا كبيراً ووضع لوحة مكتوب عليها (فيلا الأصدقاء)، طلب من (حسين) التجهيز غدا لنحر بعض الذبائح وتوزيعها على أهل القرية احتفالا بما تم، عادوا جميعاً إلى بيت (حسين)، طلب (عبد الله) حضور كل النساء يريد الحديث للجميع بحضورهم، أتوا تحلق الجميع حوله.

- بالحقيقة هناك أمر هو من أفكار (مارجريتا) وموافقتها عليه، الأيام الماضية التي عشناها سويا أعادت لنا الكثير مما غادرناه بفعل المسئوليات وهذا بتصوري مبرر ليس منطقياً، فمهما تباعدت بنا الأزمان والمسافات علينا دوما أن نظل متماسكين بما عشناه سابقا وعلينا تقويته بدوام التواصل الحقيقي، ولذلك فكرت (مارجريتا) بعد معايشتها معكم وعدم شعورها بالغربة أن تقترح على أخى (حسين) وزوجته ونحن نعرف أن (ثريا) ابتنا طموح وتعشق العلم ، لذا نعرض عليكم إكمال دراستها العليا وحتى الحد الذى تحلم به بجامعة السوربون وتكون تحت رعايتنا، ونتولى شئونها إبنة لنا، وأتمنى منكم جميعاً أن تؤيدونني بهذا المطلب، ما رأيكم؟

فوجئ (حسين) وزوجته وابنته بالعرض حاول مراراً الفكاك من هذا العرض المغرى، ولكنه لمح بعيون ابنته رغبتها بهذا وأيضا تزكية الجميع له والإصرار عليه، فما كان عليه إلا الإذعان، طلب (

عبد الله) إعداد كافة الأوراق لتكون معه حين سفره بخلال أيام، وسوف يكون على تواصل دائم معهم حتى تصل إلى باريس وكل شيء معد وجاهز بالشكل المناسب، تعانقت كل النساء مع (ثريا) مهنئين لها، نهضوا آملين بجوله متحرره تأخذهم أقدامهم حيث تريد وتشاء، تشابكت أيديهم ساروا بين الشوارع والحوارى والأزقة، تأملوا البيوت القديمة والحديثة، هناك تمازج بين القديم والجديد كليهما لا يمكن الفكاك له من الآخر، ساروا بين الحقول، بين الزروع يزعقون على من يعمل بعلو الصوت، جلسوا تحت أشجار التوت والجميز، أرادوا أن يتسلقوها لم يستطيعوا أحسوا بغصة، فلقد انتصر الزمن عليهم، مر الوقت عليهم كأنه لحظات، الوقت السعيد يمضى سريعاً ويهرول، عادوا وهم بحال غير الحال كأنهم عادوا سنوات للوراء، وجدن النساء يجلسن على حصير حتى (مارجريتا وكريستينا) وجدوهن على نفس الجلسة، وبشكل أقرب إلى التعود السابق، كانوا يتبادلن الحكايات كل بلغته ولكنته والضحكات أتت إليهم عن بعد، نظروا إلى بعضهم، وابتسموا وقالوا لقد صنعن حزباً نسائياً ربنا يلطف بنا.

باليوم التالي. تم نحر الذبائح بعدد كبير وقام الشباب بتوزيعها على كل بيوت القرية كبيرها وصغيرها، حالة من البهجة تسود كل

الربوع، أخذوا طريق العودة تاركين (حسين) وأسرته مع التأكيد على إنهاء كل الأوراق المطلوبة والحضور بها إليه بأقرب وقت ممكن قبل سفره بخلال أسبوع، وطالب (لوكا) من (رضوان) الاتصال بابنه كل فترة قصيرة لمطالبته بالإسراع بتصميم القصر الجديد، بل طلب منه أن يدعه يحدثه ويشرح له رؤيته الخاصة وهو ما حدث، (إسلام) أكد له أن كل شئ سوف يسير حسب ما طلب وضاحكه.

- لتعلم يا عمى أن التكلفة سوف تكون فوق تخيلك.

- يا ولدى لك ميزانية مفتوحة ما يهمني أن أجد قصراً حلمت به يجمعني مع رفقائي ما تبقى من أيامنا، سوف أعود وأترك كل شيء للأولاد وأتمتع بعودتي إلى مرفأ أيامى السابقة، يا ولدى مهما أخذتنا الحياة ودفعت بنا إلى أتونها الذي لا يرحم، بنا حنين دائم لأن نعود كما بدأنا، نكبر ونكبر، ولكن الطفل داخلنا لا يكبر أبدآ، إن كبر الطفل داخلنا يوماً تأكد أننا بطريقنا إلى النهاية، على الإنسان أن يتمسك بالطفل القابع داخله حتى يظل ممسكاً بالسعادة ولا تفلت منه.

غادر الجميع كل إلى مقر إقامته، على وعد باللقاء قريباً وقبل السفر وبعد وصول الرسوم الهندسية وبدء الشركة التي سيحددها (إسلام) للتنفيذ، ووعد (لوكا) بالحضور مرة بالشهر، وكذلك (

عبد الله) كان نفس الوعد، عاد كل منهم إلى حياته المعتادة، انتهى المحاميان من إنهاء إجراءات إثبات نقل الملكية، حينها أعلن (لوكا) سفره وصاحبه على الطائرة (عبدالله) الذى طلب أن يقضى أياماً بقبرص، دارت الأيام دورتها الطبيعية التي لها هي قرارها الأوحد، بعد عودة (عبد الله) إلى باريس بأيام أجرى اتصال مع (حسين) يخبره بقبول (ثريا) بجامعة السوربون وأنهم بانتظارها لمقابلة لمعرفة اختياراها، وأن عليه التجهيز لسفرها على وجه السرعة، وأنه أعد لها إقامة بالمدينة الجامعية بالجامعة حتى لا تشعر بحرج، أما يومان بعد حضورها ستصاحبها (مارجريتا وروح الفؤاد) بجولة لتعريفها بباريس، أخبره (حسين) أنه سيسعى لإنهاء الأمر بأقرب وقت ممكن وشكره لجهده، نهره لأنه يعتبرها مثل ابنته، (لوكا) على تواصل دائم مع (إسلام) يستحثه لإنهاء المخطط المعماري والتشاور حوله للوصول لأقرب تصور له مع سرعة الاتفاق مع شركة لها اسم كبير بعالم الإنشاءات، مع تفويضه هو بمتابعة العمل دوماً، ذات يوم وصله عن طريق نظام الفاكس ميلى الرسم، الذى أبهره، كانت دهشته كبيرة وكأن (إسلام) كان معه بذات الرؤية، واخبره بموافقته على ما وضعه من تصور، أخبره بعدها بأيام قليلة أنه أتفق مع شركة إنشاءات معمارية بليجبكبة

ذائعة الصيت لها شركاء مكاتب هندسية بالقاهرة على قيامهم بالتنفيذ وأنه سيرسل له عقد الاتفاق ليرى ما به من بنود، وهو ما تم بعد أيام بعد تعديل بعض البنود وخاصة مدة الانتهاء الذى طلب أن لا يزيد عن تسعة أشهر وأن يسلم له المبنى كاملا من كل الوجوه، (ثريا) ذهبت إلى باريس التي وصلتها والنهار يودع يومه، كان باستقبالها كامل الأسرة، (عبدالله) وزوجته وابنته وابنه، ذهبا لها إلى فيلتهم القريبة من برج ايفل الممكن رؤيته من شرفة الفيلا من زوايا متعددة، كان العشاء معدا محاطاً بأضواء الشموع الملونة، واضاءات خافته مع ورود تحتل كل الأرجاء، تحدثا حول القرية وعلاقته بأبيها والحكي عن مواقف طريفة جمعتهم، الضحكات تعلو بلا أي عوائق، بعدها صحبتها إلى حجرة خصصت لها، ولكنها فاجئنهم بطلب أن تشارك ،(روح الفؤاد) حجرتها، استجابا لها، كانت تهدف إلى معرفة الكثير عن الأسرة وعن باريس وطقوس الحياة لها، لم يقترب النوم من أعينهن طوال الليل يتكلمن كل منهما تحكى كل شيء عنها، رغم أنها المرة الأولى التي يلتقيان بها إلا أن الألفة قاربت بينهن سريعاً، سألتها (روح الفؤاد).

– قالت لى أمى أنك تحبين الشعر بشغف كبير، وأظن أننا متوافقين بهذا، وإن كنت أنا أقرأ كثيراً لشعراء فرنسيين وقليلاً لشعراء عرب،

قرأت لشعراء الفرنسية (أدولف دوماس، أدواف فافر، أناتول فرانس، أندرية بلسو وآخرين، وقرأت للانجليزين ،(الآن هالس و الدوس هكسلى) وبعض العربية على رأسهم (نزار قباني، فاروق جويده)، والعراقيين (بدر شاكر السياب والجواهرى ونازك الملائكة) يعنى تنوع وماذا عنك؟

– أنا من الصغر أهوى قراءة الشعر من مختلف العصور، ولكنى اشاركك بقراءاتي (لنزار قبانى وأحمد عبد المعطي حجازى) كما قرأت ،(حافظ إبراهيم) شاعر النيل وقرأت (الشوقيات لأمير الشعراء أحمد شوقي) وأشاركك ببعض القراءات للشعر العراقي، منذ الصغر وانا أسمع جملة تتردد دائماً، القاهرة تكتب وبيروت تطبع وبغداد تقرأ، لذا كان شغفي بأدب هذه البلدان مع مصادر أخرى لبلدان عربية أخرى.

طال بهم الحديث، قبل أن يخلدا للنوم قالت لها (روح الفؤاد).

– أنا تحدثت معك بشأن الشعر لأن أمي أخبرتني بهذا ثم هي أعدت لك هدية لن أخبرك بها، ندعها مفاجأة لك، تصبحي على خير.

ناموا في ساعة متأخرة من الليل، ورغم ذلك جاءهم طرقات خفيفة تدعوهم لجولة صباحية قبل أن تصل المدينة حد الصخب والضجيج، إن أردت أن تعرف المدن على سجيتها عليك أن تراها بثيابها الحقيقية التي لم تتغير أو تتلون أو تختلف بعد، عليك رؤيتها قبل أن تغتسل وتضع كل الميكاچات على ملامحها فتختفى الحقيقة، نهضتا مسرعتين وكأنهم ناموا لساعات طوال، وقت قليل وكانوا أمام الفيلا، (أكرم ووالدته) بالانتظار، أنطلق بهم إلى أحياء المدينة، سان جيرمان، الحى اللاتيني، الحى السابع، بيغال، مونمارتر،، السان ايليزى، وغيرها من الأحياء الشهيرة، أخذهم إلى مطعم على ضفاف السين، تناولوا الإفطار بشهية وسط حكايات وضحكات تنساب من الأفئدة شديدة العفوية، عادوا إلى الفيلا وقد غادر الوسن كل ما بهم، جلست وسطهم بالبهو، طلبوا منها أن تحكى طفولتها، الطفولة هي المؤشر الحقيقي للشخص، شردت لفترة حيرة من أين تبدأ، ولكنها بسرعة حددت البداية.

- لعلني أتذكر البدايات وأنا بعمر السادسة، يمكن القول إنها سنوات التمييز والفهم المبدئي، كنت مدلله من الجميع، لم أطلب شيء الا وجدته مجابا، ولكنى بذات الوقت لم أكن من النوع كثير الطلبات انتهازاً لهذا الدلال، وكنت من الصغر ومنذ أن ذهبت إلى

كتاب الشيخ (محروس التلبانى)، وجدت نفسى شغوفة بالتعلم، بالقرآن الكريم، بتعلم اللغة، وكنت حسبما قالوا سريعة الفهم والاستيعاب، حتى أن الشيخ جعلني أحياناً اقرأ القرآن وهم يرددون ورائي رغم عمرى الصغير، أبى كان سعيداً بهذا التوفق، بدأ يأتي إلى ببعض قصص الأنبياء والصحابة، والمجلات المصورة، ربما هذا كان سبباً بأن محيط صداقاتي كان محدوداً، لا تتعدى حدود بنات العائلة وواحدة أو اثنتين من خارجها، كنت أود تعلم كل شيء. بي شغف كبير للتساؤل الذى أراه مفتاح المعرفة، حتى بسنوات الدراسة كنت دائمة التساؤلات حتى نعتتني إحدى المدرسات بلقب (ثريا تساؤلات) ، والحقيقة لم أغضب من هذا المسمى بل كنت سعيدة به لأنه أعطاني نوعاً من التميز، وصارت حياتي على هذا النحو، التفوق والبحث عن المعرفة وزادت قراءاتي وتعددت إيمانا منى أن للمعرفة زوايا عديدة وعلى الإنسان أن يقترب منها ليستطيع فهم الحياة، لم أنساق لأفعال المراهقة والتفكير بفارس أحلام بمواصفات معينة، تركت كل أمورى لله، وربما كانت عفويتي سببا لتجربتي المؤلمة، ولكنها كانت درساً ربما كان شديد القسوة، ولكن تعلمت أن تتروى بقرارتك ولا تندفع نحو أمر لا تعيه تماماً ولا تنخدع بالبريق والمظاهر المؤكد هي تخفى

الكثير، وضعت أمام عيناي أن أصل إلى أقصى درجات العلم، واصارحك عمى (عبدالله) أنى حلمت كثيراً بهذه الجامعة تحديداً لمعرفتي أنها قدمت للبشرية أسماء كتبت وسطرت تاريخاً مؤثرا بحياة الشعوب والشخوص، طبعا من أولهم، (رفاعة الطهطاوي،) وعميد الأدب العربي (طه حسين)، وبعض الأجانب بالعصر الحديث مثل، (جرارد شاليااند)البليجكى المتخصص في علم السياسة والاستشراق، (الينوس طربان) الإيرانية المتخصصة بالعلوم وعلم الفلك والفيزياء، (أن دنهل) البريطانية والروائية الشهيرة، آلاف من الأسماء خدمت البشرية بشتى العلوم ، هذه أنا باختصار.

وجدت نظرات الانبهار تعلو كل الوجوه، بادرها (عبدالله) .

– بسم الله ما شاء الله فكر مرتب وذهن متوقد محدد الهدف، ما كنت أعرف أن لدينا ابنه بهذا التفكير الناضج، حرسك ربى.

أما (أكرم) اكتفى لإبداء رأيه بابتسامات عريضة سادت ملامحه، نهضت (مارجريتا) ذاهبة إلى حجرتها، غابت دقائق وعادت تحمل بين يديها حقيبة أنيقة، قدمتها إليها.

– هذه هديتي الأولى لك، منذ أن عرفت ولعك بالشعر إلا وذهبت إلى بعض المكتبات الكبرى والتي بها قسم للإصدارات العربية، انتقيت لك هذه المجموعة من الأشعار المتنوعة بين الحديث والقديم، لعلها تروق لك.

عانقتها وقبلتها، خاطبتها.

– حضرتك اسعدتينى لأنك جئت لي بونيس أنا أعشقه، شكرا لك بجد.

نهضت طالبة أن تذهب الى الحجرة لتسترخي قليلا، الجميع فهم أنها تريد أن تلقى نظرة على دواوين الشعر، بالفعل سارعت إلى فتح الحقيبة، العديد من دواويين الشعر، لأسماء كبيرة تعرفها وقرأت لها، وجدت ديواناً تحت عنوان (رسائل الى امرأة) لشاعر عراقي اسمه(مهند الشاوي)، بالحقيقة أول مرة تسمع عنه، ولكنها تعرف أن العراقيين بارعين بالشعر، وكم من شاعر أو كاتب مميز لم يجد مساحات لأن يكون متواجداً بقوة وعن استحقاق مثل الكثيرين، وإن كان الكثير منهم له طريق مفتوح بالعلاقات والشللية وتلاقى المصالح، بكل دروب الحياة من هم بالظل دون إرادتهم أو لأنهم لا يعرفون إلا الطريق الواحد وغير المتعرج، ولأنهم لا يجيدون السير بالدهاليز التي تحتاج إلى مواهب أخرى تختلف كل الاختلاف مع

مواهبهم الإبداعية، ولعل هذا صار سائداً بكل طرق الحياة، على خلاف النظرية الاقتصادية التى تقول (العملة الجيدة تطرد الرديئة)، للأسف أصبحت مقولة معكوسة، وتحول الكاتب إلى موظف ولم يعرف الطريق الى مقولة (ألبير كامو)، الكاتب راصد للحياة وليس موظف بها، أمسكت بالديوان، قرأت.

- فى عينيها تنبت الحروف حرفاً حرفاً

فى عينيها تكتمل القصيدة.

- نكهتها جنوبية

وجبهتها جبلية

راقية الحسن

جميلة الصوت

كأنها قيثارة سومرية... أهديها سلامى.

- سألتنى :

كم قطعة من السكر تحتاج لقهوتك؟

أجبتها: وهل مع قهوة بنكهتك

أحتاج إلى سكر

- امرأتي الأولى انت

وامرأتي الأخيرة أنت

وما بين عينيك وعينيك

غنت كل النساء.

تاهت بين القصائد، شعرت كأن هذه الرسائل إليها، شاعر يقدس المرأة لكل ما بها ولم تقتصر رؤيته على الجسد وكما يفعل الكثيرين، لم تنهض من جلستها الا بعد أن انتهت من الديوان كاملا، وسألت نفسها هل تلتقي بمن يفهمها إنسانة قبل أن تكون انثى، وضعته جانباً وألقت بنفسها على الفراش وسمحت للنوم أن يأخذها برحلة طويلة.

.١٤..

.. الأيام تهرول وكل شيء يهرول معها، السباق ابدأ لا ينتهى، حركة البناء تسير متسارعة، (حسين) تفرغ تماماً لمتابعة كل شئون البناء، (إسلام) على تواصل دائم مع الشركة المنفذة، قد تطرأ تعديلات يتناقش معهم بها حتى يصلوا إلى نقطة اتفاق، (لوكا) يأتي مرة بالشهر يمكث أياماً، يتجول بين ما تم تنفيذه، يبدى بعض الملاحظات، يجلس مع (حسين) الذى دائماً يقدم بيان تفصيلي بما تم صرفه، يحرر له شيكاً بمبلغ ضخم، ويغادر مطمئناً تماماً إلى أن الأمور تسير حسبما فكر وأراد، (ثريا) تم إلحاقها بكلية الآداب قسم اللغات الشرقية، هي ترى أن بها رغبة لتعلم لغات تكاد تندثر، تم تسكينها بالمدينة الجامعية، وكل نهاية أسبوع تأتى إليها (روح الفؤاد،) التي تشعرها أنها توأمها، لتأخذها لقضاء الإجازة معهم، تتحدث مع أسرتها كل يومان صوت وصورة عبر آليات التكنولوجيا الحديثة، بالآونة الأخيرة وجدت بصر (أكرم) لا يغادر صفحة وجهها مطلقا، ولمحت مراراً بسمات تعلو شفاه الأب والأم، حتى فوجئت أحد الأيام له يأتي إلى كليتها، يطلب منها الجلوس إليها لبعض الحديث، انتابتها الدهشة لبعض الوقت، وشردت قليلاً تحاول التكهن بما يريده، وافقته آخذين الطريق إلى

كافتيريا الكلية، أخذا يتفرسان كل منهم بالآخر، يتبادلان النظرات المتسائلة، طال بهم الصمت هي تنتظر أن يتكلم، وهو يحاول جاهداً الإمساك بخيوط الكلام الذى كلما أراده يتبعثر من على شفتيه، أخيراً بعد فترة صمت وتململ كثير بالجلسة وخبطات الأرض خبطات قلقه تحدث.

- لن ابدأ بمقدمات، ولك الحق بدهشتك ما الذى يدفعني للحضور وانت عادة وسطنا بإجازاتك وأريد القول بما أريد أمام الجميع، الشهور الماضية أزالت الكثير من الحواجز بيننا، ولكن هذا أمر لا يمكن أن يقال إلا بين الإثنين بيني وبينك، (ثريا) بكل وضوح وصراحة تامة أنا معجب بك، ربما بدا هذا من اللحظة الأولى، ولكنى بطبعي حذر دوماً بكل خطواتي، قلت ربما أنك جديدة على الأسرة ودائماً الجديد له جاذبية، هكذا تصورت بالبداية، ولكن مع مرور الوقت والحوارات وجدت نفسى بك كثيراً، وباختصار دون إطالة أود ان أتقدم إليك وما كان على إلا أن أحضر إليك وأحدثك وجهاً لوجه، لا أطلب الرد منك على الفور، فكرى مرات وأيا كانت إجابتك أنا مرحب بها، أن وافقت لك تحديد الكيفية وإن رفضتي اعتبر أنى لم أحدثك ويظل الاحترام الإنساني بيننا.

أطرقت برأسها إلى الأرض وداعبت خصلات شعرها وكم من مرة مررت يدها على وجنتيها تمتص الحرارة المنبعثة منهما، تنظر إليه ثم تعود لخفض نظراتها، أصابعها تنقر على المائدة نقرات أشبه بدقات موسيقية موحدة، وهو أيضا لا يحرك ساكناً، مجرد نظرات مصوبة إليها تبتهل إليها بالحديث

– بالحقيقة أنا سعيدة بوضوحك وتصالحك مع ذاتك، وتفكيرك بأن هذا أمرٌ لابد أن يتم النقاش به بين الطرفين، دون الإجراءات الروتينية، وهذا لا يغفل أننا أيضاً لابد من السماع لرأى أهلنا وحكمتهم، أشكرك على عرضك الذى يشرفني، ولكن لي وجهه نظر رغم ترحيبي بمبادرتك وعرضك الأمر على صاحبة الشأن حتى تقف على أرض صلبة، أرجو أن تؤجل هذا إلى إجازة الجامعة، والحضور إلى أهلي والطلب منهم مباشرة وحين يريدون قراري سأعلنه أمام الجميع ، أنا لا أفكر مثل الأخريات، انا أخجل وأهرول إلى حجرتي وأرتمى على الفراش، وأقول لكم الرأي، قرار الزواج قرار لابد أن يكون صادراً بكامل الإرادة من صاحبة الشأن، كلها شهر وقليل من الأيام، سوف تعرف ردى ساعتها، وثق أن الله هو الذي سيملى على القرار، أرجو أن أكون قد أصبت بالرأي.

- بالحقيقة رغم أن الرد مبهم، ولكنى أرحب برأيك ولتكن مشيئة الله من قبل ومن بعد.

- كل ما عليك أن تنتظر وتخبر عمى ووالدتك برغبتك، وننتظر قرار الله والأيام.

نهض مودعاً لها للمرة الأولى يحتوى يديها بين يديه، ويربت عليهما وهو يحمل أملاً كبيراً بالغد، وعادت تحمل نقيضين سعيدة بهذا الشعور وبذات الوقت لديها هاجس كبير، هو شاب عاش كل عمره بأوروبا ومعروف عنها أن الحرية لديهم مطلقة، والشباب والشابات لهم شطحات بلا أي حدود، ومن الممكن أن تكون له علاقات، ولكنها بذات الوقت ردت على نفسها، لا وألف لا عمى(عبدالله ،) لا يمكن أن يسمح بتجاوز العادات والقيم التي تربى عليها، أما (أكرم) كان يعبر عن سعادته بالسير قفزاً، هي لم تغلق الباب بل تركته مفتوحاً لحد ما، أسرع بالاتصال بأبيه طالباً منه أن يعود للبيت بأسرع وقت ممكن يريده هو وأمه بموضوع هام لا يحتمل التأجيل، ضحك أبيه به حدس عن الموضوع العاجل، أخبره أنه بخلال ساعة سيكون بالبيت، كانت الجلسة تجمع بين التفاهم والسعادة، الأب ينظر للأم بعدما عرض عليهم الاقتران (بثريا)، لم يخبراه أنهم خططا لهذا، وأنه بمطلبه قد حقق أمانيهم، عندما

أخبرهم عن الحديث الذى دار بينهما، أشادوا بها وبعقلانيتها ووافقاها على حديثها معقبين.

- بنت أصول تفهم الحياة كأنها بعمر كبير.

اتفقوا على الذهاب جميعهم بعد الإجازة الجامعية إلى البلد وطلبها رسمياً، ولا نظن أن (محمود) قد يبدى أي اعتراض.

المباني تزداد سرعة العمل بها، ربما طوال الأربع وعشرين ساعة، كل من يمر بها يقف مندهشا، البناء يشير إلى أمر لم يعهدوه لا بالقرية أو حتى بالمدينة، (حسين) يكاد يكون متفرغاً للإشراف، كل يوم يرسل صوراً لما تم، تأتيه اتصالات من (لوكا) يتابع ويسأله عن مدى احتياجه لأموال أخرى ليرسلها له، إعتاد أن يأتي مرة كل شهر، يقضى يومين أو ثلاثة ويعود، (رضوان) انشغل بعمله الوظيفي إلى حد كبير، لم يحضر إلى القرية الا مرتان أو ثلاثة خلال الستة أشهر الماضية، ولكنه كان هو يتابع مع (إسلام) كل شيء، أتت إجازة الجامعة، عاد الجميع إلى القرية، كان (عبد الله) قد اتصل (بلوكا) طالبا تواجده بذات الفترة، ذات مساء صيفي مصاحب بنسمات وادعه التقوا ببيت (عبدالله) وإخوته، تواجد (رضوان) وزوجته، وتواجد (لوكا) وزوجته، بدأت الجلسة بحوارات متعددة الزوايا والاتجاهات لوقت طويل وسط أجواء من

الألفة والسعادة، قطع هذه الحوارات والنقاشات الجانبية (عبد الله).

– طلبت منكم جميعاً التواجد بهذا اليوم لأنكم أسرتي، ولأن الأمر يحتاج رأيكم وشراكتكم معي، بلا إطالة أنا أتقدم لطلب يد ابنتنا (ثريا) لابنكم (أكرم).

صمت بعدها وأخذ يتبادل النظرات بين الجميع، لم يمهله (حسين) وقتاً طويلاً، جاء رده.

– من المؤكد أن (ثريا) ابنتكم مثلما (أكرم) ابننا جميعاً، والحقيقة أنا لا أستطيع إلا الترحيب والسعادة بهذا الشرف، ولكن لأننا تربينا على أن لصاحبة الشأن قرارها، فلنا أن ننتظر رأيها.

ووجه بصره إلى ابنته مشمولة بسمه صافية تعلو الشفاه، لم تجب، بل نهضت مهرولة إلى حجرتها، تعقبها الضحكات، نهضت الأم إلى حيث حجرة ابنتها قائلة.

– بأمر الله خير، هكذا كل البنات الخجل يسودهم بمثل هذه الأمور، لحظات واعود لكم.

أخذوا بالحديث في زوايا متعددة، بحثا عن إزاحة بعض القلق الذي يعتريهم، (عبدالله) تناول أطراف الحديث.

– ألا يشغل بالك أمرا يشغلني منذ أن التقينا، بعد أن أخذتنا الحياة كل منا إلى طريق، وتباعدت بينا المسافات، ولكن رغم الحياة المختلفة والأجواء والطقوس المغايرة بكل بلد نعيش به، إلا سبحان كأن هناك مغناطيسياً هو حجر الزاوية، نذهب بعيداً، ولقاءتنا متباعدة وبالمصادفة، ولكن بالنهاية جميعنا يعود إلى نفس الدائرة، التشابه يا سادة هو نداء دائم، ينادى كل من يحملون تشابها معيناً ولا أقصد هنا التشابه بالملامح، أقصد التشابه بالأفكار، بالميول، بالتعامل مع المواقف، بذات الطقوس أو التشابه معها، ونحن خير مثال، عدنا كما كنا، وكأننا نولد من جديد، أليس هذا واقع ملموساً. وهذه رسالة من الله أن على كل إنسان أن يظل بحالة بحث دائم عن من يشبهونه بالكثير من زواياه.

أيده الجميع، فالكل راوده نفس التفكير، اعتراهم الصمت، حتى أتت الأم تصحبها الابنة تتعثر بخطواتها، جلسا على كرسي واحد تكاد الابنة تجلس على ساق الأم التي ضمتها بيدها، الأم.

– الحمدالله، يا حاج (حسين) ابنتك أعلنت موافقتها، وعليك أنت باعتبارك ولى الأمر أن تعلن هذا.

لم ينتظر أن تنتهي من حديثها.

– على بركة الله، مبروك لنا جميعاً.

نهض الجميع يعانقونه، وأيضا النساء التففن حول (ثريا) يمطرونها قبلات، نهضت (ناهد) مقتربة من (ثريا)، نزعت سلسلة ذهبية من حول عنقها وطوقت بها عنق(ثريا).

– هذه كانت هدية من أمي، أم (رضوان) إلى يوم خطبتي، ورغم أنها غالية على، ولكنها ليست بغالية عليك، فأنت أيضا من العائلة.

علت الزغاريد، وبعد الهدوء قليلا أشار إليهم (لوكا) طالبا الحديث.

– ما دمنا وصلنا إلى هذه الحالة من التوثيق بالمصاهرة، دعوني أقرر شيئا، بخلال شهور قليلة يكون القصر جاهزاً من كل شيء، وسنفتتحه بحفل زفاف أولادنا وقضائهم أسبوعاً به، وهذا خير افتتاح بالفرح، هذه واحدة، الأخرى بعد الأسبوع سوف نصاحبهم جميعاً لشهر عسل كامل برودس، بأفخم القصور على الشاطئ مباشرة، والثالثة لا حديث بأي تفاصيل بهذا الشأن من تجهيزات وشبكة ومثل هذه الأمور، هم أولادنا جميعاً، أرجو أن لا نتشابه مع الأخريين بهذه الشكليات، سوف نقوم بكل ما يلزم محبة لهم، لا

اعتراض مطلقاً، وجه هذه الجملة إلى (حسين) تحديداً الذى اكتفى بأن أطرق برأسه موافقا. عقب (عبدالله) قائلا.

- مؤكد كلنا آباء لهم، ولكن أعلن أن هناك فيلا مجهزة تماماً بحي (مونمارتر)، فيلا مجاورة لفيلا (روح الفؤاد) حين يأتيها نصيبها، ثم غداً ودون إبطاء سوف نذهب جميعا إلى حي الصاغة بالمنصورة وللعروس أن تنتقى ما تريده دون أي حرج، ثم بعدها نجلس بإحدى قاعات فندق (مارشال) للاحتفال بالخطوبة مقتصر الأمر على محيطنا العائلي الضيق، ثم وعد منى أمامكم سوف تظل (ثريا) بمضمار العلم إلى أبعد حد تصبو إليه، وربنا يديم علينا الفرح.

عقب (حسين).

- أشكر لكم جميعاً هذا الشعور الجميل، وأنتم تعرفون أنى طوال العمر لم أفكر لا بثروة ولا مناصب ولا أي شيء أعتبره عارض من عوارض الدنيا، كل ما كنت أسعى إليه أن أصل بأولادي إلى بر الأمان وأن أجعل منهم قريبين من الله يعرفون حدوده وحقوقهم وحق الآخرين، وأحمد الله أنى حققت حلمى ووصلت الى كل ما صبوت إليه، ما يهمني من (أكرم) أن يكون لها أباً وأخاً وصديقاً وحبيباً وزوجاً وأن يراعى الله فيها، وأنا واثق أنها ستكون نعم

الزوجة وتدفعه الى المزيد من النجاحات، ندعو الله لهم بالبركة والستر الدائم يا رب العالمين.

شاركه الجميع الدعاء ،طالت بينهم الجلسة بين أحاديث كلها فرح وبأصوات صاخبة وضحكات عالية.

بصبحية اليوم التالي وبعد الظهيرة تجمع رهط كبير من السيارات، ضمت الأقارب والأهل، أخذوا الطريق الى حي الصاغة بالمنصورة، تجمع الجميع أمام المحل المختار الذى يتعاملون معه من فترة طويلة، الأم وابنتها (مارجريتا) مع ابنها هم دخلوا إلى المحل لانتقاء ما يريدون، على مدار الساعة يقلبون بين المصوغات، ينتقون ثم يتراجعون، خرجوا بعد اختيار ما توافقوا عليه، تم احتفال بسيط بإحدى قاعات الفندق، أغاني أفراح وزغاريد، ثم عادوا إلى القرية بعنوان واحد يجمعهم هو السعادة، كان الرجال الأربعة يسيرون على خط واحد كل منهم يحتوى كتف الآخر ويربت عليه بين الحين والآخر.، بخلال أيام عاد كل منهم إلى حياته كما اعتادها، (لوكا) سافر إلى قبرص وانشغل بأعماله، (عبدالله) عاد إلى باريس يتابع مجريات شركاته، (ثريا) لحقت بهم بعد نهاية الإجازة، تلتقى مع (أكرم) بنهايات كل أسبوع، يتناقشان بأحلامهم وخطواتهم القادمة، يرسمون ويلونون أحلامهم وطموحاتهم، يتابعون

تجهيزات فيلا باريس، تتصل بوالدها كل أسبوع تطمئنه وتطمئن عليهم، البناء يزداد استكمالاً ،

الأيام تسير حسب وتيرتها وكما تريد، الحياة قدريات مكتوبة لا يستطيع أي أحد أن يحول دفتها، الحياة خطان، خط يفهمه من يملك البصر والبصيرة حينها يكون متوازناً يقف على أرض صلبة واثق من خطوته محدد الطريق والهدف، والآخر من لا يتبين الخيط الأبيض من الأسود ولا يجيد تمييز الطريق وبالتالي تهتز قدماه وترتعش خطواته فيتهاوى ضالاً للطريق، ينتظر من يمد يده له يدله على جادة الطريق، وقد يظل قابعا حيث تهاوت قدماه ولم يستطع النهوض، لأنه معصوب البصر والبصيرة من اللحظات الأولى، بعد شهور قليلة اتصل حسين (بلوكا) أخبره أن كل شيء تم، الأدوار الأربعة، كل منها قصر مستقل بذاته، أجابه بأنه بخلال اسابيع تصله شحنة الأثاثات، وسيخبره بالجديد أول بأول، وعند تمام الأمور سنحدد موعداً لحفل عقد قران وزفاف (ثريا وأكرم) بخلال أيام قليلة أخبره أن شحنة الأساس بطريقها إلى ميناء الإسكندرية، وعليه أن يعد شاحنات متخصصة بنقل الأثاث، كما أن عليه الاتفاق مع بعض المتخصصين بفرش الأساس بحرفية عالية، أخذ الأمر منه أيام يهرول بها هنا وهناك، صباح يوم جاءه

الهاتف يخبره أن بالغد تكون الشحنة قد وصلت، من فوره صاحب الشاحنات والرجال المتخصصين، على مدار أسبوع تم الانتهاء من فرش القصر بكاملة، كان (لوكا) قد حدد له ما يخص كل طابق من أثاثات، بعدما قام بإرسال صور للوضع النهائي إلى (لوكا) الذى سارع بالاتصال (بعبد الله) ينبئه بأن كل شيء جاهز وعليه تحديد موعد عقد القرآن مع (حسين)، وكلفه بأن يعد الرووف أحسن إعداد من تجهيزات فراشية وإضاءات وأيضا إضاءة شاملة لكل الأماكن المحيطة بالقصر، واتفاق مع فرقة موسيقية ومطربين وراقصين، يريدها ليلة تكون حديث الجميع لوقت طويل، قائلا له.

- هي ابنتي قبل أن تكون ابنتك، كل تكاليف هذه الليلة على، يقضيان أسبوعا وحدهم بالقصر، ثم نغادر جميعا إلى قبرص ورودس، يكملان شهر العسل ونحن نستجم ونعيش وقتا جميلا، أدام الله أفراحنا.

أخبره (حسين) أن كل هذا لن يكون قبل شهر بعد الانتهاء من العام الدراسي، اتفقا على التواصل بينهم وبين الجميع حتى يكونوا على أهبة الاستعداد من أجل هذه المناسبة السعيدة.

الزمن يركض والكل يركض معه سعياً وراء مناسبة تختلف كثيراً عن كل ما سبق، قبل الموعد بأسبوع وجهت الدعوات لوجهاء

القرية والمحافظة وبعض الشخصيات العامة، وتزينت الشوارع وإضاءات تزين القصر بكامله، والرمال الحمراء تكسو كل الطريق إليه، باليوم المحدد كانت الفرق الموسيقية تصطف أمام القصر من ساعات الصباح الباكر تعزف موسيقاها وأغاني الأفراح تصدح من أكثر من مكان مجاور، الأمر الرائع بالريف أن تجد أي شعور يخص أحد أفرادها يتحول إلى خصوصية الجميع، الأصدقاء الأربعة يقفون يرحبون بالجميع يشعرونك كأنهم توائم وكأن الزمن قد عاد بهم إلى الوراء سنوات، عند السادسة بدأت السيارات المصاحبة لموكب العرس تطلق أبواقها منغمة، رهط كبير من السيارات يحيط بسيارة العروسين المزينة بكل جنباتها بالورود وتعلوها صورة للعروسين متشابكي الأيدي، توقفت أمام باب القصر تماماً، أسرع كل منهم إلى باب من الأبواب، يفتحه، مد(حسين وعبد الله) يدهم ممسكين بيد العروس والعروس، (نجوى ومارجريتا) بالخلف، تعقبهم (ناهد وكريستينا)، الزغاريد ترتفع وتطير إلى السماء، صار المكان مغلفاً بالزغاريد والغناء الصاعد من الأفئدة بصدق، أحاطت الفرق الموسيقية بالعروسين ليصعدوا السلم وعلى مهل وسط موسيقى زفات العروسين لمطربى ومطربات الزمن الجميل، مها صبري، محمد فوزى، محمد رشدى،

عايدة الشاعر، وأغنية و(ناظم الغزالى ومائدة نزهة) العراقيين، طالعة من بيت أبوها رايحة بيت الجيران، ساعات طويلة مضت بعرس امتد حتى تباشير الفجر، ما بين رقص وغناء وفرح غطى كل الأرجاء، تمت زفتهم إلى الطابق الثاني الذي اختاراه سويا، غادر الجميع تملأ السعادة كل جوانحه.

خلال الأسبوع المقرر وجودهم له قبل السفر، كانوا لا يفترقون إلا عند ساعات النوم، كانوا يخرجون صباحاً يتجولون بين الحقول، يتقفون أمام أماكن بعينها يعيشون أمامها بعض ذكريات الأمس البعيد، يضحكون حتى تمتلئ عيونهم دموعاً ضاحكة، تجدهم يجلسون على بعض من قش الأرز موجود على رأس أحد الحقول، يتداعبون ويتشاكسون وبدواخلهم يتمنون لو يستطيعون التمرغ عليه مثلما كانوا يفعلون وهم صغار،، قد يجلسون لصيد السمك، يحفرون للحصول على الديدان التي تستخدم طعما للأسماك، يعودون واضعين الأيدي فوق كتف الآخر، يسيرون بخطوات واحدة، أحيانا يذهبون مع نسائهم إلى أحد الحقول التي يمتلكها أحدهم، يفرشون الابسطة ويجلسون يتناولون الطعام بين كثير من الضحكات والنكات والمشاكسات والتذكير ببعض نوادر لمواقف مرت بأحدهم، انتهى أسبوع العسل، كان (لوكا) قد أعد الطائرة

الخاصة، قضوا شهرا بين قبرص ورودس ولارنكا وليماسول وغيرها من المدن، تنقلوا بين الشواطئ البديعة، زاروا شركات (لوكا) تعرفوا إلى ولديه (جون ومارك) شباب تجاوزوا الثلاثين من العمر، يحملون ملامح أبيهم تماماً، الود ساد بينهم وكأنهم لم يفترقوا مطلقا، تعاهدوا على اللقاء بصفة دورية وقضاء أيام معاً، تهرول الأيام وراء بعضها وتتلاحق الأشهر، يلتقون كل شهر يعودون إلى أيامهم وأحلامهم وطموحاتهم، يرتدون الملابس الريفية، حتى (لوكا) أصر على أن يرتديها، يجلسون على مقاعد أمام القصر، يتبادلون التحايا مع المارين بهم، يأتيهم بعض المعارف القدامى والاقارب، السؤال الدائم الذي يوجه لهم.

- تباعدت بكم المسافات والأزمان، كل منكم أخذ طريقا مغاير للآخر، ولكننا نرى أنكم لم تفترقوا مطلقا.

يتبادلون النظرات المليئة بريقاً من الفرح، يبتسمون بلحظة واحدة، يبادر أحدهم بالإجابة.

- قد تتباعد بنا الحياة، وتأخذ كل منا إلى مسار مغاير، لعمل مختلف، لحياة مختلفة، ولكن بيننا جميعاً ما ينادينا، التشابه، لكل إنسان ما يشبهه، وليس المقصود تشابه الملامح والقسمات ولون البشرة، التشابه هنا هو تشابه الأفكار، تشابه الأرواح، بالرؤى، بتحللات

المشاهد والمواقف، هناك فهم مشترك بيننا، التشابه متوارث عبر الأجيال لو راجعتم سيرة الآباء والأجداد ستجدون أن لكل منهم أصفياؤه والأصفياء يحملون تشابها مع الآخرين، حتى لو كان تباعدنا لأعوام طويلة، لذا كانت عودتنا، لذا كان تقاربنا، لذا كان ارتباطنا الروحي والفكري والإنساني، علينا إن كنا نريد الحياة الهادئة المتصالحة مع الذات أن نبحث دائماً وبلا كلل عن من يشبهنا.

طنطا، صباح الخميس ٣٠ديسمبر٢٠٢٢